

عَمَامَةُ الْعُقَاة

وَجَاءَ مَا يَدْعُو..؟

دِرَاسَةُ لِلْكَفَاحِ الْوَطَنِيِّ الْيُشُودَافِي





پنجاب ایجوکیشن بورڈ، لاہور

تفصیلی رپورٹ

1970

وجاء مایو ۲۰۰

1970-71 - پ. ب.

يطلب الكتاب في جمهورية السودان من

مكتبة الحرية

ام درمان

ص.ب - ۱۹ - تلفون ۵۵۱۲۱

دار الكتب والوثائق - قسم التزويد
بغداد
الرقم المجلد
الرقم الخاص ٥٠٤٤٤
٥٤٨٤

عام العقاد

وجاء مايو..؟

دراسة للكفاح الوطني السوداني

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - ٧٦٧٨ - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

آب (اغسطس) ١٩٧٢

دار الجيل - بيروت - ص ب - ٨٧٣٧

مقدمة الناشر

لم تشعر جماهير الأمة العربية بالقلق والفضب قدر ما شعرت يوم استمعت الى انباء عن انقلاب عسكري حدث في السودان يوم ١٩ يوليو (تموز) ١٩٧١ .. لم يكن قلقاً فحسب ، بل كان الما يمزق النفوس عندما تأكدت للجماهير هوية المتآمرين الذين قاموا بالانقلاب كشيوعيين ..

كان القلق ، لان الشعب العربي كان يتتبع جهـود ثورة الخامس والعشرين من مايو في سبيل خير السودان ، بكل إعجاب وتقدير ..

وكان الألم ، لان الشعب العربي يعرف أن شعب السودان الأبـي ، المتمسك بعقيدته وتقاليده، سيرفض الانحراف ويقاوم المتآمرين مهما كانت التضحيات .. في وقت تحتاج فيه الأمة العربية كل جهد ليلـدل في سبيل قضيتها الكبرى .

ولكن البسمة ما لبثت أن عادت الى الوجوه ، كما عاد الاطمئنان الى القلوب ، والهدوء الى النفوس ، ساعة توالى الانباء عن رفض الشعب السوداني العريق لما حدث وتصميمه على إعادة الأمور الى نصابها ..

لقد خرجت جماهير الشعب السوداني الواعي تعبر عن مشاعرهما وتمسكها بقائدها ، تتحدى دبابات المتآمرين وتهدر في وجوههم « عائد يا نميري . عائد يا نميري » .

واعاد الشعب قائده الحبيب الى مكانه الطبيعي .. ليثبت للعالم أجمع

ان الشعب العريق الواعي يعرف أبطاله العاملين ، وقادته المخلصين
الحريصين على مصالحه المحترمين لحقوقه ومشاعره . كما ليثبت انه قادر
على رفض ذوي الافكار والمبادئ المستوردة وتحديهم ايا كانت القوى التي
تؤيدهم ..

وهكذا ، انتهت قصة اقصر انقلاب في تاريخ الشرق العربي .. ولقد
نشر عنها وعن تطوراتها ومفاجأتها الكثير ، ولكن بقيت الدراسة الدقيقة
الشاملة عن تلك المؤامرة وأهدافها وأبعادها، وعن ماضي المتآمرين وأفكارهم
ونواياهم وعلاقاتهم بقوى الهدم .. كما بقيت الدراسة الوافية عن اسباب
تعلق جماهير الشعب بقائدها النميري ورفاقه المخلصين .. بقي كل ذلك
في انتظار من يتولى تقديمه الى القارئ العربي حتى كان هذا الكتاب ،
للمؤلف المشابر المنصف الاستاذ عامر العقاد .

وإن «دار الجيل» لتعتز بتقديم هذه الدراسة الكاملة الوافية عن ثورة
مايو المباركة ، وأهدافها والجهود العظيمة التي يبذلها قادتها المخلصون من
اجل استقرار وتقدم وازدهار البلاد ، وكذلك عن الانقلاب الفاشل
والمتآمرين ومصيرهم ، وعن وقفة الشعب الابي مع قائده البطل المناضل
«جعفر نميري» .

دار الجيل

الدهشة

إلى الدين يقدسون حرية الفرد وكرامته .
إلى الدين يقدسون القيم الروحية ، ويربأون بعقولهم أن تلقى في
سبيل الإلحاد .

إلى الدين لا يفسرون كل شيء تفسيراً مادياً
وإلى الرئيس البطل «جعفر نميري» وإلى شعبه السوداني البطل
الذي أسقط من حسابه اليسار السوداني الذي حاول أن يحطم المكاسب
الثورية الخالدة .

وإلى كل نصير للمبادئ الاشتراكية النقية في السودان ، تلك
المبادئ التي تكسرت على شواطئها تلك الأمواج النزقة التي حاولت أن
تطفو على السطح ، نهدي هذه الدراسة .

عامر العقاد

مصر الجديدة

في ١٢ - ٩ - ١٩٧١

« إن المسؤولية التاريخية التي تصدينا لها في الخامس والعشرين من مايو تحتم علينا أن نواصل القيام بواجباتنا ومسئولياتنا كاملة ، وصولاً إلى الأهداف أو الاستشهاد دونها » .

من خطاب الرئيس القائد
اللواء أ.ح. جعفر محمد نميري
١٠ - ٤ - ١٩٧١

مقدمة المؤلف

بسم الله ، وعلى هدى من الايمان بالله .
وبعد . فهذا كتاب تدور صفحاته عن السودان الحبيب وعن الحزب
الشيوعي الذي حاول تحطيم مكاسب الامة السودانية بعد أن قدر له
أن يغمر بالكثير من الشباب السوداني المثقف في فترة ما قبل ثورة مايو
المباركة .

وتدور صفحاته - أيضا - حول تلك الحوادث الدامية التي ارتكبتها
دعاة الماركسية عند محاولتهم ذلك الانقلاب الفاشل الذي كاد أن يجر
السودان الشقيق الى خراب محقق ، ودمار لا شك فيه لولا ارادة الله
وأصالة الشعب السوداني في المحافظة على مكاسب ثورة الخامس
والعشرين من مايو .

وانه لمن أهم المسؤوليات التي يضطلع بها الشرفاء من حملة الاقلام
في الوطن العربي لاسيما في الآونة الأخيرة هي أن يسيطروا اللثام عن
ذلك الاستعمار الفكري البغيض المتمثل في الشيوعية وغيرها من
مبادئ الهدم والتخريب ، تلك المبادئ التي تهدد الاوطان ومكاسب
الانسان المعاصر .

والذي لا شك فيه أن مخططات الاستعمار المعادية للعروبة والاسلام
في هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية لا تجد لها طريقا الى شعوب تلك

المنطقة الا عن طريق الغزو الفكري الهادف الى تدمير القيم وتفتيت الروح العربية لاسيما بعد انتهاء مرحلة الاستعمار القديم واتهاء أماليه .

ومما يؤسف له أن هذا النوع الجديد من الاستعمار استطاع أن يغرر ببعض العقول فأخذ صرعاه يتشدقون بأنهم تقدميون ثوريون تارة ويساريون وعلمانيون تارة أخرى ، وكل من عداهم أو لم يساير مسلكهم المشين فهو رجعي ومتخلف وما شابه ذلك من تلك الصيحات التي ملأت

الآذان في بعض مناطق الوطن العربي . المبادئ الماركسية كما قدر ولقد قدر للسودان الشقيق أن تغزوه الفترة التي أعقبت الحرب ذلك لغيره من البلاد العربية الاخرى في العالمية الثانية . ساعدت عليه بعض عوامل خاصة منها انه قطر مترامي الاطراف مختلف المناطق . ولقد كان لتلك الطبيعة الخاصة بالسودان وبعد مناطقه بعضها عن بعض أثرها في اعتباره آنذاك تربة خصبة للاستعمار ودعاة التبشير الذين بذروا بذور البغضاء والعداء في نفوس أبناء الجنوب تجاه اخوانهم أبناء الشمال .

وحسب المتتبع لتلك العداوات ما قامت به «أورطة» خط الاستواء وما لحقه من تمرد رجال البوليس عقب خروج الاستعمار الانجليزي عام ١٩٥٥ . هذا الى جانب ضعف التعليم لاسيما في المناطق الجنوبية منه وقيام الدعوات الدينية السرية في بادىء الامر مما ساعد الماركسية على الانتشار . وفي ذلك يقول أحد كتاب الصحافة اللبنانية خلال تعقيبه على الاحداث الاخيرة بالسودان : « ... استطاع الشيوعيون السودانيون أن يخلقوا ماركسيين بالموهبة . لذلك أصبح هنالك الوف السودانيين يتحدثون في مبادئ الماركسية دون ان يقرأوا كتابا لماركس ، ويجرون حوارات لا تعتمد على القراءة والكتابة . واذا جاز التشبيه أصبح خلال خمس سنوات في السودان عدد كبير من الشيوعيين « السماعي » مثلهم

في ذلك مثل الذي يتقن العزف على البيانو بشكل « سماعي » أي دون استعمال السلم الموسيقي ... وهذه الطبقة من الماركسيين بالموهبة أصبحوا يقومون بمهمة تبشيرية في حقول القطن ووسط مزارع الابقار وبين القبائل » .

فهذه الاسباب وغيرها مما سنفرد القول فيه بين صفحات هذا الكتاب وجدت الماركسية مكانا لها ووجدت أنصارا أخذوا يطفون على مسرح الاحداث التي مرت بالسودان متخذين من المناداة بمحاربة الاستعمار والامبرياليات - شأنهم شأن كل ماركسي في الوطن العربي - ستارا خادعا يخفون وراءه نواياهم الحقيقية، وزين لبعضهم القيام بذلك الانقلاب الفاشل الذي قاده هاشم العطا وأصحابه لولا ارادة الله التي تعلو ارادة البشر . وقدر للرئيس « جعفر نميري » ومن ورائه الشعب السوداني البطل أن ينتصر عليهم ويطيح بهم .

ان محاولة الشيوعيين الاخيرة في السودان لهي خارقة من خوارق الاثم شدت العقل وثلت الخيال فكانت الآذان لا تدري كيف تسمعها ، والحس لا يدري كيف يحملها الى الرؤوس والضمائر .

وان مناظر تلك المذابح الوحشية التي ارتكبتها الحزب الشيوعي السوداني غداة الانقلاب الفاشل ، وصور الدماء التي لطخت الجدران والاسلحة تشهد على اجرامهم في حق الوطن السوداني الآمن . وصحيح أن زعماءهم قد نفذ الشعب السوداني فيهم أحكام الاعدام . ولكن ما الاعدام الى جانب تلك الوصمة الابدية التي حملوها وحدهم في تاريخ السودان منذ ثورة الخامس والعشرين من مايو . وان التاريخ حتما سيذكر لهم هذا الخزي الذي لا خزي مثله في طوايا التاريخ ...

هذا هو الانسان في بؤرته السفلى .

وذاك هو الانسان في ذروته العليا .

وفي خشوع لا ينتهي نحني في هذه المقدمة شهداء السودان الذين

أريقتم دماءهم الطاهرة وأزهقت أرواحهم الطيبة نتيجة لتلك الحركة
الرغناء بينما هم في ميادينهم يحرسون مكاسب ثورتهم ومكاسب
شعبهم العريق .

وفي حياء لا ينتهي تزوي الانسانية يبصرها عن خزي أولئك المجرمين
في جميع تواريسها . أعانها الله على كفارة تمهد بها العذر لنفسها بين
يدي ضميرها ، وبين كل حي من خلائق الحياة تحمله هذه الغبراء .

عاصر العقاد

لمحات تاريخية من النضال

تعتبر الفترة الواقعة ما بين سنة ١٨٦٩ وسنة ١٨٨٥ فترة يقظة للوعي القومي في مصر وفي السودان . وهي الفترة التي قال فيها شريف باشا يوم استقالته في ٧ يناير سنة ١٨٨٤ قولته المشهورة « اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » . وأعقبته وزارة نوبار باشا التي عرفت بخضوعها للاحتلال البريطاني فأصدرت أوامرها باخلاء السودان وترحيل الموظفين وسحب الحاميات المصرية التي بلغت ٢٥,٠٠٠ جندي ، وفي ١٥ يناير من السنة نفسها وبعد تولي وزارة نوبار الحكم بخمسة أيام فقط صدر المرسوم الخاص بالحاق ادارة السودان بوزارة الحرية بدلا من رئاسة الوزراء .

وعين غوردون حكامدارا عاما للسودان لارجاع الجنود والموظفين المدنيين والتجار الى مصر . ورغم وقفة الشعب السوداني ومحاصرته لغردون في الخرطوم يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ الا ان بريطانيا أعطت لنفسها حق توزيع أراضي السودان . وأبرمت اتفاقيات ومعاهدات تنازلت مصر بموجبها عن مساحات كبيرة من اراضي القطر الشقيق الذي كانت تمتد حدوده الى خط الاستواء في عهد الخديوي اسماعيل وتوفيق .

وبذلك استطاع الاستعمار البريطاني أن يحقق رغباته في قطع

الصلات التاريخية بين مصر والسودان حتى يعود ويضع السودان من جديد تحت نفوذه بجنود مصرية يقودها بريطانيون *** سردار الجيش وخلال تلك الفترة التاريخية عين اللورد كيتشنر ٢ سبتمبر المصري قائدا للحملة التي استطاعت دخول أم درمان يوم ٢٠ وعقب ذلك يومين سنة ١٨٩٨ واتصرت على قوات خليفة المهدي .

تقريبا صدر البيان التالي :
« نظرا للمساعدات المادية يرفع العلم البريطاني بجانب العلم المصري في البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يرفع الا العلم المصري فقط لان القوات المصرية كانت تعسكر هناك * وتعتبر حكومة جلالة الملكة لصوتها الغلبة في جميع المسائل المتعلقة بالسودان * وكانت اتفاقية السودان التي كان يحلو لبعض المؤرخين أن يسموها الاتفاقية المشؤومة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وهي التي وقعها اللورد كرومر عن الجانب البريطاني وبطرس غالي باشا عن الجانب المصري (١) *
ولكني نصل الى حقيقة الامور في هذه المسائل نراننا مضطرين الى طرح سؤال لا محيد عنه ألا وهو : ما الحكمة في اصرار الاستعمار البريطاني على اخلاء السودان من المصريين ثم العودة لاحتلاله بجنود مصريين وقادة انجليز ؟ !

١ - لم يقبل الشعب المصري هذه الاتفاقية التي املاها البريطانيون املاء تحت ضغط جيوش الاحتلال واستغلال وزارة بطرس غالي التي جاءت من صنع ايديهم . وقد عبر المصريون عن رأيهم مع نداء زعيم الحركة الوطنية مصطفى كامل حينما ندد بهذه الاتفاقية قائلا : « ان اكبر ايام الشقاء في تاريخ مصر ، واسوا تذكاري يهيج في نفوس المصريين الاحرار الام والاشجان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكاري اتفاقية السودان » (يراجع كتاب يقظة السودان للدكتور ابراهيم العدوي منشورات الانجلو المصرية صفحة ٦٠) .

كانت خطة الاستعمار البريطاني تقضي بقطع كل صلة بين مصر والسودان نهائيا، ثم تحويله الى مستعمرة بريطانية تعطي عمقا لمستعمراته في شرق ووسط أفريقيا •

والعلاقة التي كانت قائمة لم تكن تسمح مطلقا بتنفيذ هذه الخطة لان وجود الجنود والاداريين المصريين - رغم شبهته الاستعمارية وكرهية الاحرار له - كان يمثل ارتباطا تاريخيا قائما بين الشعبين ، ولم يكن يسمح للمستعمرين بأن يقيموا سياجا حديديا يعزل السودان عن مصر عزلا نهائيا •

ويبدأ الاستعمار البريطاني في تنفيذ خطته ، ولا نريد أن نؤكد أو ننفي الواقعة التي يقول بها بعضهم وهي أنه كان يمكن للاستعمار البريطاني أن يدخل الخرطوم بقوات جديدة من مصر يحرق بها غردون ... ولكننا نقول فقط انه لم يكن عاجزا عن ذلك ، وهذا ما تفرضه طبيعة الامور والاحوال ولو بالنسبة للمتبع للحركة الاستعمارية لمصر والسودان •

ولكن الاستعمار البريطاني أراد أن يكسب السودان صفة الدولة التي لا يستعمرها أحد في افريقيا لمدة سنوات تبعد به صلتها عن مصر وتتناشى العلاقات الشعبية الوثيقة بينهما بالتدريج ثم يكون هجومه عليه من الجنوب •• من كينيا وأوغندا فيحتله بقواته ويصبح والحال كذلك مستعمرة بريطانية كاملة لا صلة لها بمصر •

كان الاستعمار البريطاني وهو يخطط لنفسه هذا المخطط من أساليبه في مسألة السودان يريد أن يقيم « عازلا زمنيا » بين مصر والسودان • ولكن هناك عاملا هاما لم يدخله الاستعمار البريطاني في خطته فكان من نتائجه أن قوض المخطط وقلبه رأسا على عقب • وهو رغبة فرنسا في الزحف على افريقيا وطبقا لاحداث سنة ١٨٨٥ كان السودان دولة مستقلة فلذلك قررت فرنسا احتلاله وزحفت عليه بالفعل احدي

حملاتها الى حدوده سنة ١٨٩٨ • وهنا جابه الاستعمار البريطاني موقفا يضطره الى التصرف السريع لأن الوقت لم يكن كافيا للقيام بهجوم من الجنوب لصعوبات في النقل وصعوبات في جغرافية الاقليم • فلم يكن أمامه سوى استخدام الجنود المصريين • فظن الفرنسيون أن مصر هي التي عادت الى هناك • وفي مواجهة مطامع فرنسا ورغبة في تقسيم افريقيا بين الدولتين المستعمرتين الكبيرتين عقدت معاهدة الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ تلك المعاهدة التي خولت لبريطانيا حق التصرف في مصر والسودان وخولت لفرنسا حق استعمار المغرب العربي (تونس والجزائر ومراكش) • لقد كان هدف الاستعمار من وراء ذلك واضحا وهو القضاء على العمق العربي الكبير المستند الى قلب افريقيا حتى لا تعود من جديد مظاهر القوة التي أخذت تلوح بشائرها في عهد محمد علي ثم سرعان ما اطفأتها ضغوط الدول الكبرى وخطأ سياسة محمد علي التوسعية • وفي تيار النضال المشترك ضد الاستعمار البريطاني التقت الارادة المصرية والارادة السودانية وامتزجت الدماء والتضحيات • ورغم كل التحولات التي أحدثها الاستعمار في افريقيا ودخوله السودان فإن النظام القبلي في شكله التقليدي المعروف كان سائدا فلم يكن أمام الاستعمار إلا سياسة « فرق تسد » التي كان يستخدمها دائما كلما واجهته مثل هذه الظروف •

خلال تلك الانتفاضات في السودان كان مصطفى كامل والحزب الوطني يوسعان نضالهما لاسيما عندما أخذ محمد فريد يعلن في المحافل الدولية وأمام الشعب المصري ضرورة اقامة علاقة أخوية وثيقة بين السودان ومصر •

وخلال تلك الاحداث - أيضا - بدأت تظهر في السودان طبقات وفئات جديدة عندما أصبحت التجارة مهنة رائجة بعد دخول الاستعمار

ولفراقه للأسواق يستجابه وعرف السودان فئة من التجار ، وصاحب ذلك - أيضا - أن تحولت عائلته المهدي إلى دائرة اقتصادية كبرى متعاونة مع الاستعمار جعلت الناس الذين تطلعت آمالهم بهم واضبروا من انصارها ينظرون إلى تلك القصور والحدائق ويظنون « لو كان المهدي حيا لثار ضد العائلة ودانها » .

يقول الدكتور يوسف محمد بشاره في كتابه « حول قيام التنظيم الشعبي لتورة مايو » : « لم يترك المهدي لعائلته قصرا ولا بالحيرة ولا حائرة بل سيفا ودرعا وراثيا كانت كل ما يملك » .

بمادة القومي القومي في السودان :

في عام ١٩١٩ تارت الطبقة المتوسطة في مصر بعامة سعد زغلول ضد الاحتلال البريطاني فأدى هذا إلى تشجيع الإدارة المصرية في السودان لكل الحركات المضادة لبريطانيا ولعب الموظفون المصريون في مدن السودان المختلفة دورا ملحوظا في التعاون مع المواطنين السودانيين من أجل انقاذهم من الاستعمار .

ويقول الاستاذ علي عبد الرحمن في كتابه الديمقراطية والاشتراكية في السودان : « لقد كان للتورة التي قامت بها العناصر الوطنية بمصر سنة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطاني رد فعل قوي في السودان تسرعه صده في مناطق القومي كالعاصمة الثلاثة ومدني وعطير ، وبسور سودان وغيرها فبدأ الشبان الوطنيون يتجمعون ويصلون سرا يستعدوا للتورة لرفع يبر الاستعمار البريطاني عن كاهل الشعب » . (١)

١ - الديمقراطية والاشتراكية في السودان تأليف علي عبد الرحمن منشورات المكتبة المصرية بيروت ، صفحة ٦٢ الطبعة الاولى ، سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

ومن هذا المنطلق بدأت الطبقة الوسطى في السودان بالقيام بتشكيل
تنظيمات سرية بحجة مناوأة الاستعمار ومقاومته والمناداة بوحدة وادي
النيل .. وخرجت مظاهرات في الخرطوم بعد صدور تصريح ٢٨
فبراير سنة ١٩٢٢ الذي قرر انهاء الحماية على مصر مع الاحتفاظ بحق
تولي البريطانيين لامور أربعة كان السودان واحدا منها .
وكان من أولئك الذين حصلوا لواء تكوين التنظيمات السرية
بالسودان الملازم أول علي عبداللطيف الذي كان ضابطا في الوحدات
السودانية التابعة للجيش المصري العسكرية بالسودان (٢) واكتشف
أمره فأبعد من الجيش وزج به في السجن عدة أشهر خرج بعدها يواصل
كفاحه مع زملائه الأحرار من أبناء السودان . ومع الايام ازداد عدد
أعضاء هذه المنظمة السرية من المناضلين السودانيين فألفوا « جمعية
اللواء الأبيض » برئاسة علي عبد اللطيف (١) وكان ذلك في مارس سنة
١٩٢٤ وكان أهم أهدافها هو : تحرير السودان من الاستعمار وتحقيق

٢ - يقول الدكتور العدوي في كتابه « يقظة السودان » ان علي عبد اللطيف
قد اتخذ في بداية حركته منزله بالخرطوم ليجمع فيه الشباب المثقف
لتبادل الآراء ودراسة الوسائل التي تؤدي الى حل مشاكل البلاد وإزالة
مساوئها . وان الآراء التي دارت في تلك المجالس اجمعت على ان السياسة
الانجليزية هي وحدها ام المصائب والمتاعب (يراجع الكتاب المذكور صفحة
٦٧ وما بعدها) .

١ - كان الملازم علي عبد اللطيف من الكتيبة التاسعة السودانية قبل
فصله من الجيش وسجنه ويقال انه في ١١ مايو سنة ١٩٢٢ اذاع منشورا
بعنوان « مطالب الأمة السودانية » نشرته جريدة الاخبار في القاهرة طالب
فيه « باستقلال السودان وضمه الى مصر » وكان هذا المنشور سببا في
اتهامه بإثارة الشغب والاضطراب . وقد ولد علي عبد اللطيف سنة ١٨٩٢
بوادي حلفا ونال تعليمه الابتدائي في الخرطوم ثم التحق بالمدرسة الحربية
في عام ١٩٠١ وتخرج منها سنة ١٩١٤ .

وحدة وادي النيل ، واتخذت الجمعية شعارا لها علما أبيض رسمت عليه خريطة النيل وفي ركن منها العلم المصري الأخضر وقد كتب على أرضيته البيضاء « الى الامام » وبدأت المظاهرات في مصر تنادي « النيل لا يتجزأ » ويومها قال علي عبداللطيف لبعض صحبه : « لهذا الشرف عملت ، وفداء للوطن ولدت ، وللوحدة المصرية السودانية جاهدت » .
يقول أحد التقارير الاستعمارية السرية أن تنظيما عماليا سودانيا قد كون سريرا في عام ١٩١٨ كان على اتصال فيما بعد بالتنظيم العمالي الذي كان يقوده عبد الرحمن فهمي في مصر .

ويقول الاستاذ محمد سليمان سفير السودان في مصر انه قد قدر له أن يلتقي برئيس ذلك التنظيم وكان فيما بعد عضوا بارزا في جمعية اللواء الأبيض وأكد له ذلك الرئيس أن عبد الرحمن فهمي زار السودان متخفيا والتقى به في منزل خاص بعيد عن أعين الحكومة ووضع معه فكرة تنظيم العمال (١) .

كذلك تذكر التقارير السرية أن عبد الرحمن فهمي كان على اتصال بالملازم زين العابدين عبد التام وكان من الاعضاء العاملين في جمعية اللواء الأبيض وكانت الجمعية قد اتدبته ومعه محمد المهدي التعايشي للسفر إلى مصر في يوليو سنة ١٩٢٤ يحملان العرائض الموقعة من أبناء السودان التي تنادي بالوحدة مع مصر وتدحض مزاعم أوكار الاستعمار التي جندت بعض العملاء من الزعماء الدينيين ورؤساء العشائر واستكبتهم عرائض تؤكد الولاء لبريطانيا ومطالبين بانفرادها في حكم السودان على أساس انها من أرقى الأمم وأرسخها قدما في اسعاد بني الإنسان .
الامر الذي دفع بالسير مكدونالد رئيس الوزارة البريطانية الى الاعلان بأن ٩٢٪ من السودانيين مع الانجليز . ولكن الوفد السوداني انكشف

أمره وهو في الطريق الى مصر بمدينة حلغا والتي القبض على زين
العابدين عبد التام ومحمد مهدي التعايشي . وعادا تحت حراسة مشددة
الى الخرطوم حيث كان في استقبالهما حشد كبير من المواطنين وعلى
رأسهم علي عبد اللطيف .

وكان نتيجة لذلك أن ناقش البرلمان المصري قضية إحتجاز الوفد
السوداني في جلسة من جلساته العاصفة وانتقلت المناقشة أيضا الى
مجلس اللوردات البريطاني في جلسته التي انعقدت ٢٥ يوليو سنة

١٩٢٤ فوضعت القضية أمام الرأي العام العالمي .
صاحبت كل تلك الارهاصات الثورية بالسودان مظاهرات عديدة
في مدنه المختلفة ففي أم درمان حدث أن شيعت جنازة مأمورها المرحوم
عبد الخالق حسن يوم ١٩ يونيه سنة ١٩٢٤ وكان من المصريين الاداريين
الذين تميزوا بالوطنية ومساندة النضال السوداني أعقبتها مظاهرة وطنية
كبرى وقف خلالها الشيخ عمر دفع الله يهتف بحياة الامة المصرية
والسودانية ووحدة وادي النيل وحياة سعد زغلول فقبض عليه وحكم
عليه بالسجن ستة شهور .

وفي مدينة الخرطوم هبت مظاهرة أخرى تهتف مطالبة بخروج
الانجليز فاصطدم بها رجال الأمن وحدثت عدة اصابات في المواطنين .
واشتعلت المناطق السودانية كلها بدفعات الحماس والثورة بشكل لم
تعهد تلك المناطق من قبل . في بور سودان وعطبرة وشندي ومدني
والايض .

وفي الثامن من أغسطس سنة ١٩٢٤ تظاهر طلبة الكلية الحربية
فخرجوا في زيهم العسكري يجوبون شوارع الخرطوم تحت قيادة
ضابطهم اليوزباشي احمد رفعت فعبرت المظاهرة النيل الازرق واتجهت
نحو سجن كوبر لتحيي البطل علي عبداللطيف (١) وزملاءه من قادة

١ - يقول الاستاذ احمد حمروش في كتابه «مصر والسودان كفاح =

جمعية اللواء الابيض الذين اعتقلتهم السلطة الاستعمارية ثم عادت
المظاهرة راجعة الى الكلية الحربية وبعد دخول الطلبة إليها فوجئوا بأنهم
قد طوقتهم قوة من قوات الجيش البريطاني ثم جرت محاولات مأكرة
سلم بموجبها الطلبة أسلحتهم للجيش المصري ثم ألقى عليهم القبض بعد
ذلك وسجنوا على ظهر باخرة حربية ألقت مراسيها وسط نهر النيل
الأزرق واحاطتها الجنود من الشاطئ عدة أشهر ثم شكلت لهم محكمة
حكمت على كل واحد منهم بشماني سنوات سجن نقلوا على أثر ذلك
الحكم الى سجن كوبر . وكان ذلك في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .
بعد مظاهرة طلبة الكلية الحربية هبت معركة عنيفة كان طرفها الاول
الجيش البريطاني والطرف الآخر الوحدات السودانية التابعة للجيش
المصري وكان ذلك يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٤ . ويقول بعض المؤرخين
أن السبب الرئيسي لنشوب تلك المعركة هو حادث اغتيال السير لي ستاك
سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام في أحد شوارع
القاهرة (١) خلال وزارة الزعيم سعد زغلول . ووجد الاستعمار البريطاني
في هذا الحادث فرصة سانحة لاحتجاج الحكومة المصرية بتلك المطالب
التي طالب بها . فرفضت الوزارة الرضوخ لرغبة المستعمر نظرا لما في
تلك المطالب من سوء نية الانجليز تجاه وزارة سعد زغلول . ومن أمثلة
تلك المطالب التي لا صلة لها بحادث الاغتيال ضرورة سحب الجيش
المصري من السودان . ولكن سعد زغلول رفض ذلك واستقبلت

= مشترك» انه بعد مظاهرة طلبة الكلية الحربية وهتافهم امام منزل علي
عبد اللطيف بحياته وسقوط الاستعمار البريطاني قبض عليه للمرة الثانية
وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات في سجن كوبر بالخرطوم .
١ - كان الحادث يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بشارع اسماعيل اباضه
بالزمالك بالقاهرة .

وزارته (١) التي أعقبتها على حكم البلاد وزارة من صنائع الاستعمار هي
وزارة زيور باشا الذي أصدر فور توليه الوزارة أوامره بسحب الجيش
المصري بجميع وحداته المصرية والسودانية من السودان . فحاصرت
القوات البريطانية القوات المصرية في الخرطوم ورفضت الكتيبة الثالثة
السفر لمصر الا بأوامر من وزير الحربية المصري . وثارَت الكتيبة الحادية
عشر السودانية وتحولت الى كوبري الخرطوم الشمالي حيث قررت
الاتحاد مع الجيش المصري . وهنا تصدت لها قوة بريطانية محاولة منعها
من الوصول الى الوحدات المصرية . فأمر القائد السوداني عبدالفضيل
المظ قواته بضرب القوة البريطانية وفعلا استطاعت الكتيبة السودانية ان
تبيد الذين تعرضوا لها من قوات الاحتلال وظلت تقاتل حتى انتهت
الذخيرة فاحتُموا بالمستشفى العسكري البريطاني بعد أن قتلوا بعض
ضباطه من الانجليز . وعسكروا أيضا في نادي الضباط المصريين فما
كان من القوات البريطانية الا أن قامت بنسف المستشفى . ولكن ضباط
الكتيبة السودانية البواسل ظلوا يقاتلون حتى صباح اليوم التالي وسقط
قائدها عبدالفضيل المظ قتيلا في نفس الوقت الذي كانت القوات المصرية
ترحل بالقطار الى بور سودان .

استسلمت الكتيبة السودانية بعد نفاذ ذخيرتها مضطرة وقبض
البريطانيون على بعض أفرادها وحكم على أربعة منهم بالاعدام ونفذ
الحكم في الحال على ثلاثة منهم رميا بالرصاص وهم الملازم أول سليمان
محمد والملازم ثاني حسن فضل المولى والملازم ثاني ثابت عبد الرحيم .
أما الرابع فقد عدل الحكم عليه في اللحظة الأخيرة الى السجن خمسة
عشر عاما .

١ - يومها قال سعد زغلول كلمته المشهورة : « ان جريمة اغتيال السردار
قد أصابت مصر وأصابتني شخصياً » .

ثم شكلت محاكمات انعقد بعضها داخل سجن كوبر وبعضها خارجه .
وقدم امامها أعضاء جمعية اللواء الابيض وتلامذة المدرسة الحريية
وصدرت الاحكام بالسجن لمدة تتراوح ما بين سنة وخمس عشرة سنة
ما عدا أربعة في مقدمتهم علي عبداللطيف وعبيد حاج الأمين فقد تقرر
سجنهم بمدينة واو ببحر الغزال وظلوا في السجن يقاسون آلام الرطوبة
وسوء التغذية والامراض حتى مات أحدهم بالحمى السوداء وأصيب
علي عبداللطيف بنوبة حادة من الامراض العصبية نقل بسببها الى
مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة حيث توفي هناك يوم ١٩ اكتوبر
سنة ١٩٢٨ . أما عبيد حاج الأمين فقد ظل يصارع الآلام والتعذيب حتى
مات في منفاه في يوليو سنة ١٩٣٢ وابتعدت السلطات البريطانية كثيرا
من الضباط بعد سجنهم الى مصر ونفي إمام مسجد الخرطوم الشيخ
الحسن الأمين الضرير بعد قضاء فترة في سجن كوبر الى
الحصاحيصا (١) .

وهكذا استطاع المستعمر الغاصب أن يقف في وجه تلك الحركة
الوطنية الاولى في تاريخ السودان .

١ - يراجع كتاب الديمقراطية والاشتراكية في السودان للاستاذ علي
عبد الرحمن منشورات المكتبة العصرية ببيروت .

بعد أحداث سنة ١٩٢٤

ظن الكثيرون من الذين تناولوا تلك الحقبة من تاريخ النضال السوداني أن تلك المؤامرات التي قام بها الاستعمار البريطاني ضد الوجود المصري في السودان كانت موجهة ضد الشعب المصري الذي أرغمت وزارته الشعبية برئاسة سعد زغلول على الاستقالة •

ولكن الشواهد تخالف ذلك الظن وتثبت أن الاستعمار البريطاني كان يهدف من وراء ذلك إلى عزل السودان عن بقية دول المنطقة العربية التي كانت في تلك الفترة أكثر صلة بالدول الأوروبية ومعظمها قد قامت به ثورات بعد الحرب العالمية الأولى •

والدليل على صحة قولنا هذا إن قرار الحكومة البريطانية بإخلاء القوات المصرية من السودان قد صاحبه فوراً قرار بزيادة المساحة المزروعة قطناً في السودان بواسطة إحدى الشركات البريطانية التي احتكرت زراعته في الجزيرة واحتكرت شراءه وحلجه وتمويله تحت اسم نقابة زراع القطن في الجزيرة وانشئت شركة للاقطان عرفت (بشركة كسلا) للاقطان كانت مهمتها تقديم المواد الخام الى مصانع لانكشير •

فهذه الترتيبات تؤكد لنا أن الانذار البريطاني كان معداً قبل مقتل سيرلي ستاك • ذلك لأنه من غير المعقول أن يدرس مشروع اقتصادي

خلال ٢٤ ساعة ووسط أحداث كتلك الاحداث التي مسرت بمصر
وبالسودان •

كان هدف بريطانيا من وراء ذلك ألا تقع مرة أخرى فيما سبق أن
وقعت فيه بين عامي ١٨٦١ - ١٨٦٥ عندما حدث ما عرف « بمجاعة
القطن » بعد الحرب الأهلية الأمريكية حينما كانت بريطانيا تعتمد على
قطن امريكا الذي منعه عنها ظروف الحرب الاهلية خلال هذه
السنوات • ولذلك كان الاستعمار البريطاني لا يكفي بقطن مصر وإنما
يطلب احتكارا جديدا لقطن السودان •

والمتتبع لأحداث التاريخ العالمي يجد انه قد حدث في أواخر
العشرينات وأوائل الثلاثينيات أزمة عرفت في المحيط العالمي بأزمة
الاقتصاد الرأسمالي شملت العالم كله • وقد عانى منها الشعب السوداني
بالذات معاناة شديدة فقد انهارت أسعار القطن والسلع الزراعية
انهيارا تاما .. وتقلص حجم تجارة السودان من ٣١ مليون جنيه
الى ٥ ونصف مليون ، وانخفضت الأيدي العاملة وعدد الموظفين بنسبة
من ٥ ٪ الى ١٠ بالمئة وانكمشت الميزانية السودانية من ١١ مليون عام
١٩٢٦ الى ٩ مليون عام ١٩٣٠ الى ٧ مليون سنة ١٩٣٢ مما أدى الى
توقف جميع الانشاءات •

ولم يكن هدف الاستعمار البريطاني من اقتصاديات السودان سوى
احتكاره للقطن كمادة من المواد الخام التي يحتاج اليها في مصانعه ،
ولذلك لم يحاول طوال سيطرته على مقدرات هذا الشعب العريق أن
يكتشف ثرواته المعدنية أو يطور وسائل الري أو يضع أساسا للتصنيع
فترك كل وسائل الانتاج الصناعي أو الزراعي في صورتها البدائية •



بدأ الاستعمار البريطاني يشدد ضغطه ويصادر الحريات في السودان

بعد أحداث سنة ١٩٢٤ ويساعد في دعم القيادات الرجعية وتنمية روح الطائفية وتركيز السلطة في أيدي المفتشين البريطانيين ...
ويكفي أن يعلم القارئ من تاريخ تلك الحقبة أن أرملة السير لي ستاك قد خصصت من الغرامة التي دفعتها الحكومة المصرية مبلغ نصف مليون جنيه لإنشاء أربعين كنيسة في جنوب السودان عجت بالمبشرين من الأجانب •

وتبعاً لذلك كان لا بد وأن تنحسر موجة النشاط الثوري للمثقفين السودانيين الذين زهد بعضهم في الكفاح وآثروا الحياة الهادئة الرتيبة، بل مما يؤسف له حقاً أن بعضهم أصبح فيما بعد رصيذاً قوياً من أرصدة التعاون مع الإدارة البريطانية •

واستطاع الاستعمار البريطاني - أيضاً - أن يخلق شخصيات سودانية كانت تفخر وتشدد بالثقافة الغربية، وتحترق الثقافة القومية والعربية •

أما في مصر فقد أعدت وزارة زيور باشا انتخابات الجديدة عام ١٩٢٥ بعد حل البرلمان وعمل اسماعيل صدقي باشا وزير الداخلية كل الأساليب للضغط وتعديل الدوائر واعادة نظام الانتخاب على درجتين • ورغم ذلك كله فقد استطاعت الأمة أن تأتي ببرلمان وفدي مكون من ١٢٣ وفدياً مقابل ٨٥ دستورياً واتحادياً •

ولم يطق الاستعمار البريطاني عودة الوفد للحكم من جديد لأسباب متعددة كان في مقدمتها كشف خطته في عزل مصر عن السودان من قبل • فما كان منه إلا أن عمل على حل البرلمان بعد تسع ساعات من إنعقاده • ورغم ذلك اجتمع البرلمان في ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ في فندق الكونتنتال الذي كان يقيم فيه أحمد زيور باشا إقامة دائمة •

وسقطت وزارة زيور بعد ذلك وتولى الوزارة محمد محمود الذي عرف حكمه باليد الحديدية فعطل بدوره الحياة النيابية وصادر الصحف

حتى قيل إنه في فترة حكمه هذه سحبت رخص ما يقرب من مائة صحيفة . وظل يواصل حكما ارهابيا ما يقرب من ثلاث سنوات .

وهنا هب الشعب يكافح من اجل الدستور ومن أجل الأهداف الوطنية . وذهبت فترة حكم محمد محمود وتولى بعدها الحكم اسماعيل صدقي فهب الشعب ضده يقاوم حكمه الارهابي ويطالب بعودة دستور ١٩٢٣ .

وخلال تلك الفترة ظهرت الطبقة العاملة لتؤدي دورها في الكفاح الوطني فشملت البلاد موجة من الاضرابات العمالية ، وخرجت مظاهرات لهم قوبلت بالرصاص وسقط منهم ما يقرب من ثلاثة عشر قتيلا وعشرين جريحا دفنوا دون تسليم جثثهم لأهاليهم محاولة في اخفاء عدد القتلى . وكذلك تظاهر الفلاحون المصريون من أجل الحياة الدستورية الصحيحة ورغبة منهم في مقاومة انتخابات صدقي المزورة وأصبحت اعادة دستور ١٩٢٣ مطلباً شعبياً .

وعرفت السجون والمعتقلات بعضاً من حملة الاقلام من الصحفيين . كان في مقدمتهم استاذنا الراحل عباس العقاد الذي هاجم الوزارة والقصر بسلسلة من المقالات نشرها في « المؤيد الجديد » (١) وقال كلمته الخالدة في البرلمان « ان الامة على استعداد لسحق أكبر رأس في البلد تحاول ان تعيث بدستور الامة أو تلغيه » . فسجن من جراء ذلك تسعة اشهر قضاها بين جدران سجن مصر العمومي .

عقب ذلك سقطت وزارة اسماعيل صدقي وتولى الحكم في البلاد عبد الفتاح يحيى ثم توفيق نسيم الذي هبت في عهده المظاهرات العديدة التي راح ضحيتها اعداد ليست قليلة من ابناء الشعب وعرف ذلك العام

١ - تراجع صحيفة المؤيد الجديد الاعداد ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٦ سبتمبر سنة ١٩٣٠ .

١٩٣٥ بعام شهداء الجامعة وهو نفس العام الذي جرح فيه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر اثناء سيره في مظاهرة من مظاهرات الطلبة في ذلك العام .

خلال تلك الفترة حاول الاستعمار البريطاني أن يخلق طبقة من أبناء السودان ترتوي من فكره ففتح «كلية غردون» عام ١٩٣٠ لتخريج موظفين سودانيين .

واتهز المثقفون السودانيون فرصة عقد معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا التي عرفت بمعاهدة ١٩٣٦ فكوّنوا مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٧ وانضم اليه الطلاب والبرجوازية الوطنية وصغار الموظفين وعقد مؤتمره الأول في فبراير سنة ١٩٣٨ وحضره ١١٨٠ خريجا .
إلا ان الاستعمار البريطاني في السودان استطاع بدهائه المعروف أن يوجه نشاط بعض الخريجين ضد مصر ، ساعده على ذلك تلك الدوائر الاقطاعية والرأسمالية التي كانت تحكم مصر آنذاك . ولاسيما حينما وضعت الرجعية المصرية الحاكمة بعض أعضاء جمعية الاتحاد السوداني من أمثال : «عرفات محمد عبد الله» في سجن أبو زعبل فرجع السي السودان ناقما ومعارضاً بعد أن كان من دعاة الاتحاد مع مصر والمؤيدين له . وكذلك عبد الله خليل أحد زعماء حزب الأمة السابق الذي بدأ حياته في هذه الجمعية ولكن الاستعمار مع تصرفات الرجعية الحاكمة استطاع أن يوقعه في شرك العداوة للكفاح المشترك .

وقامت الحرب العالمية الثانية التي فرضت على المعسكرين اعلان تصريحات الاطلنطي التي نادت بحق تقرير المصير للدول التي شاركت ايجابيا في الحرب الفاشية وأدى ذلك الى قيام مؤتمر الخريجين عام ١٩٤٢ بارسال مذكرة الى الادارة البريطانية لتأكيد هذا الحق والمطالبة بحكومة سودانية بعد انتهاء الحرب ، والغاء احتكار الحكومة للتجارة الخارجية ولكن الحاكم العام رفض المذكرة ورفض الاعتراف بالمؤتمر

كممثل للشعب السوداني •

وبدأت موجات الديمقراطية تظهر في السودان كما بدأت تصدر بعض الصحف وبها كلمات نقدية صريحة ، وتكونت جمعيات للطلبة وظهرت طبقة عمالية من الشباب السوداني عملت فسي ورش الصيانة البريطانية •

وكان نتيجة لتلك التحولات أن قام بعض جنود قوة الدفاع السوداني بحركة عصيان عندما سرحوا بلا مكافأة • • صاحبها أن شكل الاستعمار مجلسا استشاريا هزيلا من رؤساء القبائل والطوائف الدينية لتأييد سياسته الاستعمارية ، ولكن مؤتمر الخريجين قاطع ذلك المجلس وبدأت الاحداث ، مع الظروف التي صاحبها تبدو مقيدة في إعلان محاربة الاستعمار فكان نتيجة لذلك انفلاق المؤتمر الى أحزاب عام ١٩٤٥ •

ومنذ ذلك التاريخ عرف السودان النظام الحزبي فظهر على مسرح السياسة الاحزاب الاتحادية كحزب الاحرار الاتحاديين وحزب وادي النيل الا أن هذه الاحزاب قد لوحظ انها تجمعت عام ١٩٥٢ مكونة ما عرف باسم الحزب «الوطني الاتحادي» (١) •

هذا الى جانب «حزب الأمة» الذي أنشئ في يناير ١٩٤٥ وضم شبه الاقطاعيين ونظار العشائر وبعض المثقفين بالثقافة الغربية برئاسة

١ - عند الاستقلال كانت هناك ثمانية احزاب سياسية هي : الوطني الاتحادي ، الأمة ، الجبهة المعادية للاستعمار ، حزب الاحرار الجنوبي ، الحزب الجمهوري الاشتراكي ، حزب الاستقلال الجمهوري والكتلة الاتحادية وكانت هذه الاحزاب باستثناء الحزب الجمهوري ممثلة في البرلمان وقد كانت هذه الاحزاب صغيرة باستثناء الحزب الوطني الاتحادي وحزب الأمة (يراجع بحث اقتصاديات السودان للدكتور سعد ماهر حمزه ملحق الاهرام الاقتصادي سبتمبر ١٩٦٥) .

عبد الله خليل وكان وراءه مؤيده الأكبر عبد الرحمن المهدي .
أخذت الأحزاب الاتحادية في تلك الفترة تنادي بشعار ثورة ١٩٢٤
وهو وحدة وادي النيل . وان كان ذلك الشعار قد غدا غير مناسب
لهذه المرحلة ، لأن ما حدث في حياة الشعب السوداني من تحولات
حاسمة خلال نصف قرن تقريبا قد جعله يتجاوز هذا الموقف .
وباختصار فإن المشكلة لم تعد هي الاندماج مع مصر أو الانفصال
عنها . لأن القضية في تلك الايام أصبحت قضية الإيمان بقدرة الشعب
السوداني على النضال المشترك مع الشعب المصري ضد الاستعمار
البريطاني من أجل الاستقلال الوطني . . . ومن أجل خلق علاقات صحيحة،
وسليمة بين أبناء الشعبين الرابطين على مجرى النيل بغض النظر عن
لون الدوائر الحكومية التي كانت تتولى الحكم في مصر .
ومما لا شك فيه أن الحركات الوطنية في السودان كانت ترتبط دائما
بالحركات المصرية . والمتبع لحركات الكفاح الوطني للشعبين الشقيقين
يجد ان الحركة السودانية للتحرر الوطني بدأت نشأتها في مصر وهي
مرتبطة بالحركة المصرية للتحرر الوطني . . .
ولقد كان لظهور الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية كقوة
شعبية ذات قدرة في توجيه ضربات الساحقة للنازية وبداية تكوين ما
عرف بالديموقراطيات الشعبية في أوروبا مما ساعد على ظهور الافكار
اليسارية في مصر كنوع جديد من الافكار لم تعهده البلاد من قبل .
وقد ساهم في هذه الحركات بعض الطلبة السودانيين الذين كانوا
يتلقون علومهم بالقاهرة وحسبنا ظهور مجلة «أم درمان» أو الكفاح
المشترك ، في تلك الايام .
وخلال مرحلة معينة من مراحل تلك التنظيمات وبالتحديد في أوائل
عام ١٩٤٦ انفصل الجانب السوداني ليكون حركة سودانية منفصلة

للتحرر الوطني .. وتسببت تلك الحركة في قيام مظاهرات عنيفة في
السودان في ١١ مارس ١٩٤٦ . وكانت هذه المظاهرات أول مظاهرات
شهدتها السودان بعد أحداث ١٩٢٤ .

وفي نفس عام ١٩٤٦ بدأت الحركة اليسارية في السودان تأخذ
مكانها بين الاحزاب السودانية الاخرى . ورغم ان هذه الحركة في
السودان منذ تأسيسها أخذت تستتر تحت شعارات زائفة كمحاربة
الاستعمار تارة ومحاربة الحكم الثنائي تارة أخرى . فانها كانت مضرّة
بمصالح البلاد لانها كانت وراء كل اضطرابات عرفها السودان . ذلك
لأن الشيوعي لا ولاء له الا للشيوعية العالمية ناهيك عن الاوطان
والبلدان فهي في عرفه أمور لا يجب الاخلاص لها وانما الاخلاص
للشيوعية العالمية .

وهنا يحق لنا أن نستعير كلمة زعيم حزب العمال المستر أتلي التي
قالها في خطابه الذي ألقاه في جموع العمال في مايو سنة ١٩٤٨ :
« ان الشيوعيين البريطانيين اكثر اهتماما بمصالح روسيا منهم
بمصالح إنجلترا » .

وكذلك حسبنا ما وصفهم به الزعيم الهندي الراحل جواهر لال نهرو
في احدى خطبه التي ألقاها في جموع الشعب الهندي في نيو دلهي
حيث قال :

« ان الحزب الشيوعي أشد الاحزاب الهندية رجعية .. »
ويقول الاستاذ محمد سليمان : « .. فتحت الحرب العالمية آفاقا
جديدة للسودانيين وقد خرج الاستعمار ضعيفا وقوي معسكر
الاشتراكية وأصبحت الافكار الاشتراكية في متناول الكثيرين وتآلفت
أول حلقة للماركسية اللينينية في السودان تحت اسم الحركة السودانية
للتحرر الوطني في مطلع عام ١٩٤٦ من بعض المثقفين والطلبة والعمال

واتسعت تلك الحركة لتصبح حزبا شيوعيا سودانيا» (١) .
وتقتضينا دراسة اليسار في السودان أن تتبعها منذ النشأة حتى
قدر للسودان أن يتخلص منها بقيادة الرئيس جعفر نميري عقب انقلاب
هاشم العطا الفاضل في يوليو ١٩٧١ .

يرجع انتشار المبادئ الماركسية في السودان الى الاربعينيات حينما
برزت في مصر حلقات الدراسة الماركسية التي تمثلت في جماعتي
«الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح.م.)»، وكان يرأسها هنري دانيا كوريل
و«إسكرا» ISKRA «الشرارة» وكان يرأسها هليل شوارز .

وحينما بطشت حكومة صدقي بالشيوعية المصرية في يوليو ١٩٤٦
لم يتأثر بحركة الاعتقالات إلا المنظمات الشيوعية الصغيرة ، بينما لم
تضر «الحركة المصرية» و«إسكرا» من هذه الحركة كثيرا . واذا كانت
ثمة نتائج لهذه الحركة فإنها أدت الى تقارب الحركة المصرية وإسكرا .
فجرت المفاوضات بينهما في شتاء ١٩٤٦ - ١٩٤٧ وأدت هذه المفاوضات
الى اندماج المنظمين في منظمة واحدة (مايو ١٩٤٧) تسمت باسم
«الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (حديثو) وانضمت غالبية
(الطلبة) (٢) الى التنظيم الجديد . وقد استطاع زعماء الحركة ان
يستميلوا العديد من الشباب المصري والسوداني وخصوصا من الطلبة
الذين كانوا يدرسون بالجامعات والمعاهد المصرية . . ويقول الاستاذ
رؤوف عباس في كتابه «الحركة العمالية في مصر» انه عندما ألغيت

١ - اليسار السوداني في عشرة أعوام للاستاذ محمد سليمان منشورات
مكتبة الفجر وادي مدني .

٢ - احدى المنظمات اليسارية بمصر وكانت تضم جماعة من شباب
الوفد من الطلبة والمثقفين الذين تمرکزوا في الاسكندرية واخذوا يميلون
الى السوفييت .

الاحكام العرفية في فبراير عام ١٩٥٠ كان عدد اعضاء جمعية حديثو ما بين ألفين وثلاثة آلاف عضو في نهاية عام ١٩٥٢ وبلغ عدد خلاياها التي انشأتها بمصر ثلاثين خلية بالقرى في عام ١٩٥١ ، ١٠٠ في عام ١٩٥٢ ، كما كونت لها خلايا بالجيش المصري والطيران وقوت قبضتها على منظمات الطلبة (١) .

فالذي لا شك فيه أن بعض أبناء السودان الذين كانوا يتلقسون دراساتهم الجامعية بالقاهرة قد انخرطوا في سلك تلك المنظمات ثم انتقلوا بعد ذلك الى السودان فحملوا معهم المبادئ الماركسية وبدأوا يمارسون نشاطهم في البداية في محيط ضيق وفي الخفاء نظرا للعوامل الدينية التي تسود معظم البلدان في السودان الشقيق . ولكنهم سرعان ما بدأوا يسعون لتوسيع قاعدتهم فأنشأوا بطرق غير مباشرة ما سموه المنظمات المعادية للاستعمار كواجهة لممارسة نشاطهم الظاهري ولتكون في الوقت نفسه أرضا خصبة يستطيعون ان يلقوا فيها البذور الماركسية وهذا الاسلوب قد سلكه اليساريون بعد ذلك في مراحل متعددة فأخذوا ينشئون منظمات بعيدة عن دائرة حزبهم واختاروا لها اسماء بعيدة في مدلولاتها عما هو شيوعي وصالح في الوقت نفسه لأن ينضم اليه من لا صلة لهم بالشيوعية مكتفين بالسيطرة على تلك المنظمات ، وذلك بوضعهم شخصيات شيوعية كبيرة في اللجان القيادية وظلوا منذ انشاء هذه المنظمات محافظين على نفوذ تلك الشخصيات كضمان يمكنهم من السيطرة عليها، ولم تسلم منهم منظمات اتحاد الشباب ونقابات العمال والاتحاد النسائي وغيرها .

١ - الحركة العمالية بمصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢ ، للاستاذ رؤوف عباس منشورات دار الكاتب العربي للطباعة القاهرة ١٩٦٨ صفحة ٢٧٣ وما بعدها .

والمدقق في أمثال هذه المنظمات يجد ان قواعدها الشعبية تتكون أغلبيتها من غير الشيوعيين بل وتضم كثيرا من العناصر التي لا تقبل أن تنسب للحزب الشيوعي ، لكن لجان تلك المنظمات المركزية تسيطر عليها الشيوعية •

وقد عانى السودان في فترات سابقة من منشوراتهم التي كانوا اذا ضيق عليهم الخناق ملأوا بها الشوارع في غفلة من الحاكمين ، بل والحوائط والجدران • واستطاعوا أن يجندوا عددا من الشبان المثقفين المنتمين لليسار ليتفرغوا لنشر المبادئ ورعاية المنظمات التابعة لهم ومدوهم بمرتبات سخية وركزوا اهتماماتهم بمناطق العمال كالعاصمة المثلثة والخرطوم بحري وعطبرة وبورسودان وكوستي وغيرها من مناطق تجمع العمال • ولم تسلم منهم حتى منطقة الجزيرة الزراعية فقد استطاعوا أيضا أن ينفذوا الى مزارعي الجزيرة وأقاموا لهم لجانا بينهم وتسلقوا خلال فترات بسيطة لجان القيادات بها متخذين من مطالب العمال والمزارعين وسيلة للسيطرة عليهم • وكان لهم بذلك أثر واضح في تحريك هؤلاء العمال والمزارعين للقيام بالاضرابات التي شملت في فترة من التاريخ النقابات السودانية جميعها على التقريب • ورغم أن الشيوعية بدأت تتغلغل في نفوس الشباب السوداني الا أن واقع السودان التقليدي والديني كان يتجافى مع الماركسية ، فالمعروف ان السودان مجتمع ديني وأن أبناءه متدينون •

وقد تكشف لكل ذي عينين في السودان أن الحزب الشيوعي بعد إعلان استقلال السودان كان يرتكب اخطاء جسيمة كإشاعة الفوضى والعمل على عدم وصول السودان الى إستقرار حتى منظمات التضامن الآسيوي الافريقي والدفاع عن الحريات والتجمعات الاشتراكية الديمقراطية ومؤتمر السلام الذي انعقد بالخرطوم قبل ثورة مايو ببضعة شهور لمساندة ثوار انجولا وموزنبيق وغينا وزامبيا حينما لم يستطع

الشيوعيون السودانيون أن يسيطروا عليها لمصلحتهم شنوا عليها حربهم ودعاياتهم الرخيصة • ورغم ذلك كله فقد قدر لذلك المؤتمر أن يحالفه النجاح الباهر وكان من أوائل المؤتمرات التي شهدتها السودان وحققته النجاح في عصر ما قبل الثورة •

وما لنا نذهب بعيداً لنقدم الأدلة على تلك الانانية العمياء التي ملكت تلك النفوس من دعاة الشيوعية بالسودان فقد حاولوا القيام بحركة مناهضة للثورة الأخيرة حينما أبعدت سكرتير الحزب للقاهرة • اذن فالمصلحة بالنسبة لهم شخصية وليست وطنية •

يقول الاستاذ علي عبد الرحمن : «تقوم تصرفات الحزب الشيوعي السوداني دائماً على أساس أن الولاء للحزب الشيوعي يجيء في الدرجة الأولى والولاء للسودان يجيء في المرتبة الثانية وأن الكسب الحزبي يقوم على المكاسب الوطنية بل عند تعارض المصالح الحزبية مع المصالح الوطنية لا يتردد الحزب الشيوعي السوداني في التمسك بالمصلحة الحزبية والتضحية بالمصلحة الوطنية» (١) •

ويؤكد مؤلف كتاب «أنا والشيوعية» تلك الروح التي تملأ أصحاب تلك النفوس حينما يقول : «..... ومن هنا تظهر العقلية الشيوعية ، التي تستغل المتناقضات متى كان في ذلك مصلحة للحركة الشيوعية ... وهذه طبيعة أي شيوعي مهما تستر وراء مظاهر مختلفة .. فالغاية تبرر الوسيلة ... هذه قاعدة تطبع في دماغ كل شيوعي ولا يتخلى عنها أبداً» (٢) •

- ١ - الديمقراطية والاشتراكية في السودان للاستاذ علي عبد الرحمن المكتبة العصرية بيروت صفحة ١٢٨ •
- ٢ - أنا والشيوعية لفتحي سالم شراب توزيع شركة فرج الله للمطبوعات بيروت ص ٢٧ •

ويقول المؤلف نفسه أيضاً - في موضع آخر من كتابه ما يلي :
«إن الشيوعي يضمّر شبيهاً ، بينما يظهر شبيهاً آخر ، بهوء نفسي
كامل ، إذ أنه لا يجد أية غضاضة في هذا العمل .. ما دام يعتقد بأنه
يخدم الشعب والانسانية .. ولذا فكل وسيلة مباحة .. إذ بذلك تقضي
الماركسية .. هذا الدين الجديد بالنسبة لمعتنقيها ..» (١)

ومالنا نذهب وراء أقوال الناس سواء كان أصحاب تلك الأقوال من
الشيوعيين المنشقين عن المذهب أو من الذين يقفون منها موقف العداء ..
وأمامنا حياة صاحب الدعوة الأصلي كارل ماركس . ففيها من المتناقضات
ما يشين أمة بأسرها ناهيك عن فرد يجد له أتباعاً ودعاة . وممن هذه
النقطة يجب علينا أن نناقش المذهب ونبحثه على أنه مذهب علمي لصاحبه
نظرية في فهم التاريخ كما يحلو لبعض الشيوعيين أن يتشددوا به كلما
سنت الفرصة لهم . وإنما يجب أن نبحثه على أنه ظاهرة نفسية لأن أي
إنسان لو أراد أن يقدم على هدم قرية واحدة فوق أصحابها لكان لزاماً
عليه أن يلتمس لذلك الهدم أسباباً أقوى من جميع الأسباب التي سولت
«لكارل ماركس» هدم المجتمعات الانسانية بكل ما فيها على كل من
فيها من معارضيهِ ومخالفيه . وسولت له أن يستبيح من أجل هذه
الدعوة سفك الدماء ومتابعة القتل والتخريب في قطر بعد قطر الى جميع
الاقطار .

يعقب استاذنا العقاد على تلك النبوءة الماركسية فيقول :
«ماذا لو كان في النبوءة خطأ يسير ، وقد ظهر فيها الخطأ الكبير بل
ظهرت فيها الاخطاء الكبار ؟ ألا يدعو ذلك الى قليل من التردد الكثير
والى التحرج الكبير من عواقب ذلك التهجم على المجهول ، لو لم تكن
شهوة الهدم والعدوان هي مصدر الوحي الأثيم وعلة العلل في ذلك

التفكير العقيم ! » (١) •

وحسبنا ما قاله عنه «أوتوروهل» في كتابه «كارل ماركس حياته وأعماله» وهو من الكتاب الذين يؤمنون بالماركسية وتفسيرها الاقتصادي للتاريخ •

يقول أوتوروهل عن استاذة : «انه كان نموذجاً فيما كان يعانيه من اعتلال نشاطه الروحي ، وكان على الدوام متقلباً مبتئساً حقوداً لا يزال في تصرفاته عرضة لتأثير سوء الهضم والانتفاخ وهياج الصفراء» • ثم استمر «أوتوروهل» في وصف حياة استاذة الى أن قال : «إنه قد استمد من الضعف قوة واستخرج من النقص تعويضاً يغطي عليه» • والسؤال المهم الذي لا يطالب بالاجابة عليه الا الشيوعيون أنفسهم هو : هل يمكن أن يعتبر امامهم «ماركس» بهذه الاخلاق - التي وصفه بها أحد عارفيه وأحد المؤمنين بدعوته - فرداً صالحاً في مجتمع من المجتمعات الانسانية كائناً ما كان ؟ وهل يكون فرداً غير صالح ويجوز الله الارض ومن عليها ؟ وأيا كان الجواب على هذا السؤال ، فلا شك أن هوان الاخلاق عليهم هو مرجع الفضل في تهوين الاعتراف بتلك العيوب على نبهم وإمامهم ، وان يكن فضلاً غير مشكور •

وكذلك حسبنا ما قاله عنه «باكونين» زعيم الفوضوية الذي تلقى عنه ماركس أوائل دروسه في المذاهب الاجتماعية • ورغم ان الاستاذ معروف بعيوبه ولكنه من طراز في الاخلاق غير طراز التلميذ • فلم يكن من صفاته المشهورة خلة الحق وافتراء الاكاذيب عن عمد لخدمة الدعاية

١ - الشيوعية والانسانية للعقاد منشورات دار الكتاب العربي بيروت
صفحة ٢٤ •

او شفاء الضغينة ، بل كان على نقيض ذلك سريعا الى الاعتراف بصواب غيره اذا تبين له صوابه .

يقول الاستاذ عن التلميذ وهو في معرض المقارنة بينه وبين «ماتسيني» الزعيم الايطالي «ان كارل يحب نفسه أضعاف حبه لاصدقائه ومريديه .. وما من صداقة تصمد لحظة اذا مسته لحظة في غروره وكبريائه وأيسر من ذلك جداً أن يغفر الاساءة أو الخيانة لدعوته الفلسفية ورسالته الاجتماعية» .

وحسبنا ما وصفه به -أيضاً- «كارل شورز» بعد التقائه به في كولون سنة ١٨٤٨ فقال : «.. هو سريع إلى الصاق مسببة البرجوازية بكل من يخالفه على أسوأ ما تدل عليه من ضعة العقل والخلق» (١) .
وحتى انجلز صديقه وزميله وشريك دعوته والذي كان يُنتظر منه أن يداري عيوب صاحبه لم يستطع أن يتجاهلها لأنها اخلاق لازمت صاحبها منذ مطلع حياته الى خاتمة أيامه . فانا نراه يقول في رسالة بعثها له سنة ١٨٦٣ «من البديه انك ستري ما أنا فيه من الحزن ، وما أنت عليه من جمود الطبع . انني لم اكن استطيع أن أجيبك قبل هذا التاريخ . ان أصحابي جميعا - ومنهم المخالفون - قد أبدوا لي من العطف والعزاء فوق ما كنت انتظر ... أما أنت فقد لاح لك انها فرصة لظهار سموك بالتعالي عن الحزن وجمود العاطفة .. ليكن ما أردت ، سلمنا لك ما تريد .. فانعم باتتصارك» .
ويعقب استاذنا العقاد في كتابه «الشيوعية والانسانية» على هذه الرسالة بقوله :

«انما ثار انجلز هذه الثورة النادرة لأنه كتب الى «ماركس» ينعي اليه خيلته فلم يتحرك لمصابه ، ولم يزد على كلمات أسف وجيزة ، تلاها

على الأثر طلب المعونة وشرح الازمات التي يعانيتها . . . وقد كان «انجلز» ينسى شواغله وهمومه كلما سمع عن وعكة خفيفة يشكوها طفل من أطفال ماركس أو تشكوها قرينته السقيمة ، فلا يهدأ ولا يتوانى حتى يسعفه بما في وسعه من المعونة والمواساة » (١) .

ويستمر العقاد في تعقيبه قائلاً : «وفي هذه المرة فقط عرف ماركس كيف يعتذر من خطأ يلومه عليه لائم من صحبه أو زملائه أو ذويه ، فكتب الى «انجلز» ينحي على نفسه لأنه أرسل ذلك الخطاب ، ويقول : انه ادرك خطاه بعد القائه في البريد ، وإنه كان من رثاثة الحال في داره بلا طعام ، ولا دفء ولا راحة بحيث لا يملك متنفساً غير التهكم وقلة الاكتراث » .

ويرى العقاد أن هذا الاعتذار الذي ارتضاه ماركس أعرق في اللؤم من الخطأ الذي ساقه اليه ، لأنه اعتذار بالحاجة الى الرجل الذي كان يلتبس المعونة منه ، ولم يكن اعتذار شعور بالواجب أو الوفاء (٢) . إن الامر الذي يستوقف النظر في أمر صاحب هذه الدعوة أن تلك الصور التي وصفه بها من تناولوه بالدراسة أو عرفوه عن كتب تكاد تصدر عن اجماع عام سواء ممن يعتقدون مذهبه أو لا يعتقدونه ، أو من عاشروه سنوات ومن لم يجتمعوا به غير مرة أو مرات . وباختصار كانت تلك الشهادة عليه موضع اتفاق من الغرباء وأقرب القرباء . أما اذا وضعنا عامل الوراثة الذي لا يهمل في دراسة شئون الافراد فهو أحق بالالتفات في شأن نبي تلك الدعوة - ونعني به ماركس - لأنه وثيق الصلة بقواعد مذهبه وغاياته .

١ - الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام للعقاد منشورات دار الكتاب العربي - بيروت صفحة ٤١ .
٢ - المرجع السابق صفحة ٤٢ .

فالمعروف أن كارل ماركس هذا ينحدر من أبوين ينتميان الى طائفة
الربانيين والحاخامات اليهود . وكان الاب فقيهاً دينياً أما الأم فهي من
سلالة اليهود الهولنديين الذين هاجروا الى بلاد المجر في القرن التاسع
عشر لكثرة من في هذه البلاد من اليهود أصحاب المزارع والأموال .
ويؤيد هذا ما ورد في كتاب «الحركات الاجتماعية الاقتصادية»
لهاري ليدر حيث قال عنه : «إن أباه كان من رجال الشريعة الاسرائيلية
وأن جده كان من الربانيين ، وأن أمه تنحدر من أسرة هولندية ربانية
هاجرت من هولندا في القرن السابع عشر إلى البلاد المجرية» .
ويقال ان هذه الأسرة العريقة في الديانة اليهودية قد تحولت عن
دينها الى الدين المسيحي بعد ولادة «كارل» بست سنوات ولم يكن
تحولها عن عقيدة وايمان صادق بالمسيحية بقدر ما كان رغبة في فرص
العيش ثم تمهيدا لفرص المستقبل أمام الابن الذي بلغ السادسة وأرادا
في هذه السن أن يحولاه عن ديانة الآباء والأجداد إلى ديانة الدولة
والمجتمع الذي يعيشان فيه .
فهل يمكن أن تنفصل هذه الحادثة عن مذهب «ماركس» في جوهره
ولبابه ؟

فالمعروف أن ماركس قد بنى مذهبه على المادية الاقتصادية ، وكان
قوام هذا المذهب أن الديانات والعقائد جميعها انما هي انعكاس
الضرورات الاقتصادية في المجتمع كما تتمثل في عباداته وعاداته .
ويعقب استاذنا العقاد على تلك الحادثة من حياة كارل ماركس بقوله:
«لا تكون المادية الاقتصادية هنا فكرة من أفكار البحث والمنطق
والدراسة العقلية وكفى ، بل تكون في ضميره لاجعة من أقوى اللواعج
النفسية التي تتطلب التنفيس والتهدة ، وتهمة كامنة في الأعماق تحاول
جهداً أن تنتفض من أعماقها وتتخذ لها نزعة من نوازع التسويغ أو
نوازع التحدي والمفاخرة حينما تفتحت لها دوائر الفكر والوجدان .

«وكأنه يقول من وراء المادية الاقتصادية مسائلًا متحدياً : ماذا صنع أبواي ؟ .. أتراهما صنعا شيئاً يعاب عليهما أو يعاب على أحد ؟ أتراهما على نقص في الاخلاق والضمير لأنهما تحولوا عن الدين التماساً للمنفعة الاقتصادية أو المنفعة المادية ؟

«كلا ان الديانات كلها تتحرى المنفعة الاقتصادية وتنبت في منابها وأن المنفعة الاقتصادية في كل مجتمع هي ينبوع العقائد فيه ، وينبوع كل ظاهرة روحية فيه مما يسمونه بالأداب والاخلاق والفنون، ويحسبونه من ثمرات الذوق أو الخيال أو من وحي السماوات والأرباب ، وما صنعه أبواي لا يعاب عليهما ولا ينم عن نقيصة خلقية أو خيانة لعهد الروح والضمير .. بل هو مفخرة لهما وآية من آيات صدق النظر والبصيرة لديهما ، لأنهما قد نفذا الى أصل الدين في أعماق أعماقه فلم ينخدعا فيه كما ينخدع المؤمنون الغافلون عن أصل الدين وعن جميع الأصول» .

ويستمر العقاد قائلًا :

«فها هنا دلالة أقوى من دلالة الفكرة التي تتولد من البحث العلمي والأقيسة المنطقية .. هاهنا (أولاً) خليفة موروثه مع الطباع التي تورث من كلا الأبوين ، وهاهنا بعد ذلك حاجة نفسية تلح على الوعي الباطن والوعي الظاهر معا وتلتبس منها قوة العزاء أو قوة التحدي والمكابرة ، فلا معابة في ترك الدين طلباً للمنفعة المادية أو الاقتصادية ، بل هو الظاهرة العامة التي ينبغي أن ترجع اليها جميع الديانات ، وهو الى ذلك مفخرة الأبوين بالنظر الثاقب والحدث القويم» (١) .

فمن هذه المعلومات يتراءى أمامنا امام تلك الدعوة في كل صفحة من صفحات سيرته مصداقاً لتلك الخلائق والصفات التي اجمعت عليها

١ - الشيوعية والانسانية للعقاد منشورات دار الكتاب العربي - بيروت
صفحة ٤٤ وما بعدها .

أوصاف عارفه ..

أما اذا تتبعنا سجل حياة كارل ماركس وبعد أن مات أبوه وأصبح هو الولي المسئول عن الأسرة فإننا نرى التصرفات التي لا تكون موضع عجب أو دهشة اذا جاءت من أمثاله أو الذين يتفقون معه في الخلائق والصفات .

فقد تلقى نعي ذلك الوالد وهو في برلين فلم يكلف نفسه مشقة الانتقال الى بلده - وهو رب الأسرة بعد أبيه - ليواسي الاهل والاخوان الذين يصغرونه وليقوم بتدبير شؤون الأسرة كلها بعد فقد عائلها . فلم يشغله في تلك المحنة العائلية شاغل غير طلب الحصة التي يستحقها من ميراثه .

وأتى على حصته كلها حتى نفذ نصيبه منها ، فمال على نصيب أمه وأخوته ، وكانت أمه ترجو أن يغنيهم بكسبه أو يكفيهم على الأقل مؤونة نفقاته ، فاذا هو عالة عليها يجور بمطالبه التي لا تنتهي على رزق أخوته المفتقرين الى السند والعائل بغير أمل في مورد جديد من موارد الكسب يعولون عليه .

فلما ضاقت الأم بطلباته وتوقفت عن تلييتها لجأ مضطراً إلى السب الاستعارة من الاقرباء والاصدقاء ومنهم زوج أخته وأقارب ذلك الزوج . وكانت استعارات غير مردودة .

ويقول العقاد عنه في هذه المرحلة من مراحل حياته : «تقبل من المعونة - بل من الاحسان - ما لا يقبله رجل ذو كرامة» .

مما تقدم نجد أن كارل ماركس زعيم المادية التاريخية كان رب أسرة عاش عالة عليها في الكهولة كما كان عالة عليها في الطفولة والصبا . وكان النبي الذي يحارب التطفل الاجتماعي وهو في الوقت ذاته قد عاش طفيليا في كل مجتمع أصيل أو دخيل نزل فيه .

هذه صورة موجزة عن حياة امام الاشتراكية المادية أو الاشتراكية

العلمية رجعنا فيها الى مصادرها الاصلية فلا ندري بعدها ماذا يقول
القائل من أولئك الذين يتركون الناحية الوحيدة التي ينبغي أن يتجه
اليها الباحثون قبل كل وجهة تصلح لمناقشة المذهب الذي تقوده هذه
الشخصية المعتلة .. وهذا النبي الافاق .

وكل الذي يقال أن طغيان كلمة «العلم» في القرن التاسع عشر هو
الذي وضع هذا المذهب في موضع الفروض العلمية . ولولا طغيان تلك
الكلمة لما كان للماركسية كلها مكان في البحث غير مكان الظواهر
النفسية التي تبحث في المعامل والمستشفيات الخاصة بدراسة الظواهر
النفسية المختلفة .



حقوق الأفراد في مقاييسهم

★ اذا كان غرض البحث في حقوق الفرد وحقوق الجماعة ان نوازن بينهما ، ونقدم بعضها على بعض ، فليس عند «المادية التاريخية» أدب خاص تضيفه الى التراث العريق من آداب الأمم في تقدير الفرد عامة ، ولا في تقدير الفرد الممتاز أو الفرد العظيم ..

فمن قديم الزمن ، فرغ الناس من هذه الموازنة واتفقوا على أن حقوق الجماعة أولى بالتقديم من حقوق الافراد ، وأن حق الفرد اذا وقف في طريق الجماعة وجبت التضحية به لخدمة الجماعة وتغليب مصالحها العامة على كل مصلحة فردية .

في هذه المسألة لا يوجد قولان ..

واذا رجعنا الى آداب الجماعات الأولى لنعرف موضع المغالاة فيها ، فما لا نزاع فيه ان المغالاة في حقوق الجماعة أعم وأقوى من المغالاة في حقوق الافراد متفرقين .. وما كان فرد من الافراد ليعظم في قومه ما لم يكن له فضل في الذود عنهم .. ومعونة عائلهم ، واطعام جائعهم ،

★ هذا الفصل نقلناه بأمانة من كتاب أستاذنا العقاد عن «الشيوعية والانسانية» نظرا لانه من أوفى الفصول التي كتبت والتي حوتها الدراسات المختلفة في مناقشة المذهب من هذه الزاوية .

وايواء شريدهم .. ولا خلاف بين رأيين في أن الموئل الاخير لحق الفرد
هو مصلحة الجماعة بحذافيرها ، فلا حق للفرد العظيم في التعظيم الا أن
تكون مصلحة الجماعة ملحوظة في اكبار العظمة والاعتراف بأفضال
ذويها ...

وعندنا في اللغة العربية ذخيرة من الشعر الجاهلي يخرج منها
القارئ بفكرة واحدة ، وهي أنه ، لا خير فيمن لا خير للناس فيه ...
وما كان أدب العشيرة العربية الا مثالا للعشيرة الاولى على وفاق
في المغزى والنتيجة مهما تبدل أساليب التعبير ..

ولما ترقى البحث في هذه الشؤون الى مذاهب الفلسفة ، كان محور
الفلسفة عند «أرسطو» أن الحكومة المثلى هي الحكومة لمصلحة الرعية،
وأن الحكومة السيئة هي الحكومة لمصلحة الرعاة ..

وقد تعدد القول في الاختيار والاضطرار ، ولا تأتي الفلسفة المادية
التاريخية - مع ذلك - بشيء يضاف الى التراث العريق في تقدير الفرد
بالنسبة للجماعة .. فقد يقال مثلاً ان الفرد مضطر الى خدمة الجماعة ،
بحكم تكوينه ، ولا ينفي ذلك حقه في الكرامة ، لانه أفضل من الفرد
المضطر الى العدوان على الجماعة بحكم تكوينه . ولا يكون رد الفعل
من قبل الجماعة طبعياً معقولاً اذا تساوى في معاملة الفردين : معاملة
الفرد المضطر بحكم تكوينه الى خدمتها ، ومعاملة الفرد المضطر بحكم
تكوينه الى العدوان عليها ..

كذلك لا تأتي المادية التاريخية بأدب جديد في معاملة الفرد اذا
قالت : انه يفلح في سعيه كلما وافقته ظروف الجماعة ، وانه لا يخلق
الظروف التي تساعد وتنشأ في الامة قبل مولده .. اذ لا شك أن الفرد
الذي يريد عمل الخير وينتظر موافقة الظروف لانجازه ، أكرم وأنفع
لقومه من الفرد الذي يريد عمل الشر ولا يستطيعه الا اذا وافقته
الظروف ..

وليكن تعبير المعبر في هذه الحقيقة ، بما شاء من ألوان الأساليب ،
فإن تقدير الافراد لا يتساوى اذا كان منهم من هو مضطر الى العظمة
وكان منهم من هو مضطر الى الخسة ، ولا يغض من قدر العظيم ، ان
الامة قادرة على اخراج مثله .. فان مثله سيأتي أيضا عظيما أفضل في
صفاته وكفاياته من الحقير ..

واذا قال القائل ان قدحاً آخر من الماء سيروني ان لم يجد هذا
القدح الذي أمامي ، فهو لا يبطل نفع الماء بهذا المقال ، ولا يزال الماء ماء
ضروريا للري وحفظ الحياة في الحالتين ..

وكان «هيجل» مثاليا يقول بالفكرة ولا يقول بالمادة .. وكان يرى
نابليون الاول على حصانه في معركة «جينا» فيقول : انه رأى روح
الكون يمتطي ذلك الحصان ، ثم يعود فيقول : لو انه لم يكن نابليون
لكان تدير الروح الاعظم كفيلا بوضع شخص آخر في مكانه على
صهوة جواده يسمى بما شئت المقادير من الاسماء ..

ثم جاء الماديون التاريخيون ، فاقتبسوا قواعد المذهب المادي من
امام الفلسفة الفكرية ، وكرروا هذه العبارة بنصها في أمر نابليون وغير
نابليون ..

إن الانسان قد يدين بكل حرف من حروف المادية التاريخية ولا
يوجب عليه العقل أن ينظر الى الفرد عامة ، أو الى الفرد العظيم ، نظرة
غير النظرة الانسانية الماثورة من أقدم العصور .. فمن أين جاءت تلك
الرغبة الملحة عند الماديين في تحقير العظمة الانسانية ، والحرص في كل
مناسبة على بخس حقها ، واللجاجة في تفضيل الكثرة على المزية كلما
تكلموا عن حادث من حوادث التاريخ ، جاء من خسة النفس أو من
الظاهرة النفسية ، ولم يجيء من فكرة سليمة يستلزمها الايمان بكل
حرف من حروف المادية التاريخية ؟! ..

لتكن الجماعة أولى بالرعاية من الفرد الصغير أو الكبير ..

نعم .. هي كذلك ، وقد كان كذلك ، وكانت الجماعة على هذا تفهم أنه عظيم ولا تفهم أنه صغير ..
ولتكن العظمة ضرورة من ضروريات التفاعل الاجتماعي لا فضل فيها لصاحبها ..

نعم .. هي كذلك ، وقد كانت ، ولم يقل أحد اننا تتربص بها لنهينها ونغض من قدرها ، ونصيح في وجهها لسبب ولغير سبب قائلين مكررين ان غيرك قد كان وشيكا أن يحل محلك ، ويفعل ما فعلت أو ما ستفعلينه ..

وليكن الفضل الاكبر لموافقة الظروف الاجتماعية ، ولا فضل لأحد لم توافقه هذه الظروف .. لكنه فضل لازم ، ووجد لأنه لازم ، واستحق التقدير اللازم لأنه لازم ، ولا يقال عنه انه فضول وانه إهداء غير مقبول .

فالى مصدر آخر غير البحث العلمي والآراء الفكرية نرجع بالنظر لتفسير النعمة على حق الفرد العظيم أو غير العظيم ، أو لتفسير النعمة على كل فرد له لون ، وله شية ، وله علامة مميزة ، بين القطيع السائم الذي لا لون له ولا شية ولا علامة ..!

نرجع إلى طبيعة الدناءة التي تتبع منها الشيوعية ، وتتجه إليها في نفوس المستجيبين لها .. وكلما اخترنا هذا المذهب واختبرنا ضمائر أصحابه تكشف لنا مصدر الشيوعية في جوانب شعورها وجوانب تفكيرها .. فمن الخطأ أن تتوهم أنها نعمة على امتياز الثروة المغتصبة كالنعمة التي يشترك فيها جميع الناس .. في جميع العصور ، ولكنها في أعماق مصادرها نعمة على كل امتياز وحسد لكل ممتاز ، ولو كان امتياز له لنفع بني قومه أو نفع بني الانسان ..



ومن الوقائع المشهودة ان تاريخ الشيوعية نفسها يبرز لنا عمل الفرد في توجيه الجماعات وتحويلها عن وجهتها .. فليس اعلان الدعوة الشيوعية في روسيا حتما من قضاء التاريخ ، لو لم يكن «لينين» على رأس الفئة التي تسلمت زمام الثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف .. فلم تكن روسيا ممهدة للدعوة الشيوعية دون غيرها تمهيداً لا منصرف عنه الى سواء ، لكنها سارت في طريق الشيوعية لأن الفئة التي قادتها يومئذ هي التي سيرتها إليها . وقد تولى النازيون أمر الثورة في ألمانيا ، وتولى الكماليون أمر الثورة في تركيا ، وتولى «سن يات سن» أمر الثورة في الصين ، وقامت في العالم ثورات متفرقات بقيادة هيئات من هذا القبيل .. فاختلف الاتجاه باختلاف القيادة ، ولم يكن بين الامم التي إنقادت لها من جامعة بينها غير السخط وحب التغيير .. ولو أن فيالق «لينين» لم تتسلم زمام الأمر في روسيا ، لما كان حتماً لزاماً أن تسير البلاد على الخطة التي سارت عليها تطبيقاً لمذهب «كارل ماركس» أو خروجاً عليه ..

وما هو الحتم التاريخي الذي كان يستلزم قيام الدعوة الشيوعية في روسيا بعد الحرب العالمية الاولى ؟ بل ما هو الحتم التاريخي الذي كان يستلزم ايمان «لينين» بمذهب المادية التاريخية ؟ إن «لينين» لم يحلم قط بأن تقوم الثورة في حياته ، وكان يقول : إنها لو قامت في مدى مائة سنة لحق للثائرين أن يغتبطوا بهذا التوفيق ، ولعله كان واحداً من أولئك الثوار الروس الذين قالوا للزعيم الصيني «سن يات سن» كما قلنا في كتابنا عنه - انهم لا يتوقعون الثورة وهم بقيد الحياة !

وخصلة أخرى من خصال الشيوعية ينبغي أن نلتفت إليها ، كلما تكلم القوم عن الحتم التاريخي ، وحاولوا أن يسحبوه الى الحاضر أو الى المستقبل ...

فالحتم التاريخي لا يظهر من حوادث الماضي وأحكامه المتسلسلة من

أدواره المتعاقبة .. ولكنه يظهر كلما قامت في طريق الغرض عقبة تمنع نفاذه أو تعوقه الى حين ..

وانكار الحقوق الفردية على هذا القياس لم يكن حتماً لزاماً فسي سوابق التاريخ .. وانما أصبح حتماً تاريخياً يوم وقعت الملكية الفردية، والمنافسة الفردية ، والكفايات الفردية ، عقبة أو عقبات في طريق النفاذ ..

إن الحرية الديمقراطية لا تنكر منع الجور والشطط ، وتحريم المنافسة التي تضر بسلامة الافراد .. والحرية الديمقراطية لا تنكر أن تتدخل الدولة في شؤون الملكية الفردية اذا وجب ذلك لمكافحة وباء ، أو تخفيف غلاء ، أو دفع غارة من الأعداء ..

والحرية الديمقراطية لم تنقض قواعدها حين أصدرت القوانين التي تحرم زيادة ساعات العمل على عشر في النهار .. ولكن صدور هذه القوانين لتنفيذها على الأنوال في البيوت ، قد كان من المستحيل في ظل الديمقراطية أو ظل الشيوعية أو ظل الاستبداد .. إذ من اليسير أن تراقب المصنع الذي يعمل فيه ألف عامل لتمنع زيادة العمل عن عشر ساعات ، وليس من اليسير أن تراقب ألف عامل متفرقين في البيوت ، لتفرض على كل منهم أن يعمل في اليوم عشر ساعات ولا يزيد ..

من نعم التنافس الحر أن يساق الأطفال دون العاشرة إلى العمل الشاق بالليل والنهار؟ .. يسألون هذا السؤال وينسون ان التنافس هنا تنافس العمال فيما بينهم وتنافس المصانع فيما بينها على السواء .. ويسألونه وينسون أن الحرية الديمقراطية بطبيعتها لا تنكر تحريم الارهاق والشطط بالتشريع الصارم كلما دعت الحاجة .. ولكن لا الحرية الديمقراطية ، ولا الشيوعية ، ولا الاستبداد المطلق ، ولا حكومة من الحكومات ، تستطيع أن تنفذ قانوناً غير قابل للتنفيذ . وليس تقديس

التنافس الضار هو الذي حال دون اصدار القوانين التي تحرم زيادة العمل على الطاقة .. ولكن هذه القوانين لم تصدر قبل عهد المصانع الحافلة بالعمال لأن تنفيذها على البيوت ، وعلى الآلات اليدوية المتفرقة ، شيء غير ممكن في الواقع ، أيا كان السلطان المشرف على الصناعات . فالحرية الديمقراطية لم تكن تمنع الاصلاح بتحريم الشطط فسي التنافس الذي يريد المتنافسون أنفسهم أن يحرموه .. الا أن هذا الاصلاح لا يوافق غرض الماديين التاريخيين ، وليس على منهجهم أن تبقى الملكية الخاصة مشروعة في القوانين . ولهذا يظهر الحتم التاريخي فجأة لانكار الحقوق الفردية والحرية والكفايات الفردية ، ولا موجب لظهوره من سياق التاريخ .. وانما الموجب الوحيد لظهوره أنه الوسيلة الى تحقيق الغرض المنشود ..



هذا الحتم التاريخي المنجم على حسب الغرض ، هو مصدر الآراء التي ربت للفرد مكائته في مذهب الماديين التاريخيين ، وفرضت له نصيبه من الحرية ومن الفضل في خدمة المجتمع أو تنفيذ برامجه الاصلاح .. وهو نصيب تضاعل مع الزمن في أقوال فلاسفة المذهب قبل أن يتضاعل في أعمال التطبيق ، لأن ما قالوه في عهد كارل ماركس عن حرية الفرد لم يزل يتضاعل ويتضاعل حتى أصبحت الحرية الفردية على ألسنتهم وصمة تعاب ، وتدعو الى الاتهام بانكار حق الجماعة في أن تصنع بالفرد ما تشاء ..

والمشهور عن «كارل ماركس» انه تائر جامع يصدم العالم الواقع بما يزعجه ولا يبالي مغبة هذا الازعاج ، الا أنه اذا امتحن بحيلته في ازجاء القول عن مكانة الفرد كان وصف الماكر الحذور أليق به ممن وصف الثائر الجموح .. فلم يكتب في مؤلفاته كلمة واحدة تشير من

بعيد الى الخطر على الحرية الفردية من مذهبه في الاجتماع ، وما كان
في وسعه أن ينس بكلمة في هذا المعنى ثم يطمع في مستمع واحد يصني
اليه بين صيحات الحرية التي ملأت أجواء القرن التاسع عشر ، وكانت
تذهب بالناس الى الأنفة من طاعة القانون وطاعة الحكومة على وضع من
الأوضاع .. فراجت بينهم دعوة الفوضوية والنقاوية ، وراجت بينهم
دعوة الشيوعية نفسها لأنها وعدت الأمم أن تنتهي بها الى عصر تذيل
فيه الحكومات حتى تزول .. ومن يذهب إلى هذا المدى في الأنفة من
الطاعة ، فلا مطمع في اصغائه إلى مذهب يحدثه عن الاستبداد ، ويجعل
حرية الفرد نافلة من النوافل أو مظهراً كاذباً يخفي وراءه قسوة الضرورة
التي لا تحفل بالحریات ولا بالأفراد .

كان «ماركس» وأتباعه يترنمون بالحرية الفردية في موكب
الديموقراطية ، وكانوا يشهرون بالسلطة الفردية فلا يصدمون أحداً لأن
سلطة الفرد كانت هي الخطر الأعظم على الحرية الفردية في تلك الآونة ،
ولم ترد الإشارة الى «دكتاتورية الصعاليك» أو استبداد الطبقة الأجير
الا مرتين في رسائل «ماركس» الخصوصية .. أما الكتب والبرامج
المسهبه ، فكل ما ورد فيها بيان عن حالة الحكومة بين قيام الثورة
واستقرارها ، وأهمه ما جاء في برنامج مؤتمر جوثا (١) وقصد به
«ماركس» الى التوفيق بين الفوضوية التي ترفض الحكومة في جميع
العهود ، ونظام الشيوعية الذي يترخص في إقامة الحكومة لحراسة
النظام الجديد ريثما تنتظم الأحوال بعد الغاء الطبقات ..

وقد ختمت رسالة المادية الماركسية في القرن التاسع عشر ، وهي لا
تجرؤ على المساس بالحرية الفردية ، ولا تمس مطالب الفرد إلا حيث

تستطيع ان تمشي في جوار فكرة من أفكار العصر المقبولة أو مبدأ من مبادئه المحبوبة .

فالحملة على احتكار الثروة لم تكن غريبة على الأسماع حيث تنهال الحملات كل يوم على احتكار السلطة واحتكار السيادة بأنواعها وألوانها ..

والرجوع بكل شيء الى حقوق الأمة في المسائل الاقتصادية ، لم يكن غريبا على الاسماع حيث ترجع الحقوق السياسية جميعا إلى الأمة ، ويتسع نطاق النيابة عن الأمة في شتى طبقاتها ..

والحتمية التاريخية لم تكن غريبة عن الأحاديث الشائعة حول نواميس الكون وقوانين الطبيعة ، أو اجراء كل شيء في العالم على سنة عامة لا تسمح بالشذوذ في عظيم أو دقيق من أحوال الحركة والسكون بين السماوات والارضين ..

والتشهير بجمع المال والتهافت عليه لم يصدأ أحداً في الجيل الذي جاء بعد ثلاثة أجيال ، أو أربعة تسمع عن أصحاب الأموال كل مذمة ومنقصة، وتلقى من منابر الوعظ أو منابر الفلاسفة المبشرين بالطوييات سوء النذير من جراء الجشع والتكالب على الحطام . وقد كانت الطوييات تتبع بعضها بعضا في انجلترا وإيطاليا وألمانيا منذ عهد «توماس مور» الانجليزي إلى عهد «جوهان فالنتين» الألماني الى عهد «شامبنلا» الإيطالي الى غيرهم من أصحاب البشائر الاجتماعية المجمعين على تدنيس الطمع ، وتبشير المحرومين بالراحة والرزق الخفيض .. وقد بدأ عصر الطوييات في القرن السادس عشر واستمر بعده الى القرن العشرين، واقرن به عند نهاية القرن الثامن عشر ، عصر البرامج الاجتماعية التي كان من روادها السابقين «بابوف» الفرنسي ، و«روبرت أوين» الانجليزي ، ورواد علم الاقتصاد وعلم الاجتماع بين أمم الحاضرة

الأوروبية .. وليس فيهم من كان يذكر الطمع في الاموال بغير المنة والتشهير .

هذه النواحي من الفردية المعيبة هي النواحي التي اختارتها المادية التاريخية للتسلل من خلالها الى عقول أبناء القرن التاسع عشر ولا تقول للهجمة عليها .. فما كان بمذهب المادية التاريخية من حاجة الى الهجمة على قواعد الاحتكار ، ولا الى الهجمة في مجال البحث عن نوااميس الكون وقوانين الطبيعة .. اذ كان «العقل العصري» يثور قبلها على السلطة المحتكرة ، والقوة المحتكرة ، والثروة المحتكرة ، والمزايا المحتكرة جميعا ، لأنها في جملتها عدوان على حرية الافراد .. ولا نبتعد بالكلمات عن معانيها اذا قلنا ان البحث عن النوااميس الكونية كان في لبابه ثورة على رجال «الكهنوت» الذين احتكروا العلم بأسرار الكون فجاء «العقل العصري» منكرا لهذا الاحتكار مديعاً لأسرار الكون على السواء بين جميع القادرين على استطلاع تلك الاسرار .

ولقد كانت فلسفة الماديين - على هذا - تسلا إلى العقول في موضوع الحقوق الفردية ، ولم تكن هجوماً يصدّم تلك العقول .. الا أنها تسترت بكراهة الاحتكار لتقول بكراهة الامتياز كيفما كان ، وجعلت الفرد كبيرا أو صغيراً ، لغوا او كاللغو في حركة التاريخ ، وليس لفكرة من أفكارها الفلسفية معنى مفهوم ان لم يكن معناها إلغاء الفرد بالقول الصريح .

فلا معنى للنص على أن «الفرد» لا يصنع شيئا الا بموافقة الظروف .. ان هذا تحصيل حاصل يصدق على الفرد وعلى الجماعة وعلى كل قوة إنسانية أو حيوانية أو مادية تؤدي عملاً في هذا العالم ، ولا يمكن ان تؤديه اذا عارضتها قوة أكبر منها .. ومن تحصيل الحاصل أن يقال : إن مشيئة الافراد تتفاعل ويأتي فيها

في النهاية شيء غير الذي أراده كل فرد منهم على حدة، فإن المواد الكيمية

تفاعل مثل هذا التفاعل .. ولا نقول من أجل ذلك : إن الحديد كالتصدير ، أو أن الذهب كالنحاس ، أو أن الكبريت كالمسح ، أو أن العناصر ليست عناصر مؤثرة مختلفة التأثير من أجل ذلك التفاعل المفروض .

كل ذلك تحصيل حاصل لا موجب للعناء في شرحه ، لو كان الغرض منه أن عمل الفرد محاط بالعوامل التي تساعد تارة وتقاومه أخرى .. وإنما الموجب له أمر واحد وهو ذلك الولع بالتسفيه والتخسيس والتلصص على كل تعلقة خفية لتصغير كل عظيم ، واستمراء الحقد والحسد في طوية كل مهين لئيم ..

ومن التسلسل إلى العقول أن ينادي زعماء المادية بحقوق الفرد السياسية في المنشورات العامة ، ثم أن يحتفظوا بين سطور المباحث الفلسفية بتفسير تلك الحرية على النحو الذي أرادوه ، ولعل حصاة « إنجلز » في هذا الباب كانت أكبر من حصاة « كارل ماركس » حينما تصدى للبحث عن فلسفة الحرية ، فإن « إنجلز » هو الذي اسهب في تفسير معنى الحرية حين تصدى للرد على « دوهرنج » فقال : إنها هي معرفة الضرورة ، وإن الإنسان يعتقد أنه كان حراً في اختيار أمر من الأمور لأنه يجهل العوامل التي تكونت منها حرية الاختيار ، ولم يشأ « إنجلز » - أو لم يستطع - أن يبين لنا ما الفرق بين العوامل التي « تضطر » الإنسان إلى الحرية ، والعوامل التي تضطره إلى العمل الآلي المكره المجرد من الاختيار أو من الشعور بالاختيار ! .. فلن تكون النتيجة أن الحالتين سواء ، وأن الشعور بالاختيار كالشعور بالاضطرار ، وأنا نختار بينهما فلا نملك أن نختار .. !

ولم يجهر الدعاة الشيوعيون باحتقارهم للحرية الإنسانية إلا بعد أن قامت لهم دولة تملك سلب الحرية .. فسلبوها واعتبروها ترفاً لا يساوي ضرورات المعيشة ، ولعبوا بالالفاظ في هذه المقارنات الجوفاء بين

الكماليات والضروريات لعبا مبتذلا يشف عن سوء فهم أو سوء نية .
فإن كبح الاستبداد ضرورة الضرورات في مجتمعات الآدميين ، ولا
يكبح الاستبداد بحشو البطون ، بل بالحرية في الضائر والأفكار ..
وقد كان الشيوعيون والنازيون يساوون الخبز في وجه أنصار الحرية ،
وينسون أن الفاشيين والنازيين يساوونهم في هذا « البرهان » الحيواني
إن لم يرجحوا عليهم .. لأنهم جميعا يؤيدون مذهبهم وتطبيقاتهم بإطعام
الجوع وتدمير العمل للعاطلين ، ولكنهم لا يسألون كما يسأل الشيوعيون:

ما جدوى الحرية للبطون الجوع ؟ ..
ولو قد ثبت أن الحرية ترف رخيص ، وأنها ليست من ضرورات
الحياة الاجتماعية لدفع أخطار الاستبداد لما كان في ذلك السؤال حجة
على شيء .. إذ كان الطعام الزم للكائن الحي من أمور كثيرة لم يتركها
الآدميون لهذا السبب ، ولكنهم بها كانوا آدميين ولم يكونوا آدميين
بما يأكلون ويشربون .

ولقد يحق ذلك السؤال لكثير من السائلين غير أصحاب المذهب
الذين قضوا على الملايين وعذبوا وشردوا أضعافهم من طبقة المحرومين
وغير المحرومين ، فإن الذين ماتوا جوعا وقحطاً في تاريخ الروس منذ
القدم لا يساوون شطرا من هؤلاء القتل والمعديين .

ثم عاد القوم الى نعمة الحرية الفردية بعد سنواتهم التي تصرمت في
ازدراء هذه الحرية وعقد المفاضلات بينها وبين الخبز وما إليه . فلما
احتفلوا بذكرى « كارل ماركس » بعد إنقضاء ستين سنة على وفاته ، لم
يشغلهم أمر في هذه الذكرى كما شغلهم أن يدفعوا شبهة الجناية على
كيان الفرد وكرامته الانسانية في ظل الشيوعية ، فطلبوا الى أسقفهم
الاحمر (١) أن يكتب لهم رسالة خاصة عن الماركسية والفردية ، فكاد

Dean of Canterbury .

يترنح وهو يردد كلام رفيقه « باربوس Barbusse » الذي كتب من قبله يقول : « إنه ما من شيء أدهشه كدهشته من تلك الفردية المتدفقة في بلاد الروس ، إذ نشهد فوعة الشخصية متوفزة على ريمان الشاب » .

وبعد عشر سنوات على هذه الأنشودة - البريئة - يموت «ستالين» فيتنفسون في بلاده الصعداء ، ونسمع من أعظم الشخصيات حوله أنهم عاشوا بين يديه في سجن من الكبت والرغبة ، لم يصدقوا أنهم نجوا منه بعد موته واستوائهم على عرشه زهاء ثلاث سنوات !..



قل أن الحرية يخدمها ما يعمل لها ، ويعمل لمحاربتها على السواء ، وهي كلمة تصدق أبلغ من هذا الصدق إذا قيلت عن الحرية الفردية أو عن الشخصية الانسانية .. فإن الشيوعية تستهين بها في تفسير أطوار التاريخ وتتجاهلها في دراسة الحركات الاجتماعية ، ولكن لو زالت تواريخ الحركات الاجتماعية وبقيت لنا منها حركة الشيوعية لكان فيها الكفاية « لفرز » مجهود الفرد في الأعمال العامة ، وإبراز ما ينسب إليه في أطوار التاريخ مقدما على نسبه الى الامة أو البيئة أو الطبقة .. إن « ماركس » و « انجلز » زعيمى المذهب الشيوعي ولدا في المانيا وتمرسا بالحياة الاجتماعية والسياسية في فرنسا ، وكونا مذهبهما في انجلترا .. ووضعت هذه المبادئ بعد موتهما موضع التنفيذ في روسيا . وليست أمامنا صفة واحدة محققة بين هذه الأمكنة المختلفة غير صفة «ماركس الفرد» و «انجلز الفرد» متحيزة في هذه الأشتات من الاحوال الالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية . وأبرز من ذلك للصفة الفردية أن «ماركس» و «انجلز» - كليهما - من الطبقة البرجوازية ، وليس في وسعهما أن يزعا أنهما كانا يمثلان

أخلاق الطبقة البرجوازية حين تصديا لإنصاف الطبقة الأجيعة ، وإلا
لكان في هذا الزعم قضاء على مبادئ المذهب وقضاياها في الاخلاق
والاجتماع والفلسفة والاقتصاد . فلا بد من صفة خاصة « للفرد ماركس »
و « الفرد انجلز » مستقلة عن صفات سائر الأفراد في طبقة المالكين أو
طبقة الأجراء ..

ولقد كان دور التنفيذ أبرز لهذه الحقيقة من دور الدعوة ، فإن
البارز أمامنا في تنفيذ الفلسفة الماركسية بعد الحرب العالمية الأولى هو
شرذمة من الأفراد سلطت إرادتها على بلاد لم تنهياً للماركسية بأطوار
الصناعة ولا بأطوار الاجتماع ، وقد ادعى هؤلاء الأفراد لأنفسهم من
الحقوق والسلطات ما لم يجرؤ على إدعائه أشد الناس غلوا في الإيمان
« بالفردية » المطلقة ، ثم تركزت هذه « الفرديات » في « فردية » واحدة
يتسلط بها زعيم واحد بوسائله « الفردية » التي ميكنته من تسخير أعوانه
وأتباعه مدى حياته .. وهذا هو الواقع المجسم أمام الأعين والعقول .
أما تلك التخريجات الملتبسة التي تغوص بنا في سراديب الإرادة الخفية
والإرادة العلنية فهي أشبه بالغاز ما وراء « الطبيعة » التي يهيم فيها
أصحاب المذاهب الجبرية والقدرية حين يخوضون بغير علم في إقامة
الفواصل بين إرادة الخالق وإرادة المخلوق ، أو فيما سبق به القدر
ولحق به القضاء ..

وحسب الباحث دراسة الشيوعية بين جميع الحركات التاريخية ،
ليقول باللغة التي يستطيعها الإنسان : إن « الفرد » شيء من الأشياء التي
لا تهمل في تطوير التاريخ ، وأن إرادته وإرادة الجماعة من مصدر واحد
في تكوين العوامل التي توضع في ميزان الحوادث والاقدار .
والتي لا رأي لها فست التاريخ بما يطل هذا الرأي أو يشكنا فيه ،
ولكنه يقول لنا : أن رأي ماركس عن أعمال تلك الجماعات يصورها لنا

على غير هذه الصورة ويستدل لها بغير هذا الدليل .

ويكاد المتكلم أو الكاتب يتعثر بالمفارقات اللفظية التي لا تستقيم في التعبير اذا تكلم عن تطور الفرد أو تطور الجماعة في التاريخ على وجه غير هذا الوجه ، مع ايمانه بالتطور فيما مضى وبالتطور في المستقبل قياساً عليه ، وسواء فهم من التطور أنه نمو وتقدم ، أو فهم منه أنه تغير وتوفيق بين الكائن الحي وأحواله كلما تغيرت هذه الاحوال ، فاذا حدث التطور على أية صورة من الصور، فلا بد أن يتناول الكائن الفرد المسمى بالإنسان وأن يتناول النوع الانساني في مجموعه .

ولا توجد غير صفة واحدة تحيط بكفايات التطور أو التقدم عند النظر الى الفرد أو الكائن الحي المسمى بالانسان ، وتلك هي زيادة التبعة وزيادة القدرة على النهوض بها ..

وفي وسعنا ان نلخص هذه العبارة في كلمة واحدة وهي «استقلال» الشخصية ..

فما الفرق بين القادر والعاجز ؟ وما الفرق بين العالم والجاهل ؟ وما الفرق بين الرئيس والمرؤوس ؟ وما الفرق بين الرجل والطفل ؟ وما الفرق بين صاحب الثروة والفقير أو بين صاحب العائلة ومن يعول ؟ يقول من شاء ما شاء في شرح هذه الفروق بمختلف المقاييس ، فلا بد أن يؤول بها الى مقياس واحد وهو أن الراجح أوفر نصيباً من التبعة والقدرة عليها أو أنه بعبارة أخرى أوفر نصيباً من استقلال الشخصية . فلا تقدم ولا تطور اذا فقد الانسان هذه القدرة أو تعرض فيها للنقص والضمور ..

وليست ملامح الشخصية الفردية مما يجهله أحد فيجوز أن يجهله زعماء الشيوعية ، فقد أشار « ماركس » و « انجلز » الى تعدد المواهب

والملاح في معارض كثيرة من معارض البحث والدعوة، وقال «ماركس»
بأصرح العبارات في رسالته عن فقر الفلسفة : « إن الناس يولدون على
اختلاف في الأدمغة والملكات الذهنية » .. وقال في انتقاده لبرنامسج
جوتا « إن عالما من المؤهلات المنتجة والغرائز يضحى به من أجل اقتناز
الاجزاء الآلية ، وقال في الجزء الأول من كتاب «رأس المال» : « إن
توزيع العمل ينشأ من توزيع الاخلاق حيث يحتاج عمل الى زيادة في
القوة ، وعمل آخر الى زيادة في الذكاء ، وعمل غيرهما الى زيادة في
الالتباه . ويقول « انجلز » بمثل ذلك في مباحثه الفكرية الاقتصادية ،
ولاسيما الرد على «دهرنج» والاشتراكية الطوية والعلمية ويتبعها في
هذا المعنى أقطاب المذهب من الدعاة والباحثين الغربيين أو الروسيين ..
ولكنهم يحرصون على تغليب فكرة الانتاج وقيام المجتمع بغير
طبقات فلا ينتهون بهذه الخصائص الفردية الى النتيجة التي تقتضيها ،
وهي تقتضي ان يكون الافراد هم المؤثرين في مجرى التاريخ العام مهما
يكن معنى التفاعل بين المشارب والإرادات ، فإن الهيدروجين يظل فعالا
في تكوين الماء ولو أطلقنا على السائل اسما آخر لا نذكر فيه
الهيدروجين ، ونظل نعتمد على الهيدروجين ولا نعتمد على عنصر غيره
كلما أردنا تكوين الماء أو تحليله بعد تكوينه . ومهما يكن من تغير المظهر
الخارجي بعد الامتزاج والتفاعل ، فنحن لا نلغي عنصرا واحدا من عناصر
المزيج ولا نمنع خاصة واحدة من خواصه حيثما أردنا ذلك التفاعل
وحرصنا على كياته الصحيح .

إن المزيج الكمي المتفاعل يتطلب منا أن نحافظ على الصفة المستقلة
لكل جزء من أجزاء ذلك المزيج ، ولا يتطلب منا أن نجور على ذرة من
ذراته لأن المزيج هو الغرض المقصود في النهاية .. بل يجب علينا حرصا
على ذلك الغرض الاخير أن نبدأ بالحرص على الأجزاء ، ونعرف أنها
تعمل عملها لأنها أجزاء يحافظ كل منها على خصائصه وفواعله بغير

انتقاص ولا تشويه •
فلا تطور بالنسبة للكائن الحي المسمى بالانسان الا ان يستوفي
كيانه الفردي وأن تتم له الشخصية الانسانية بتبعاتها وحرياتها ، وأن
نعتبره قوة عاملة في بيئته بغير لف من هنا أو دوران من هناك لنمسح
باليصار ما نقرره باليمين •

إن الجزء شيء حقيقي وبغيره لا يوجد المزيج الكيمي كيفما اختلف
به التفاعل والتشكيل •• وان الفرد شيء حقيقي وبغيره لا يوجد الاثر
الاجتماعي كيفما كان المجتمع على التعميم •• أما نوع الانسان فلا يكون
له تطور الا أن يكون تطورا محيطا بالنوع غير محدود باللون أو
بالسلالة أو بالطبقة أو بالجماعة •• ولا يكون تطورا انسانيا وهو خاص
بطبقة أو بقوم أو بسلالة أو باقليم ••
ونكاد ندخل في المفارقات اللفظية اذا تكلمنا عن ارتقاء نوع
الانسان ، ولم نقصد بذلك شمول الارتقاء لكل ما تمخضت عنه جهود
النوع من المزايا والملكات والقابليات والأطوار •



إن الكلمة نفسها تكاد توحى لنا بمعناها الذي لا تقبل معنى سواء ،
فكل تطور انساني هو تطور للفرد في طريق الكيان التام والشخصية
المستقلة •• وكل تطور للنوع فهو احاطة بالفضائل النوعية في أوسع
نطاق يحتويها : نطاق النوع الذي لا تخفيه حواجز الألوان والسلالات
والطبقات ••

واذا كان هذا حكم العقل وحكم الواقع بين أيدينا ، فهو كذلك
حكم التاريخ حيثما وضع له معنى مطرد في شعابه المتفرقة وسياقه
المتلاحق دورا بعد دور ومجالا بعد مجال ••

سألنا في كتابنا عن « غاندي » في فصل عن « العناية الالهية وتاريخ
الانسان » :
« هل للتاريخ الانساني وجهة معينة نستطيع ان تتبينها من جملة
الحوادث الماضية » ؟ ..
ثم قلنا : انه سؤال يتوقف جوابه على سؤال آخر وهو : ماذا عسى
ان تكون وجهة التاريخ المعقولة اذا تخيلنا له اتجاها يتوخاه على نهج
مرسوم ؟
ثم أجملنا الجواب بما يصح ان يكون تنمة لهذا الفصل يغنينا عن
جواب جديد ..
قلنا في ذلك الجواب : انه شيء يتعلق بالانسان الفرد ، وشيء
يتعلق بالناس كافة أو بالانسانية جمعاء ..
فالشيء الذي يتعلق بالانسان الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعة .
والشيء الذي يتعلق بالانسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعاون
والاتصال ..
وزيادة نصيب الفرد من الحرية والتبعة هو المطلب الشامل السذي
تنطوي فيه جميع المطالب ، فهو أشمل من القول بازدياد العلم أو ازدياد
القوة أو ازدياد الفضائل والملكات ، لان هذه الخصال كلها تتمثل في
زيادة استعدادده لحق الحرية وزيادة قدرته على احتمال التبعة ..
« وكذلك يقال عن التعاون بين عناصر الإنسانية برمتها ، فهو أشمل
من القول بارتقاء النظم السياسية وارتقاء المعاملات التجارية وارتقاء
الاخلاق الاجتماعية ، لان هذه الخصال كلها تتمثل في التقارب بين
الامم والتعاون بينها على وسائل الوحدة والاتصال .
« هذا وذاك هما الوجهة التي تتخيلها للفرد وحده ، وللناس كافة
كان للتاريخ وجهة معقولة تدل عليها الحوادث الماضية ..
فكان الانسان الفرد قبل نشأة القبيلة هملا مستباحا ، لا يحفظ

حق ولا يفرض عليه واجب ، ولا ينال من الحرية الا ما يغفل عنه
المعتدون عليه *

« ثم نشأت القبيلة فنشأ معها للفرد نوع من الضمان ، ولكنه ضمان
شائع لا يستقل فيه بحرية ولا تبعة ، فيؤخذ بذنب غيره في الثأر والمغرم
ويقاسمه غيره فيما يغنمه ويستولي عليه .. فهو رقم متكرر وليس بكم
مستقل في الحساب *

« ثم نشأت الأمم فازداد نصيبه من الحرية كلما ازداد نصيبه من
التبعة ، واصبح المقياس الوحيد لإرتقاء الأمة هو مقدار حظ الفرد فيها
من الحريات والتبعات ..

« فليس لارتقاء الأمة علامة أصدق من هذه العلامة ، وهي حريات
الفرد وتبعاته ، بل ليس للارتقاء علامة غيرها يطرد بها القياس في جميع
الأمور ..

« .. تلك هي وجهة التاريخ المطردة في حالة الانسان الفرد حيث
كان ..

« أما وجهته في حالته الانسانية كلها فالاتجاه الى التقارب بينها
مطرد يتعاقب في كل مرحلة من مراحل التاريخ ..

« ونحن الآن في عصر يلمسنا هذا التقارب في كل علاقة من علاقات
العالم المعمور : في المواصلات ، والمعاملات ، وفي الروابط السياسية ،
وفي نقل المعلومات واذاعة الاخبار ، وفي هذا التضامن التام الذي
يجعل الأزمة في ناحية من الارض أزمة قريبة يحس بها أبعد الامم من
تلك الناحية ، أو يجعل القوي مهتما بموقف الضعيف منه ، مهما يكن
من اعتزازه بالسطوة والثراء ..

« ولم تكن الحروب والمطامع حائلا دون هذا الاتجاه ، بل لعلها
كانت من دوافعه ودواعيه .. فأسفرت كل حرب من حروب الرومان
والفرس والعرب والصليبيين والعثمانيين عن تشابك بين ناحية وناحية

في الكرة الارضية ، ومن جراء هذه الحروب تشابكت آسيا وأوروبا
وأفريقية وانفتح الطريق الى القارات المجهولة ..

« واذا نظرنا الى أثر الحروب في المخترعات وتسخير قوى الطبيعة
جاز لنا أن نقول : إن وسائل المواصلات قبل غيرها مدينة للحروب
بالشيء الكثير .. فماذا يكون الطيران والرادار ومحركات القوى جميعا
لولا ضرورات الحروب واشتراك غريزة الدفاع عن النفس في سباق هذا
المضمار ؟ ..

« بل نحن نتعلم من التاريخ أن الدولة الحاكمة لا تدوم الا بمقدار
ما يكون لدوامها من رسالة عالمية ..

« فدولة الرومان دامت حين كانت لازمة للعالم، وأخذت في الانحلال
حين بطلت رسالتها العالمية واستلزم التحول في أطوار الأمم واتساع
مجالها رسالة عالمية أخرى على غير ذلك النظام ..

« ولنبحث عن دلالة ذلك الاتجاه في تاريخ الاقليم الذي تتكلم في
هذا الكتاب عن بطل من أبطاله .. وهو الاقليم الهندي أو الاقاليم
الهندية على التعبير الصحيح ..

« فقد كانت حروب الاستعمار الأوروبي محنة طامة على الشرق
بأسره ، نقم منها الشرق لما أصابه من بلواها ، ورغب فيها الغرب لأمر
أرادته وأرادت الحوادث غيره ، لم يخطر للشرق ولا للغرب على بال ..

« لم تكن الهند قط وطنا واحدا في عصر من العصور ، لانها كانت
تتألف من شتى العناصر وشتى المصالح وشتى المواقع الجغرافية .. »
« فلم تدافع قط دفاعا واحدا ، ولم تشترك قط في هجوم واحد ،
ولم تجمع قط على مطلب واحد بينها وبين أبنائها ، ولا بينها وبين
الغرباء عنها والمغيرين عليها ..

« فلما ابتليت باستعمار واحد - طغى عليها من أقصاها الى أقصاها -
وجد فيها وطن واحد يواجه ذلك الاستعمار بمطلب واحد ، وهو مطلب

الخلاص منه ، كيفما تعددت وسائله بين طلابه ..

« وولدت الهند مولدا جديدا في التاريخ ..

« وزال الاستعمار أو كاد ، وبقيت الهند الجديدة ، وبقيت معها علاقات يشتبك فيها الشرق والغرب ، وتنظيم في الوحدة الانسانية على نحو لم تعهده ولم تحلم به قبل محنة الاستعمار ..

« فاذا كان اتجاه العالم المعقول هو الاتجاه الذي تنتهي اليه الحوادث في حياة الفرد وحياة الانسانية عامة ، وكان هذا الاتجاه مما تلتقي عليه عوامل الوفاق وعوامل الشقاق ، ويتوافق عنده ما يراد وما لا يراد - فمن عمل المؤرخ الباحث لا من عمل المتدين المؤمن فحسب - أن يفهم للتاريخ معنى غير معنى المصادفة العمياء ، وأن يرى للعالم مصيرا مقدورا يبضي الى غاية هذا الاتجاه ، حيث تهديه عناية الله ..

هذه النظرة الى تطور النوع سهلة جلية لا تنأى بنا عن الواقع ، ولا عن المعقول ، ولكنها تضعنا أمام الواقع والمعقول وجها لوجه ولا تجشمننا ان ندور بها حول الاحاجي والمعميات ..

يبدأ الناس تاريخهم منعزلين متباعدين ، فاذا أخذ التاريخ في التطور فهناك تشتبك العلاقات بينهم مرحلة بعد مرحلة ، فتتقارب المسافات ، وتتقارب المواصلات ، وتتقارب الحضارات ، وتتقارب المصالح على علم أو على غير علم ، فتصبح حياة النوع الواحد في العالم الواحد حقيقة يترجم عنها اضطراب سائر الاجزاء لاضطراب جزء منها في أقصى موقع من مواقع الدنيا الانسانية بما اشتملت عليه من الاصدقاء أو الاعداء ..

وقد نرى هذا التقارب بين الطبقات على ما تقدم في الكلام عن الطبقة كما نراه في التقارب بين الاقوام وبين الحضارات .

وتؤثر هذه العلاقات الواسعة في حياة كل فرد من أفراد النوع بداهة ليصبح فردا من نوع بعد أن كان فردا من عشيرة ، أو فردا من سلالة ، أو فردا من دولة جامعة بين الشعوب والسلالات ..

ولا شك أن هذا التأثير في حياة الفرد — بعد تقارب العلاقات العالمية هو الذي يمثل لنا كأنه تقييد لحرية أو افناء لاستقلاله ، تنفيذ البرامج العالمية ، وتحقيقا للتعاون بين الأمم ورسم الخطط التي يجري تطبيقها في كل أمة للتوفيق بين الجهود والتقابل بين المطالب والموارد في أمم كثيرة لم تكن بينها مشاركة في المعاملات قبل ارتباط العلاقات العالمية أو العلاقات الانسانية ..

فقيام العلاقة بين الأمم الكثيرة هو الذي يوجب على هذه الأمة ان تشتغل بهذه الزراعة ، ويوجب على أخرى أن تجعل برنامجها موافقا لزراعة هذه وصناعة تلك في الوقت المطلوب .

هذه البرامج لا موجب لها في عصر خلا من المعاملات العالمية .. وهذه البرامج لا مفر منها مع اشتباك هذه المعاملات وتكافل الأمم طوعا أو قسرا في المنافع والاضرار ..

وهذه البرامج هي التي تبدو لنا كأنها نكسة في الحرية الفردية ، وهي في صميمها تهينة للإنسان الفرد لكي يأخذ مكانه الجديد في العالم الواحد ، ويلتقي بالنوع في تطوره الدائم معفى من الجهد المبذود والفوضى التي لا تكافؤ فيها بين الأعمال والحاجات ..

وليس أخطر على حرية الفرد من هذه الفوضى في الحياة العالمية ، لأنها تسومه عمل الآلاف من المطالب حيث لا حاجة به الى غير مطلب واحد، أو تسومه اهمال الآلاف من المطالب حيث يحتاج اليها في أوقاتها ولا يجدها في تلك الأوقات ..

فاذا انتظمت البرامج والخطط على مقدار المطالب والموارد ، فهذا هو سبيل المعيشة الحرة في العالم الكبير الذي يتعاون كل جزء منه لاعطاء ما عنده والاستفادة مما عند الآخرين ..

ولسنا هنا نفرض فروضا ، أو نقترن النظريات على موافقة الوقائع والاعمال ..

فالتقارب في المسافات والمصالح مسألة من مسائل الحس والمشاهدة،
والحاجة الى اتفاق البرامج والخطط مسألة مثلها نعمل فيها مختارين إن
شئنا أو نعمل فيها مضطرين حيث لا نشاء ..
إن الماديين في العصر الحاضر أدنى الى لمس هذه الاطوار التاريخية،
أو هذه المشاهدات الواقعية ، من دعاة مذهبهم الأولين قبل مائة سنة ..
يبدأنهم لا يرونها ولا يريدون أن يروها ، وليس اعراضهم عنها لانها
بعيدة من العقول قانها أقرب الى العقل مما يقدرونه ويدبون وراءه في
البحور ليستخرجوه الى النور .. ولكنهم يعرضون عنها لانها بعيدة
عن طباع الشر والنقمة والشغف بالتخريب واهدار الدماء .. !
أقرب اليهم من ذلك أن يتصوروا التاريخ كمينا متربصا بكمين ، ولا
حقين يهدمون ما بناه السابقون ، وطبقة واحدة تستأصل جميع الطبقات
ولا تسهلها الا ريشا تمكنها الفرصة منها ، ونوعا انسانيا كأنه « بنيلوب »
زوج « عولس » ، أو كأنه الخرقاء التي تنكث غزلها بيدها كلما أبرمته ،
ولماذا يستقربون هذا التصور البعيد ؟ .. لانهم خرجوا يبحثون عن
غرض بعينه ، ولم يخرجوا للبحث عن أقرب الحلول الى المحسوس
والمعقول !



ولا نحب أن ننسى في ختام هذا الفصل أن طائفة من المفكرين من
غير الشيوعيين يعتقدون اليوم أن العصر الحاضر يعدل عن مبادئ
الحرية الفردية، وينظرون الى خطط التنظيم الاقتصادي وبرامج السنوات
الخمس أو العشر في الأمم أو الجامعات « الاممية » ، أو ينظرون على
الجملة الى مشروعات التأمين والتعميم فيحسبونها دليلا على التحول من
الايمان باستقلال الفرد الى الايمان بوجوب الحد من ذلك الاستقلال في
شؤون الاجتماع والاقتصاد ، والى الايمان من ثم بوجوب الحد من

استقلاله في الحقوق السياسية ..

وبعضهم يقول : ان الفردية مبدأ قديم قد حان الوقت لاعادة النظر فيه من الوجهة الفلسفية ، وآخر ما اطلعنا عليه في هذا الموضوع - مع الايجاز - بحث « لدافيد رسمان » بعنوان « الفردية معادا فيها النظر » يتوسط فيه بين الفردية المطلقة ، فلا ينكر حق الفرد ولا يرى أن عمل الجماعة التعاوني يلغيه أو يفتت عليه ، بل يرى أن الجماعة - حيث لا يستطيع الفرد أن يستقل بالعمل - هي الوسيلة الصالحة لصيانة استقلال الافراد ، وأن التنافس - ككل عمل انساني - قد يخرج عن حده فيرده اليه القانون ، ولا يفتت به على حق الفرد ما دام جميع الافراد سواء في حكم القانون ..

ولم نطلع على بحث من بحوث « اعادة النظر » في هذا الموضوع الا أحسنا منه أنه يقوم على أساس اخلاقي ، أو شعور يمزج بين الفردية والانانية أو بين الفردية والصراع على تنازع البقاء ..

وفي الحق ان هذا الشعور لم يبدأ اليوم ولم يكن ابتداءؤه بالامس في ميدان الاقتصاد دون غيره .. فقد كان الاعتراض على مذهب تنازع البقاء الذي أعلنه « داروين » أشد من الاعتراض على حرية التنافس الاقتصادي الذي أعلنه آدم سميث الملقب بأبي علم الاقتصاد ..

وكلا المذهبين لا يسلم من الخطأ الكثير ، الا ان الاستناد اليهما في مناقشة الحرية الفردية يوقع أصحابه في أخطاء أكبر من اخطاء المذهبين .. فما خطر لـ « آدم سميث » قط ان حرية التنافس تمنع الامم ان تلجأ الى تنظيم المعاملات في أحوال كأحوال الحروب أو ما يشابهه الحروب . وأولى من احوال الحروب بالتنظيم هذه الحالة العالمية التي تتوقف فيها معاملات الامم بعضها على بعض ، وتذهب فيها جهود الافراد عبثا ان لم تدبرها الامة كلها تديرا يوافق المطلوب من الامم الاخرى . أما مذهب « دارون » فان عنوان الكتاب الذي تضمنه وهو « اصل

الانواع « خليق ان يصحح الخطأ في هذا الموضوع ، لان تنافس الافراد او تنازع البقاء انما هو لمصلحة الانواع كما يفهم من عنوان الكتاب ، وقد فطن زعيم الفوضوية « كروبتكين » الى هذا المعنى فقال : « ان حرية الافراد هي السبيل الى تقدم الانواع وبقاء الصالح منها للبقاء » . على أنه لا مذهب « آدم سميث » ولا مذهب « داروين » كان أساسا للايمان باستقلال الشخصية الانسانية فيجوز - من ثم - أن يقوم استقلال الشخصية عليهما ، أو يزول بزوالهما ، أو يعرض له الشك حين يعرض لهما .

إن استقلال الشخصية الانسانية كان ثمرة النجاح لكل ثورة سياسية أو دينية قام بها الناس منذ عرفوا الثورة على الظلم ، أو عرفوا الثورة لتحطيم قيد من القيود . وقد اشتركت الطبقات العليا والطبقات الدنيا في هذه الثورات ، ولم تكن مقصورة على نظام واحد من نظم الانتاج أو الثورة الاقتصادية ، وكان نصيب الفرد من ابناء الطبقات المحرومة في تلك الثورات أعظم من نصيب الفرد من ابناء الطبقات العليا .. لأن هذه الطبقات العليا في غنى عن الثورة لتحقيق الحرية الشخصية .

وإذا كان محصل تاريخ النوع الانساني يتلخص في اتساع العلاقات العالمية ، فمحصل تاريخ الفرد أن يزداد استقلاله أو تزداد الدعوة اليه على الاقل فلا يجسر أحد على انكاره في صورة من الصور الا ليعود الى تقريره في صورة اخرى . وقد أصبح استقلال الفرد في زماننا حجة لكل نظام من نظم الحكم في مقام المفاضلة والتسابق الى الاصلاح .. بل أصبح مقياسا حقيقيا لكفاية المجتمع كله في الصراع بين المجتمعات ، فانقسم العالم في الحريين العالميتين الى معسكرين : أحدهما يضيق فيه نصيب الفرد من الحرية والاخر يتسع فيه هذا النصيب ، وكان المعسكر الاول أقدم استعدادا للحرب وأوفر عدة لها عند ابتداء القتال ، ولكنه انهزم ولم يصمد للفريق الاخر الذي بدأ استعداداه خلال أيام القتال .

ومن علامات الزمن أن الفرد يثبت وجوده أمام طغيان الجماعات كما
يثبتته أمام طغيان الآحاد ..

فالوجودية على تعدد مناهجها دعوة ذات دلالة ، ولا دلالة لها إلا أن
الفرد يثور على طغيان العدد ولا يرضيه أن يفرق سماته بين طوفان من
العدد المتكرر ليس له سمات ..

وليقل من شاء ما شاء عن دور الفرد العظيم في قيادة الحركات
الاجتماعية ..

ليقل : انه يخلق حين تخلقه الجماعة لقيادة حركة من حركاتها العامة،
فان الثابت أمامنا أن الحركة الاجتماعية تحتاج الى قيادة فرد عظيم ، وأما
ما عدا ذلك من الالغاز والتخمينات فهو معلق « بلو كان ولو لم يكن »
مما يجوز فيه قولان أو تجوز فيه عدة أقوال ..

وليس من فرق بين ظهور الفرد العظيم بالأسم الذي ظهر به وبين
ظهوره باسم آخر مختلف الهجاء .. الا أن يكون غرض التاريخ أن نروغ
من الوفاء له بحقه وأن تشمل الذرائع للمغالطة في حسابه .. وهو
غرض معقول ممن ينون التاريخ كله على حساب الأجور وحساب
الاثمان وفواضل الاثمان ..
ولكنه غير معقول من بني الانسان ..

الأوطان والأديان في موازينهم

يقول ماركس وانجلز في البيان المشترك : إن الشيوعيين يخالفون
هيات العمال الاخرى بما يأتي :
أولا : انهم في المعارك الوطنية التي يشترك فيها الصعاليك
- البروليتاريا - بين البلاد المختلفة يبرزون علانية وينبهون الى مصلحة
الصعاليك العامة جملة واحدة بعزل عن القوميات جميعا .
ثانيا : انهم خلال التطورات التي تمر بها حركات العمال ضد
البرجوازيين يمثلون على الدوام ، وفي كل مكان تلك الحركات في
مجوعها .

ويقولان - أيضا - في نفس البيان : « إن العمال لا وطن لهم ،
وإننا لا نستطيع ان نأخذ منهم ما ليس لهم » .
أما الدين فرأى الشيوعية فيه تلخصه الكلمة المشهورة التي وردت
في مقالة كارل ماركس عن « هيجل » : « إنه نفثة المخلوق المضطهد ،
وشعوره بالدنيا التي لا قلب لها .. انه أفيون الشعب » .. ومثلها كلمة
في حرب الطبقات بفرنسا اذ يقول : « انه الأفيون الذي يخدر الشعب
لتسهيل سرقته » . « وان الدين كان وسيلة الاخضاع الروحي كما كانت
الدولة وسيلة الاخضاع الاقتصادي » .

ويتفق الصاحبان على أن الدين « ينشأ قبل أن تنهج الوسائل التي يكسب بها الانسان معيشته ، وان الانسان يواجه الطبيعة مباشرة في تلك الحالة فتقف امامه الطبيعة قوة غالبة غامضة يعبد منها ما لا يدركه .. وما الدين الا انعكاس القوى الظاهرية التي تسيطر على معيشته اليومية » .

ذلك هو لباب الفكرة الماركسية عن الوطن والدين ولهم في كسل فكرة من هذا القبيل فتوى يلحقونها بها مؤداها أن العقيدة الوطنية أو الدينية لها تركيبة عليا من الشعائر والمراسم تعمل في الظاهر مستقلة عن وسائل الانتاج ، ولكنها مشتقة منها متوقعة عليها .

يقول العقاد في نظرة الماركسيين لقضية الأوطان والديانات: « ودينهم المفهوم في تعليل جميع العقائد الوطنية أو الدينية أنهم متى وصلوا الى وسائل الانتاج أخذوا كل حالة اقتصادية تصادفهم فجعلوها سببا للعقيدة التي تعاصرها ، وقلما يعنيه أن يذكروا ان النظم الاقتصادية متكررة مشتركة بين جميع الامم منذ عصر الرق الى عصر البرجوازية ثم الصناعة الكبرى ، فكيف يشترك النظام الواحد في تعليل الوطنية التي تعلم الناس الكفاح والانفة وتعليل الدين الذي يقولون انه يعلمهم الجبن والضعف والاستكانة ، وكيف تعلل بنظام الرق مثلا ديانة توصي باحراق الجسد وديانة توصي بتحنيطه وتخليده في الحياة الدنيا وفيما بعدها ؟ وكيف يسفر الرق في اسبرطه عن الجندية والقانون ويسفر في أثينا عن الحكمة والادب والفن الجميل ؟ .. »

وقبل الوطنية كيف نشأت العنصرية وهي تشبهها في نخوة النسب وصيانة الحوزة وقد تزيد عليها بوحدة اللغة ووحدة العرف والتراث ؟ هل هي أحبولة قديمة بليت في أيدي الطبيعة فنبذتها واخترعت الوطنية

تكون أجبولة جديدة تحل في محلها ؟ وهل استقام التاريخ على سنة
النصب والاحتيايل فليس فيه من النظم والعلاقات الا الشرك القديم ينبذه
ويحفر بعده موضعاً خفياً للشرك الجديد ؟» (١) •

إن عجز الخيال عند نبي الشيوعية هو تشبيهه للدين ذلك التشبيه
الذي لا يصدق على عقيدة من العقائد كما يصدق على العقيدة الشيوعية
ذاتها ، لأنها عقيدة تروج بين الذين يسقطون التبعة عن أنفسهم ويلقبون
أوزار الجرائم والردائل على المجتمع ، وتمهد الاعذار للسارق والجاني
والمنافق بما تتهم به المجتمعات من الرياء والظلم وسوء التصريف والتدبير ،
وتعطي كل من يشتهي التناول حجة للتناول على المحسودين أو للتناول
على ما يشاء من المقدسات •

ولقد كان من الخير للانسانية في هذا الزمن وجود العقيدة الاسلامية
التي تدحض آراء الشيوعيين في مسألة نشأة الدين ، وذلك لأن الاسلام
نظام اجتماعي كما هو معروف الى جانب انه عقائد وشعائر دينية •
ولذلك فهم في حرب ضروس معه ومع أصحابه ، فهذا الدين هو الذي
يدحض حجة الماركسيين الذين يزعمون أن الاديان خدر للشعوب يروضها
على الفقر والمسكنة ، ويلهيها بالآخرة عن نعيم الدنيا ليستأثر به سادة
المجتمع ويغتصبوا منه في العلانية أو يسرقوا منه في الخلسة ما طاب لهم
أن يغتصبوه أو يسرقوه •

فالاسلام لا يرضى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره بأن
يأخذ من طيباتها ، وفي ذلك تقول الآيات البينات :

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» •

« سورة القصص آية ٧٧ »

١ - الشيوعية والانسانية للعقاد ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ •

«ولا تحرموا طيبات ما أحل الله» .

«يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الأرض حلالا طيبا» .

«يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض» .

كذلك لم يطالب الاسلام المسلم بالتجرد من زينة الدنيا ليقبل على الآخرة ، بل هو مأمور بأن يأخذ نصيبه من الزينة وهو بين يدي الله ، وأن يعد زينة القوة من نعمه التي يشكره عليها . وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

«يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق» .

يقول العقاد : «.. وكأنا قضي على الفلسفة المادية : دعوة عالمية من طرف تقابلها من الطرف الآخر تبعة فردية يستقل بها الانسان فسي طويته كأنه وحده عالم قائم بنفسه ..

(كل نفس بما كسبت رهينة) .

(ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة أخرى) .

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) .

وأوجز ما يقال ان هذه التبعة تكليف لا يدين به ضمير يتعاطى بين الدين خدرا يذهله عما حوله وينسيه ما هو حقه وما هو واجب عليه... وحسب الاسلام عند الشيوعية انه يقيد هذا التقيد الصادع في جميع مقوماته ليستحق منها عداوة شديدة ، تخصه بها بين الاديان العالمية التي يتبعها ملايين الخلق في الزمن الحاضر .. إلا انها على هذا كانت

نفسه وسائر الأديان بعداوتها ، ولا تميزه بعداوة خاصة وهي في دور الدعوة وترويج النظريات .. وظلت كذلك حتى دخلت في دور التطبيق وحلت محل القيصرية الروسية في علاقاتها بالعالم الآسيوي داخل بلادها وعلى تخومها ، فاستجد لها من أسباب العداء له سبب أقوى لديها من كل سبب .. لأنها وجدت فيه نظاما اجتماعيا يتعرض لكل مشكلة من مشكلاتها ، ولم تجد مثل هذا النظام لملة من الملل التي تعاملها وتجتهد في نشر الدعاية بين أبنائها (١) .

وقد يدهش المسلم حينما نقول له أن هؤلاء الملاحدة قد أطلقوا دعاياتهم من مختلف المستويات ضد الإسلام فأصدروا كتيبات عديدة كملك الدراسات التي أنكروا فيها وجود الرسول عليه السلام وأصدروا بحوثا بعنوان «التأثير المؤدية المترتبة على الصيام في رمضان» . ولعل أكثر الكتابات السوفيتية شهرة في إنتاج هذه الأبحاث الإلحادية هو لوتسيانايوليتوفيتش كاسيموفتش الذي نشر عشرات الكتب والكتيبات والمقالات في موضوع مناهضة الدين الإسلامي منذ العشرينيات حتى يومنا هذا .



وقد بلغ الحقد بأحد هؤلاء الملاحدة المتجنين على الإسلام ونعني به م.أ. رايزنر أن يقول يوما : «ان الله هو تأليه للتاجر ولذلك فإن المأخذ الرئيسي على الإسلام هو انه لم يهتم إطلاقا بالطبقات الاجتماعية والعلاقات فيما بينها ، فلم يشأ ان يتدخل في النضال بين الرأسمال والعمال ولذلك فقد استنبط مذهباً هروياً جديداً ينبذ العالم المادي

١ - يراجع الشيوعية والانسانية للعقاد ، ص ٣٣٣ .

ويحاول التوفيق بين الفقراء والاغنياء ولكن في الملكوت الروحي» (١) .
وربما تدفع الشيوعية بأن قائل هذا الكلام رجل قد فارق الحياة
سنة ١٩٢٨ وتعتبر آرائه في العقائد والاديان آراء قديمة لا يؤخذ بها
الآن ولا يعتد بها حتى لدى الشيوعيين .
فترانا مضطرين الى الاتيان لهم بما قاله ن.أ. موروزوف سنة ١٩٤٦
من أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يوجد قطعاً وأن القرآن لم يؤلف
إلا في القرن الحادي عشر وتم ذلك بواسطة طائفة تنحدر من العرق
الآري وكانت عملياً متماثلة مع اليهود حتى الحروب الصليبية (٢) .
ومما لا يدع مجالاً للمناقشة في تجني الشيوعية على العقائد والأديان
ولاسيما الدين الاسلامي الخفيف ما قاله أحد الخارجين عليها الهاريين
من جحيم الماركسية بعد أن قدر له أن يكون ردحا من الزمن داعية من
دعاتها في البلاد العربية ونعني به الاستاذ فتحي شراب الذي يقول في
فصل من كتابه «أنا والشيوعية» بعنوان «نحن والدين»، قال: «وقد بلغ
تدجيلنا الشيوعي حداً بعيداً في الدين لدرجة اننا كنا نتظاهر بالصلاة
- وبلا وضوء أو خلفه بالطبع - وبالصوم أمام الآخرين ، حتى نحطم
الدعاية القائلة بأن الشيوعية تعادي الدين ... وبالفعل كنا في اجتماعاتنا
الخاصة - أي الشيوعية المغلقة - نستهزئ بالدين وبكل ما يتعلق به،
ونستصغر عقول كل من يؤمن بالخرافات الدينية ... وأما أمام الناس
فقد كنا نظهر تعلقنا بالكاذب بالدين ، لا بالقول بل بالعمل ... وذلك
كما قلت بالصلاة والصوم ومراعاة مختلف الطقوس الدينية وكنا اذا
وقفنا للصلاة لا نقرأ أو نسمع ، بل كنا نشتم ونستهزئ ونسخر» .

- ١ - الاتحاد السوفيتي في الشرق الاوسط، ولتر لاکور ، منشوران
المكتب التجاري - بيروت ، صفحة ٨١ .
- ٢ - المرجع السابق صفحة ٨٢ .

يقال أن السنة الخلق أقلام الحق •
ومن السنة الخلق هذه نقل ما كتبه الاقلام في مسألة عداء اليسار
للدين الاسلامي فقد قالت جريدة تاندزيكاستانه وهي صحيفة شيوعية
رسمية في عددها الصادر ٢٥ ابريل سنة ١٩٥٤ في مقال مسهب ضد ما
استه بالعناصر الرجعية المسلمة والظعن في معتقداتها :
«إن الشعائر الدينية الرجعية التي يقوم بها الاسلام من شأنها أن
تعوق التطور الاصلاحي القومي ، والشعور الوطني بين طبقات العمال
والمزارعين » •

وقالت عن شهر الصوم أي عن شهر رمضان وما ورد في القرآن
الكریم بشأنه ما يلي :
«إن قصص السيدات المسلمات ، اللائي ما زلن يحتفلن بهذا الشهر،
ما برحت قائمة تخدع العمال وتعوق تقدمهم في روسيا • وهن ما زلن
يؤمنن بخرافات هذا الشهر • فعلى هيئة العمال «الكومسومول»
والشباب وهيئات الاتحاد التجاري ومؤسسات التعليم الثقافي أن تقوي
من نشاطها لوضع حد لهذا بين الجماهير المسلمة» (١) •
إن محاربة الماركسية للعقيدة الدينية ولتعاليم الإسلام لمن الأمور
المسلم بها لدى كل مدقق حصيف لا تشغله الدعايات الزائفة التي يروجها
دعاة المذهب سواء داخل الاتحاد السوفييتي نفسه أو خارجه • ويكفي
أن يعلم القارئ أن تركستان يوجد بها حوالي ثلاثين مليوناً من
المسلمين • وعند موسم الحج لم يسمح إلا لواحد وعشرين مسلماً منهم
فقط لأداء الفريضة وأدوها فعلاً على مجموعتين على إحدى الطائرات

١ - تراجع مجلة الشؤون السوفييتية العدد الثامن ١٩٦٣ التي يصدرها
معهد دراسة الشؤون السوفييتية في ميونيخ مقال الدكتور احمد وفيق
«النظريات السوفييتية الخاصة بأصول الاسلام وطبيعته» ص ٥ وما بعدها.

السوفيتية الرسمية بعد أن اتخذت التدابير اللازمة لكتهم أفواههم عن الكلام والاباحة بما يجري في بلادهم .

وقد يدهش القارىء - عندما نقول له - ان الدعاية السوفيتية كانت يومذاك تتشدد بأنها سمحت لهذا العدد من المسلمين التركستان بتأدية فريضة الحج . وفي الوقت نفسه خرجت جريدة بيلوروسكايا السوفيتية بمقال حملت فيه على الاسلام بعنوان «لماذا يعتقد بعض الناس في وجود الله» . جاء فيه :

«... إن القيود الدينية تحد من معنوية الانسان ، وتفرض عليه نوعا من الاستكانة وعدم المقاومة للشر ، وان الاعتقاد بوجود الله ، كما هو في المعتقدات الاسلامية ، وكما هو في معتقدات الكنيسة وعند رجال الكهنوت ، تراث قديم من أثر الجهل ومحاولة السيطرة على نفوس العامة وفرض ذلك على الشباب ، وإن الكنيسة لتحاول أيضا أن تدعم في النفوس خرافاتها وتحد من معنوية المعقول . ولا مرء في أن الدين خرافة قديمة من أثر الرأسمالية القديمة وهذا ما حدا بالمجتمع السوفيتي أن يقضي عليه ويكافحه » (١) .

هذه هي بعض آراء الماركسية وأتباعها في الدين الاسلامي بسطانها للقارىء الصديق ليقف على تلك الدعايات الخطرة ضد الأوطان والأديان .

وان أناسا تنعدم الثقة لديهم بأنفسهم الى مثل هذا الحد ويؤمنون بمذهب هذه آراء دعااته وأئتمته في الاسلام لهم بحق جرائم خطيرة يحق لكل مواطن صالح يؤمن بعقيدته وعروبتة أن يسحقها ويحذر منها قدر المستطاع .

وقد اخص الرئيس القائد جعفر نميري رأي ثورة الخامس والعشرين
من مايو في أعداء الثورة من اليمين الرجعي أو اليسار «التقدمي» في
كلمات رأينا أن نختم بها هذا الفصل عن موقف اليساريين من العقائد
والأوطان :
«فالسّم الذي تفرزه العناصر العميلة في وريقات صفراء لا يختلف
عن السّم الذي يتلون باللون الأحمر» (١) •

١ - خطاب السيد الرئيس القائد جعفر محمد نميري في يوم الوحدة
الوطنية في ١٠-٤-١٩٧١ •

مقدمات .. ومقدمات

يعتبر يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ يوماً مشهوداً في تاريخ مصر والسودان وعلاقتيهما بانجلترا ، لأنه كان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كفاح الشعبين العريقين في سبيل تحقيق الأهداف القومية . في ذلك اليوم أعلنت حكومة الوفد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتي ١٩ يناير و ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الكفاح المسلح في منطقة القناة يأخذ اتجاها شعبيا واضحا ، وتشكلت القوات الفدائية التي أخذت تهاجم معسكرات ومخازن قوات الاحتلال وانسحب ما يقرب من ثمانين ألفاً من العمال المصريين الذين كانوا يعملون في معسكرات البريطانيين مضحين بأجورهم العالية من أجل الأمان القومي .

وكان لا بد أن تمتد هذه الموجة الثورية فيكون لها تأثيرها على كافة الدول العربية من ناحية تأييدها لنضال الشعب المصري مما أصاب الاستعمار بذعر وهلع شديد .

خلال تلك الايام أصدرت حكومة الوفد دستوراً ونظاماً للحكم في السودان .. فتألفت جمعية تأسيسية تمثل الشعب السوداني لتعد دستوراً له وقانوناً تجري بمقتضاه الانتخابات فيه .

لقد كان إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ بمثابة تحول في النضال الشعبي

بالشرق الأوسط كله ، اذ عبر عن تغيير في موازين القوى لصالح الشعوب وتحول الدفاع ضد مؤامرات الاستعمار الى هجوم مباشر ومسلح ضد قواته المسلحة المرابطة في منطقة القنال .

وكان نتيجة لذلك النضال ظهور قيادات عمالية ديمقراطية متنوعة وتكونت لأول مرة اللجنة التحضيرية لاتحاد النقابات المصري كعماد هام للمجبهة الداخلية ، وقوة أساسية لتعبئة البناء الديمقراطي الشعبي .

أما في السودان فقد اتخذ هذا المد الثوري شكلا مختلفا عنه ففي مصر رغم أن الموقف في جوهره لا يختلف من حيث النضال المشترك ضد الإستعمار البريطاني ، فلم يصل فيه الى درجة الكفاح المسلح كما حدث في منطقة القنال وان كانت الجماهير في السودان خلال تلك الأحداث معبأة بتعبئة نفسية ، وكانت الحركة السودانية للتحرر الوطني تبذل غايتها في دعم الحركة الماركسية في مدنه وأقاليمه المختلفة . يقول الاستاذ احمد حمروش : «خلال هذه الفترة عقد المؤتمر الأول لاتحاد النقابات الذي اعتبر في ذاته عملا هجومياً من أجل توحيد الطبقة العاملة .. وكذلك قرر المؤتمر رفض السودان لكافة المشروعات الحرية الاستعمارية ، كما قرر الارتباط بالاتحاد العالمي للنقابات ، وبدأت بعض الاضرابات من أجل تعديل القوانين العمالية» (١) .

وسط تيارات الكفاح هذه في كل من مصر والسودان شب حريق القاهرة المشهور الذي كان من نتائجه إقالة وزارة النحاس وتعيين احمد نجيب الهلالي خلفا له . وفي فترة توليه الوزارة طبقت الاحكام العرفية على البلاد بشدة . وقد ترك حريق القاهرة في نفوس جماهير الشعب السوداني خوفاً عميقاً وغضباً عاصفاً لأنه شعر أن خناجر الخيانة قد

١ - مصر والسودان كفاح مشترك للاستاذ احمد حمروش كتاب الهلال صفحة ٦٩ .

طلعت شقيقته الشعب المصري في ظهره .
خلال تلك الأيام دعا نجيب الهلالي المهدي للحضور الى مصر فأرسل
خسة مندوبين قاموا بحداثات سرية ، ثم جدد حسين سري الذي تولى
الحكم بعد الهلالي توجيه الدعوة الشخصية الى المهدي . إلا أن أنصار
المهدي أخذوا يشيرون أن مصر قد خانتهم ، والتقى ذلك مع تصريحات
الصحف البريطانية بعد سفر وفد المهدي الى مصر بأن الختمية سوف
يجدون عوناً من الانجليز اذا اعتدت مصر على حقوقهم .
لقد كان إلتقاء القادة الاقطاعيين في السودان من طائفة المهدي مع
حكومات إنقلاب حريق القاهرة تعبيراً عن الاتجاه المعادي للتقدم الذي
بدأ الاستعمار البريطاني يدفعه في مصر والسودان (١) .
ولقد كانت الشهور التي اعقبت حريق ٢٦ يناير شهوراً مظلمة كظلام
تلك المباني التي كللها السواد بالقاهرة بعد أن اخمدت نيران الحريق
بها

كانت أشبه بشهور المخاض الذي تعقبه الولادات . . . كانت لياليها
جبالى مثقلات . . ورغم ذلك كله كان الاستعمار يعتقد ان الفرصة قد
واتته ليحقق ثمار انقلابه الذي دبره بمعاونة السراي في مصر .
ولكن قبل أن تنقضي ستة شهور على ذلك الحريق كان الضباط
الاحرار وطلّاع الجيش المصري قد تحركوا ليلة ٢٣ يوليو معبرين عن
إرادة الشعب في تقويض الحكم الملكي الفاسد .
وكانت تلك الأحداث من الصفحات الجديدة في الحياة السياسية
بالنسبة لمصر والسودان .
ومنذ اللحظة الأولى في الثورة ورغم المشاكل الداخلية التي كان

١ - المرجع السابق صفحة ٧٤ .

على الثوار مواجهتها بمصر فإن مشكلة السودان كانت من الامور التي فرضت نفسها على الثوار .
كانت بريطانيا تستخدم كل مهارتها السياسية من أجل استمرار سيطرتها على السودان بإثارة مسألتين كان يرفضهما حكام مصر السابقون ونعني بهما :

١ - فصل المسألة السودانية عن المسألة المصرية .

٢ - حق السودانين في تقرير مصيرهم بأنفسهم .
الا إن رجال الثورة قد جابهوا الموقف في شجاعه فأرسلوا في نوفمبر سنة ١٩٥٢ مذكرتهم التي اقترحوا فيها :

أ - تمكين السودانين من ممارسة الحكم الذاتي الكامل .

ب - تهيئة الجو الحر المحايد الذي لا بد من توافره لتقرير المصير .
وكان هذا الموقف من حكومة الثورة المصرية مفاجئا للحكومة البريطانية فلم تملك ازاءه سوى الموافقة وان كانت قد لجأت فسي بادیء الأمر الى المراوغة بدعوى ضرورة حماية الجنوبيين من الشماليين .
وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ بدأت المباحثات بين الجانبين انتهت في ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، كان الجانب المصري يمثلها فيها اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء في ذلك الوقت والصاغ صلاح سالم والدكتور محمود فوزي وقائد الجناح حسين ذو الفقار صبري والدكتور حامد سلطان والاستاذ علي زين العابدين حسن . أما الجانب البريطاني فكان يمثلها فيها سير رالف ستيفنسون ومستر باورز .

ولم يكن أمام الثورة المصرية من سبيل سوى وضع الامر بين أيدي ممثلي الأحزاب السودانية .. الامة والوطن الاتحادي والجمهوري الاشتراكي الذين أقروا معظم فقرات المذكرة المصرية في ١٠ يناير سنة ١٩٥٣ والتي انتهت الى نصوص الاتفاقية .
إنتهى الأمر الى اتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية بشأن

الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان على أن تسبقه فترة إنتقال مدتها ثلاث سنوات كتمهيد لإنهاء الادارة الثنائية وتصفيتهما ويحتفظ خلالها بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير المصير .

وتم الاتفاق على أن يكون الحاكم العام هو السلطة الدستورية العليا داخل السودان ويمارس سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتي وتعاونيه لجنة خماسية عرفت بلجنة الحاكم العام يكون تشليلها دلاني : إثنين من السودانيين وعضو من مصر وآخر من بريطانيا وثالث من باكستان . وكان العضوان السودانيان هما الدرديري عثمان و ابراهيم احمد وكان العضو المصري هو حسين ذو الفقار صبري . والبريطاني هو جرافتي سيث . والباكستاني سيان ضياء الدين .

وشكلت كذلك لجنة للانتخابات من ثلاثة سودانيين عينهم الحاكم العام ، وعضو مصري هو عبد الفتاح حسن وعضو بريطاني وعضو هندي .

كذلك شكلت لجنة السودة التي كانت مهمتها سودة الإدارة باحلال السودانيين محل البريطانيين والمصريين في الوظائف التي ترى ضرورة احلالهم بها وأهمها البوليس والادارة وقوة الدفاع . كذلك نصت الاتفاقية على أن تضع الحكومة السودانية مشروعا بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية كما نصت على سحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور صدور قرار البرلمان السوداني برغبته في الشروع في اتخاذ التدابير لتقرير المصير ، على أن يتم ذلك في فترة لا تتعدى ثلاثة شهور .

لقد كان لتلك الخطوات أثر واضح في النضال الوطني في السودان حيث امكن توحيد الصف الوطني في الجبهة المتحدة لتحرير السودان فلم يكن سهلا على المستعمرين أن يظلوا في السودان لأن معنى ذلك تزايد حركة الجماهير وتكاتف القوى مما قد يعرض حياتهم للخطر من

جراء حماس الحركات الوطنية والقيادات الثورية .
ورغم اتفاقية فبراير ١٩٥٣ وقبول البريطانيين لها مرغمين ... فإن
الحزب الشيوعي السوداني كان الوحيد الذي انتقد بعض ما ورد في
هذه الاتفاقية بحجة أنها لا تحقق الرغبة الجماهيرية الملحة في وجوب
الجلء الكامل للاستعمار قبل إجراء أي انتخابات في السودان ...
إلا أن فقرة قد وردت في كتاب «لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي
السوداني» أعادت تقييم هذا الموقف عندما ذكرت أن الحزب في تقديره
للاتفاقية خطأ لأنه نظر إليها من زاوية واحدة . نظر إلى مزالقها التي
يستغلها المستعمرون وإلى كونها مناورة لهم ليخلقوا وضعاً شرعياً
في البلاد لاستمرار نفوذهم ولم ينظر إليها باعتبارها نتاجاً من نتاج
الكفاح الشعبي كان في الامكان أن يثمر أوفر منها لو تقيدت أحزاب
الطبقة الوسطى بحلفها في الجبهة المتحدة لتحرير السودان . ولكن هذا
لا يمنع أن المستعمر قد رضخ تحت ضغط الحركة الجماهيرية فسي
السودان واضطر للتراجع - وإن الاتفاقية تراجع من جانبه ، إذ يمكن
استغلالها لصالح الشعب السوداني» (١) .

ويقول الدكتور ابراهيم احمد العدوي في كتابه «يقظة السودان»
عن هذه الاتفاقية «انها جاءت ثمرة الكفاح المشترك بين الشعبين المصري
والسوداني ، وأن التعاون بين هذين الشعبين هو السلاح الوحيد الذي
يحمي هذه الاتفاقية ونصوصها» (٢) .
كذلك عبر الشاعر محمود أنيس عن هذه المعاني في قصيدته التي

١ - يراجع كتاب مصر والسودان كفاح مشترك لأحمد حمروش كتاب
الهلل صفحة ٨٠ .

٢ - يقظة السودان للدكتور ابراهيم احمد العدوي منشورات مكتبة
الانجلو المصرية ص ١٠٩ .

نشرت مجلة «أم درمان» بتاريخ ٦ مارس سنة ١٩٥٥ بمناسبة عيد
الاتفاقية حيث قال :

أنا على العهد يا مصر الشقيقة لا يضيرك اللغو أو يشيك مفقود
لولا اتفاقك كنا اليوم في عنت من الدخيل وان الفضل مردود
لولاك يا مصر ما راعوا لنا خطرا ولا استبان لنا حكم وتسييد

أجريت أول انتخابات في ظل اتفاقية السودان الجديدة وفاز حزب
الوطن الاتحادي بأغلبية ساحقة واجتمع البرلمان السوداني الأول في أول
يناير سنة ١٩٥٤ وانتخب اسماعيل الازهري أول رئيس لمجلس الوزراء
الذي بلغ عدد أعضاء وزارته اثني عشر وزيرا كان من بينهم ثلاثة من
جنوب السودان .

وبدأ الشعب السوداني يجني الثمرة الثانية للاتفاقية وهي السودة
واستطاعت اللجنة التي شكلت لذلك أن تقدم تقريرها بأنها قامت بسودة
١٠٩٦ وظيفة كان يشغلها البريطانيون ونحو ١٥٣ وظيفة كان يشغلها
مصريون .

إن النتائج التي وصلت إليها لجنة السودة لتعتبر أعظم حدث في
تاريخ السودان ومن أشد اللطمات التي وجهت للاستعمار البريطاني في
العصر الحديث .

ولكن عقب تولي الازهري رئاسة الوزارة الأولى في السودان تبين
انه كان ينادي بما لا يؤمن به . اذ انه في نهاية ١٩٥٤ ألف لجنة من
أعضاء الحزب الاتحادي الوطني بحجة دراسة شكل الحكم المنتظر
فقررت التخلي عن مسألة الاتحاد مع مصر ووافقت الهيئة العامة للحزب
على ذلك .

واستطاع الاستعمار البريطاني أن يرسم سياسته على التركيز على الجواد الرابع وفي سرعة شديدة بدأت للأسف سياسة الأزهري تتغير وتتضح لكل ذي عينين فأخذ يتغاضى عن النضال الشعبي المشترك ضد الاستعمار البريطاني ويعلن أن تسمية الحزب بالاتحادي إنما تعني «اتحاد قبائل السودان» •

وقد أدت بعض خطوات الأزهري الى حدوث تناقض في صفوف الختمية الامر الذي أدى الى خروج عدد من أنصار الميرغني وكونوا حزبا جديدا هو الذي عرف بحزب الشعب الديمقراطي في يوليو ١٩٥٦ بعد الاستقلال •

وفي نوفمبر سنة ١٩٥٥ تم الجلاء عن السودان ووجدت حكومة السودان ان الامر لا يحتاج الى استفتاء بشأن شكل الحكم فأعلنت الجمهورية السودانية لأول مرة في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٥ • وفي اول يناير سنة ١٩٥٦ أعلن استقلال السودان رسميا دون استفتاء او تقرير للمصير وشكل أول مجلس سيادة سوداني لرئاسة الدولة.

وكانت السودان بذلك أول دولة عربية افريقية تنال استقلالها في القرن التاسع عشر بعد ثورة المهدي وأول دولة عربية افريقية تجلو عنها قوات الاحتلال •

وكان شهر يناير ١٩٥٦ شهر الأفراح للأمة السودانية حيث أعلنت فيه على العالم الجمهورية السودانية • وقد شاركت جاراتها العربيات في فرحتها لاسيما مصر التي حفلت صحفها المختلفة بمقالات التهئة والارتياح لذلك الخبر السار ...

فكتبت صحيفة الجمهورية القاهرية مقالها الافتتاحي بعنوان « الى أهلي .. في السودان » وكان المقال بقلم السيد أنور السادات رئيس تحريرها آنذاك جاء فيه :

« يا خالي وولد الخال .. أهنيكم من صميم قلبي .. وأدعوكم لكي

فحقق حياة جديدة على ضفاف النيل ، ينعم فيها الناس كافة بالأمن
وبالفرص الكريمة نحو مستقبل أشرف وأحسن ... وأخيرا أدعوكم لكي
تقف مع الشقيقات العربية في وجه وصاية الرجل الأبيض .. واستعمار
الرجل الأبيض .. واستغلال الرجل الأبيض» (١) .

الا أن هناك حقيقة واضحة يلمسها كل متتبع لحركات النضال
السوداني منذ بدايتها حتى إعلان الاستقلال . فقد غلب على تلك
الفترة عدم الاستقرار السياسي . ففيها قد تمت ثلاث محاولات لتغيير
أنظمة الحكم التي كانت قائمة هناك . أولاها إنهاء حكم الأحزاب
التقليدية في نوفمبر ١٩٥٨ ولم يكن قد مر ثلاثة أعوام على إعلان
الاستقلال وذلك في أعقاب تسلم كبار قادة الجيش لمقاليد السلطة .
وثانيها الإطاحة بحكم هؤلاء العساكر - كما كانوا يلقبونهم في عهد
عبود - على اثر ثورة شعبية في أكتوبر ١٩٦٤ .

وهناك من الأسباب ما يدعونا الى أن نعتقد أن تلك السنوات
الأخيرة بين ثورة أكتوبر ١٩٦٤ وثورة مايو ١٩٦٩ بطبيعة ما جرى
خلالها تشكل حقبة فريدة في تاريخ السودان المعاصر تستحق من
الدارسين الدراسة والتحليل .

يقول الاستاذ أحمد حمروش عن ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ان «الشرارة
الاولى للثورة كانت هي الطلقة التي استقرت في قلب الشهيد احمد
قرمسي .. الذي حمله زملاؤه الى مبنى الجامعة وناموا حول جثته
لحراستها . وفي اليوم التالي حمل الجثمان أساتذة الجامعة وهم يلبسون
الأرواب واجتمع أكبر حشد للجماهير في تاريخ السودان واحاطت
الجماهير بعربات الجيش المصفحة والدبابات وانطلقت الهتافات تدوي في

أرجاء القضاء تطلب سقوط الحكم القائم» (١) .

ورغم أن الحكم العسكري قبل المعونة الأمريكية بجميع شروطها إلا أن الحزب الشيوعي كان من المؤيدين له تأييدا كاملا . وعندما اتصل الحكم العسكري أيضا بالدول الاشتراكية وزار عبود يوغوسلافيا والصين الشعبية وروسيا ثم مصر والتقى بالرئيس ناصر ودارت بينهما محادثات اعقبتها تصريحات رسمية تؤكد اتجاه الحكم العسكري نحو الطريق المتحرر هب حزب الامة والاخوان المسلمون والحزب الوطني الاتحادي والحزب الشيوعي يعارضون ويطالبون الجيش بالرجوع الى الشكنات .

والمتبع للسياسة في السودان يمكنه أن يجد المبررات لغضب حزب الامة من الحكم العسكري الامر الذي جعله يطالبه بالتخلي عن الحكم والرجوع الى الشكنات أما المحير فعلا فهو موقف الحزب الشيوعي الذي انضم لحزب الامة في معارضة الحكم العسكري الذي أيده في البداية عندما كانت أصابع الاتهام تشير الى تعاونه - أي الحكم العسكري - مع الاستعمار واليمين .

وربما تذهب حيرة المختار حينما نقول له من متابعة مواقف الحزب الشيوعي أن دعااته في السودان لم يعرف لهم السلوك في خط سياسي واحد . فهم تارة يميلون الى اليمين وتارة أخرى يميلون الى اليسار . وقد عرف عنهم انهم تعاونوا مع حزب الامة ومع الاخوان المسلمين حينما اقاموا جبهة واحدة لمحاربة عبود . ونسوا انهم كانوا من المؤيدين له في إبان قيامه .

إن تضامن الحزب الشيوعي مع حزب الامة في تلك الفترة من تاريخ

١ - مصر والسودان كفاح مشترك للاستاذ احمد حمروش كتاب الهلال
صفحة ٩٤ .

السودان لمن الأمور التي يصعب على المؤرخ أن يجد المبرر لها لانه موقف الذي يجمع بين النقيضين - لو جاز لنا هذا التعبير - . وربما يلجأ الشيوعيون في تبرير موقفهم هذا الى النظرية الماركسية التي تعتمد على جدلية «هيجل» فيزعمون ان هذا التضامن هو الفكرة السليمة التي تحمل بين طياتها العنصر المضاد لتهيئة الجو للصراع الذي يعتبره الماركسيون اساس التقدم في النظرية الشيوعية . وحتى هذا التبرير لا يحمل في ذاته إلا أنهم أصحاب مصالح شخصية بغض النظر عن مصلحة الوطن والمواطنين .

يقول الاستاذ علي عبد الرحمن : «إن الكسب الحزبي يقدم على المكاسب الوطنية بل عند تعارض المصالح الحزبية مع المصالح الوطنية لا يتردد الحزب الشيوعي السوداني من التمسك بالمصلحة الحزبية والتضحية بالمصلحة الوطنية» (١) .

ولنضرب لذلك مثلاً أن الانسان قد يفهم أن تحريض الحزب الشيوعي السوداني للعمال ليضربوا عن العمل لتحقيق مطالبهم كان في عهد الاستعمار ذا طابعين : طابع جاد وهو تدارك مظلمة حاقت بالعمال أو اصلاح خطأ أصابهم فهم يحرضون العمال لاجبار الاستعمار على تدارك المظلمة أو اصلاح ذلك الخطأ . . وطابع سياسي في ثوب المطالب وانما الغرض الرئيسي منه اصابة الحكومة بالشلل والارتباك وارهاق ميزانيتها أو الظهور أمام العمال بمظهر الحريص على نيل حقوقهم من الحكومة الاستعمارية - فلما نالت البلاد إستقلالها كان الواجب الوطني يقضي عليهم بتغيير هذا المسلك فلا يحرضون العمال الا اذا حدثت مظالم فعلية ويسوا من إستخدام كل الطرق لاقتناع الحكومة الوطنية لرد هذه

١ - الديمقراطية والاشتراكية في السودان للاستاذ علي عبد الرحمن منشورات المكتبة المصرية بيروت طبعة أولى صفحة ١٢٨ .

المظالم • ولكنهم لم يفعلوا حتى مثل هذا الموقف فقد ظلوا يسرون على نفس المنهج الذي سلكوه أيام الحكم الاستعماري غير عابئين بما يصيب البلاد من ضرر في الميزانية أو اضطراب في المرافق وعدم الاستقرار في اقتصادياتها على الأقل •

وحينما وضعت الحكومة السابقة لقيام ثورة مايو كادر العمال الذي تقرر فيه منح العمال علاوات كبيرة أقام الحزب الشيوعي الدنيا وأقعد الكادر بأنه ظلم العمال ، وسير المظاهرات الصاخبة من جماهير العمال يطالبون بزيادة تلك العلاوات •

وحتى حينما قامت ثورة مايو التي أعادت للسودان عزته وحرته كان صوت الحزب الشيوعي السوداني هو الصوت الوحيد الذي ارتفع واصفاً حكومة ثورة مايو بأنها أرهقت ميزانية البلاد بذلك الكادر (١) • والمتبع لمواقف الحزب الشيوعي السوداني يجد أنه كان من المعارضين إبان الحكم الثنائي لفكرة الاتجاه العربي • وحسبنا ذلك الخلاف الذي نشب بين قادته حينما برزت إتجاهات الرئيس ناصر لأول وهلة وكانت محل نقاش في لجنة الحزب القيادية فالفرق الذي يؤمن بالاشتراكية ويؤمن بالاتجاهات العربية رأى مناصرة سياسة الرئيس ناصر وقاوموها فاحتدم الخلاف مما أدى الى انفصال الاشتراكيين عن الحزب الشيوعي وتكوينهم ما عرف «بالجمعية الوطنية» (٢) •

لقد كانت سنة ١٩٦٤ وبالذات الربع الأخير منها نقطة تحول خطيرة في تاريخ السودان وتاريخ الحزب الشيوعي فيه •• ففي ٢١ أكتوبر

١ - المرجع السابق صفحة ١٢٨ •

٢ - المرجع السابق صفحة ١٣٠ •

١٩٦٤ قامت الثورة الشعبية التي يعتبر بعض المؤرخين لأحداث تلك الفترة من تاريخ السودان إنها كانت علامة مضيئة في حياة الشعب السوداني . ففي ذلك اليوم أثبت الشعب وجوده ونفى عن نفسه ما كان يشاع عنه أنه مرتاح لتلك الفضائح التي كانت تجري في دواوين الحكم العسكري . وعقب نجاح ثورة أكتوبر شكّلت الحكومة الثورية الشعبية الأولى برئاسة محمد أحمد محجوب الذي أعطى الحزب الشيوعي السوداني مقعداً في وزارته شغله المحامي أحمد سليمان الذي تولى وزارة الزراعة وكان لحلفاء الشيوعيين أيضاً في وزارة محجوب مقعدان أحدهما شغله عابدين اسماعيل الذي كان آنذاك نقيباً للمحاميين وآخر شغله الأمين محمد الأمين الذي كان آنذاك نقيباً للمزارعين .

ورب سائل يسأل : لماذا لم يكن المختار هو عبد الخالق محجوب الأمين العام للحزب بدلاً من أحمد سليمان الذي كان مجرد عضو بالمكتب السياسي للحزب ؟!

تجيب على ذلك التساؤل نفسية الماركسي المعروفة وهي أن عبد الخالق محجوب آثر الابتعاد عن المنصب الوزاري لا زاهداً فيه وإنما حرصاً على الحزب وبقائه . وكانت وجهة نظره التي عبر عنها أن شهر العسل الذي تعيشه الأحزاب سينتهي لا محالة وسوف تتكتل الأحزاب ذات الطابع اليميني في وجه الحزب الشيوعي الذي يرأسه . وأنه ليس من مصلحة الحزب أن يحترق أمينه العام .

ولقد كان رضا تحالف الأحزاب بمشاركة الحزب الشيوعي فسي الحكومة الأولى رضاءً لا يمكن وصفه بأنه رضا تام . وهذا ما حدث بالفعل . فقد فكّ هذا الارتباط بل أعلن حل الحزب الشيوعي السوداني وطالب بإلغاء عضوية النواب الشيوعيين في الجمعية التأسيسية . وذلك بعد أن وقف أحد طلاب المعاهد بأم درمان وهو من المنتسبين للحزب الشيوعي وخطب متهجماً على الدين الإسلامي الحنيف . وكان ذلك في

١٥ نوفمبر سنة ١٩٦٥ .

وقد رفع الحزب الشيوعي قرار إلغاء عضوية النواب المنتخبين إلى
إلى المحكمة العليا التي أصدرت حكمها برئاسة بأكبر عوض الله رئيس
القضاة آنذاك بعدم شرعية حل الحزب الشيوعي وطرده أعضاءه من
الجمعية التأسيسية .

وقد رفض وزير الداخلية ورفضت الجمعية التأسيسية الاستجابة إلى
قرار المحكمة مما أدى إلى إستقالة بأكبر عوض الله من منصبه في مايو
١٩٦٧ احتجاجاً على ذلك .

نضيف إلى ذلك أن تناقضا جديداً بدأ يطفو على السطح في تلك
الفترة وداخل صفوف حزب الأمة . وكان ذلك بين الهادي المهدي ورئيس
الوزراء الصادق المهدي ويرجح بعض المؤرخين أن الخلاف بينهما كان
مرجعه إلى خلافات شخصية حول الموقف من الإمامة والخضوع لها .
ولم تكن تلك التناقضات أو الصراعات هي الوحيدة التي طفت على
سطح الأحداث آنذاك . فقد شهدت الحياة السياسية في السودان في
تلك الفترة صراعا على منصب رئيس الجمهورية بين اسماعيل الأزهرى
الذي كان يتولى هذا المنصب بصفته رئيسا لمجلس السيادة وبين الهادي
المهدي الذي كان يتطلع إلى المنصب أيضا .

أدت هذه الصراعات المختلفة إلى انحرافات إدارية وشخصية تسبب
عنها هبوط في الاقتصاد الوطني للسودان . وتكررت بعض أخطاء رجال
الحكم العسكري السابق وبدأ عدد من النواب البحث عن المنافع
الشخصية فبدأت الرشوة تطل برأسها وبدأ الفساد ينتشر وكان نتيجة
لذلك أن حقق بعضهم ثروات تحت شعار «سودنة التوكيلات التجارية» .
وبنظرة يسيرة إلى أرقام المصروفات العامة في تلك الفترة يمكننا
أن نقف على مدى الإنحدار الذي أصاب المجتمع السوداني ، فقد قفزت
المصروفات العامة من ٥٨٠٥ مليون جنيه في السنة السابقة على ثورة

اكتوبر الى ١٠٧ مليون جنيه أي بزيادة ٤٨٠٥ مليون جنيه • بينما لم
تزد إيرادات الميزانية بعد فرض سلسلة من الضرائب المباشرة وغير
المباشرة الا بمقدار ٣٧٠٥ مليون جنيه •
وبلغ العجز المقدر لمجالس المديرية والمجالس المحلية حوالي ٥ مليون
جنيه • هذا الى جانب أن مديونية القطاع العام للمصارف قد ارتفعت
من ٣٠٩ مليون جنيه عام ١٩٦٥ الى ٤٦ مليون جنيه عام ١٩٦٩ •
باختصار لقد واجهت الميزانية عجزاً عاماً سنوياً مقداره يتراوح بين
٦ الى ٩ مليون جنيه كل عام • وكان نتيجة لذلك انخفاض الأرصدة
الأجنبية انخفاضاً كبيراً متصلاً فتدهورت العملات القابلة للتحويل من
٦١ مليون جنيه عام ١٩٦١ الى ١٦٠٣ مليون جنيه عام ١٩٦٩ •
ولم تعكس هذه السياسة وفراً في السلع الاستهلاكية ، ذلك لأنه لم
تكن هناك مراعاة لأسبقية إستعمال العملات الأجنبية •• كانت الرخص
التجارية توزع بلا حساب لاستيراد السلع التي لا تتصل باحتياجات
الشعب ولا باحتياجات عمليات الإنتاج ولا بالمواد الخام اللازمة للصناعة
المحلية •

بلغت تراخيص الاستيراد من اليابان وحدها ٧ مليون جنيه ليس فيها
شيء واحد يخدم الاقتصاد (١) •
وحسبنا هنا أن نورد فقرة من تقرير وزير الخزانة الذي قدمه بعد
ثورة مايو بتاريخ ١٧ يونيو لنقف على صورة الموقف الاقتصادي في
تلك الفترة •
تقول الفقرة : «إن من أسباب هذه الازمة - فترة الحكومات
الحزبية - المعالم الآتية :

١ - مصر والسودان كفاح مشترك للاستاذ احمد حمروش كتاب الهلال
صفحة ١٥٠ - ١٥١ •

١ - إتهاج سياسة أدت الى تبديد الأموال العامة بسبب الاهداء والاسراف والتبذير كتعدد رحلات الوزراء الى الخارج بدون مبرر واعتمادات ما يسمى بمال الوزير والرشاوي السياسية والعلاج فسي الخارج الذي تحول الى سياحة على حساب الدولة والحفلات الاكرامية والمعاشات الاستثنائية ، واعفاءات الديون القائمة .

٢ - المبالغة في العلاوات والبدلات والامتيازات والحوافز .

٣ - عدم التقيد باللوائح والقوانين المالية وتخطي جهات الاختصاص .

٤ - السباق المحموم بين الوزارات لتمثيلنا في الخارج والمبالغة في عدد موظفي السفارات وامتيازاتهم .

وقد أنهى السيد وزير الخزانة تقريره يومذاك بقوله :

«هذه قائمة عاجلة لبعض مظاهر الفساد الاقتصادي ، ولكن الفساد الأكبر هو فشل النظام الحزبي البائد في تطبيق اصلاح الاقتصادي والمالي والاداري ، فلجأ أولاً الى اسلوب الرشوة السياسية للفئات والطبقات بدون دراسة متأنية ، ودون تخطيط ، واضطر بعد ذلك الى فرض الضرائب المتعددة المباشرة وغير المباشرة حتى اثقلت كاهل الشعب والى استخدام بعض القروض النقدية بطريقة أرهقت كاهل الميزانية العامة ، ثم خضع بعد ذلك لإرادة النواب وتسابقهم على مطالبة الحكومة بمطالب عاجلة تخص دوائهم وأشخاصهم فكانت مقترحات الصرف على غير أساس» (١) .

لقد كان السودان نتيجة لتلك السياسة على شفا هاوية الافلاس وكان سخط الجماهير قد وصل غايته من جراء ارتفاع الاسعار .

يقول الدكتور يونان ليب رزق في مقال له عن «الثورة والصراع

١ - المرجع السابق صفحة ١٥٢ .

الحزبي في السودان» :

«.. اذا انتقلنا للفترة الزمنية الثانية وهي الفترة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٩ نجد في النهاية أن الصراع ظل أيضا صراعا بين الريف والمدينة وان اختلف الشكل تبعا لاختلاف القوى المسيطرة على المدينة ، فثمانى سنوات طوال بين عامي ٥٦ - ١٩٦٤ كانت لا بد أن تحدث مثل هذا الاختلاف .

فبالنسبة لقطاع المثقفين أصبح أكبر حجما واكثر تأثيراً ، وقد نتج هذا بالطبع عن التوسع الكبير في كافة مراحل التعليم وبالذات التعليم العالي ، فكلية غردون التي تحولت الى جامعة الخرطوم أخذت في قبول أعداد متزايدة من الشباب السوداني ، في نفس الوقت الذي أخذ فيه فرع جامعة القاهرة بالعاصمة السودانية والذي تم افتتاحه عام ١٩٥٥ يقبل بدوره أعداداً كبيرة أخرى ، يضاف الى كل ذلك جموع الطلاب الذين أرسلوا في بعثات الى الخارج والذين كونوا مجتمعين في النهاية قطاعا اجتماعيا من أقوى قطاعات المدينة كان لا بد أن يتخذ موقفاً سياسياً معيناً .

ويقول مراسل «السكوتسمان» في الخرطوم أن جموع هؤلاء الطلاب تميزت بالإيجابية السياسية واتصفت بالراديكالية المتطرفة التي رفضت قبول الأوضاع المتخلفة القائمة في البلاد «لم تسر هذه الحركة السياسية على نفس المحاور القديمة ، بمعنى أن هذه القطاعات الجديدة من المثقفين رفضت أن تسير على نفس خطى المثقفين القدامى بمساندة «الوطني الاتحادي» بدوافع سلبية واضحة في مجرد دوره المناوئ لحزب الأمة ، كما أن الدوافع الايجابية التي دفعت المثقفين القدامى لمساندة الحزب المذكور متمثلة في رغبتهم في إرث الادارين البريطانيين

قد إنتفت بعد أن مضى ما يقرب من عقد على الرحيل البريطاني» (١) .
ومما يلاحظ ان احدى المصادر الغربية قد قدرت عدد المنتمين الى
الحزب الشيوعي السوداني بعشرة آلاف عضو (٢) وهو رقم إن صح ولم
يكن مبالغاً فيه لا يستهان به في بلد كالسودان .

وأيا كان عدد المنتمين إلى الحزب في تلك الفترة فإن موقف اليمين
المتصلب لاسيما عندما احتجت الهيئة القضائية ونقابة المحامين على إصرار
الحكومة على عدم تنفيذ حكم القضاء كان موقفاً مخطئاً ولو من الناحية
الدستورية . فالأخوان المسلمون قد هددوا يومذاك بالقيام بأشد أعمال
العنف ضد الحزب الشيوعي وأعضائه . بل هاجمت صحيفتهم المحامين
ورأوا أن في تظاهرهم لتأييد القضاء تحدياً للقانون . وانهى الموقف
بإلقاء القبض على أمين الشبلي نقيب المحامين (٣) .

لقد أدت هذه الأساليب الى رد فعل عنيف داخل مجتمع المدينة لم
يكن بالقطع في صالح اليمين، فقد هدد رجال القضاء بالاستقالة الجماعية
اذا لم تعتذر الحكومة والجمعية عن إهاتها للقضاء السوداني (٤) . وفي
نفس الوقت شكلت الجبهات المختلفة هيئة اطلقوا عليها اسم «المؤتمر
القومي للدفاع عن الحريات» كان وراءها بالطبع أعضاء الحزب الشيوعي
الذين كانوا يرون في قيام الحكومة بما قامت به مخالفاً للديموقراطية ،
بل إعتداء عليها .

وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه حيثيات حكم المحكمة العليا بشأن

١ - مجلة السياسة الدولية العدد ١٨ . أكتوبر ١٩٦٩ . مقال الثورة
والصراع الحزبي في السودان ١٩٦٤ - ١٩٦٩ للدكتور يونان لبيب رزق
صفحة ٦٦ وما بعدها .

٢ -
The Herald Tribune November 1964 .

٣ - الايام في ٢٧-١٢-١٩٦٦ .

٤ - الاهرام ٢٥-١٢-١٩٦٦ .

عدم دستورية حل الحزب الشيوعي أعلن نبأ تحرك قوات من الجيش للقيام بانقلاب عسكري تزعمه الملازم ثان خالد حسين عثمان (١) .
لم يكن أمام السلطة الحاكمة - بطبيعة الحال - وبعد اكتشاف مؤامرة خالد حسين عثمان ورفاقه سوى القيام بحركة اعتقالات واسعة لزعماء اليسار السوداني ، كما تم اعتقال بعض العناصر العسكرية أمثال خالد الكد وهو من أقرباء عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني . وهاشم العطا والرشيد نور الدين ورشيد أبو شامة وكذلك أعتقل عبد الخالق محجوب نفسه .

كما تم اعتقال بعض العناصر العسكرية القيادية دون أن يكون لها أي صلة بمحاولة الانقلاب المذكور ومن أمثلة ذلك اعتقال قائد المنطقة الشرقية «جعفر نميري» الذي قدر له أن يقود فيما بعد ثورة الخامس والعشرين من مايو التي خلصت السودان من الفساد الذي ملأ جوانب البلاد .

ولكن تبين فيما بعد أن هذا التدبير كان ساذجا حينما عجز التحقيق عن توجيه الاتهام لأي معتقل فأفرج عنهم جميعا . إلا أن الحكومة مبالغة منها في الحرص أصدرت أوامرها بنقل هؤلاء الضباط الى الجنوب وإلى معسكرات بعيدة عن العاصمة . فنقل «جعفر نميري» الى غرب السودان وفاروق عثمان حمد الله الى جوبا .

يقول الرئيس جعفر نميري وهو يروي قصة ثورة السودان كاملة لمدوب مجلة المصور «... أرادوا بعد هذه التهمة - يقصد مؤامرة خالد حسين الكد - أن يبعدوني عن عزوتي . عن جنودي وضباطي فسي القيادة الشرقية فنقلوني إلى القيادة الجنوبية ، قائدا للصفة الشرقية فيها

١ - السياسة الدولية مقال د. يونان لبيب «الثورة والصراع الحزبي في السودان» العدد ١٨ - أكتوبر ١٩٦٩ .

وهناك .. ولأول مرة في حياتي كنت لا أكاد أستلقي على الفراش حتى أحس بأنفاسي تختنق .. كان ثمة نوع من الأشجار يسبب لي حساسية في الشعب الهوائية .. وبتقرير طبي إقتنعت رئاسة القوات بأن المنطقة لا تناسبني فنقلت إلى مدرسة المشاة في جيت في المنطقة الشرقية» (١) .

لم تكن تلك الأحداث من الاسباب التي توقف تيارات المد الثوري أو تعرقل وحدات التجمع التنظيمي ، بل على العكس فقد كانت من الاسباب التي كشفت لبعض هؤلاء المناضلين مأساة الجيش السوداني .

يقول فاروق عثمان : «ان الجندي كان ينزف الدم في الجنوب حتى يموت دون وجود اية إسعافات أولية .. وان بعض الوحدات كانت تقضي ثلاث سنوات بلا غيار أو اجازات ، وبعض الوحدات عزلت سنة كاملة وكانت تمون بالطائرات وبعض الجنود كانوا يشترون الملابس من جيوبهم الخاصة» (٢) .

إزاء هذه الاحداث التي مر بها السودان خلال تلك الفترة رأت الحركة اليسارية فيه بمختلف قطاعاتها أن تجمع شملها مرة أخرى وتعيد النظر في لفظة «شيوعي» وما تحمله هذه الكلمة من مضامين لادينية مما يخلق نفوراً منها خاصة بين قطاعات العمال والمزارعين الذين يجب أن يكونوا السند الحقيقي لأي حركة سياسية لها عمق في المدينة أو الريف .

وليست هذه أول مرة يفكر فيها الحزب الشيوعي السوداني في تغيير اسمه . فقد راودت هذه الفكرة بعض أعضائه في منتصف عام ١٩٦٥ عندما ناقشوا على صفحات الصحيفة الناطقة باسمهم ونعني بها

١ - مجلة المصور القاهرية العدد ٢٣٢٣ الصادر ٢٠ يونيو ١٩٦٩ .
٢ - مصر والسودان كفاح مشترك أحمد حمروش عوض كتاب الهلال صفحة ١٦٥ .

«الميدان» (١) امكانية تغيير الاسم .
وقد توصلوا فعلا الى ذلك فغيروا اسم الحزب الى «الحزب
الاشتراكي السوداني» وكان ذلك في ٢١ يناير ١٩٦٧ .
وقد رمى الحزب الشيوعي السوداني من وراء ذلك الى محاولة
استقطاب المزيد من العمال والفلاحين حول الحزب لاسيما اذا علمنا أن
أهم أعضاء الأمانة العامة للحزب الجديد من الذين كانوا أعضاء في
الحزب الشيوعي المنحل المنتسبين للعمال والفلاحين ومن أشهرهم «الشفيع
احمد الشيخ» سكرتير اتحاد نقابات العمال الذي نفذت فيه حكومة
الثورة حكم الإعدام عقب محاولة هاشم العطا الفاشلة لقلب نظام الحكم
واشتراكه فيها .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الحزب الاشتراكي السوداني عند تأسيسه
لم يلق معارضة من الشيوعيين . فكان نتيجة لذلك أن تكون حزب
يساري جديد أعلن عن نفسه في اكتوبر ١٩٦٨ ونعني به «حزب العمال
والفلاحين» إلا أن عبد الخالق محجوب عارض بشدة قيام هذا الحزب
الجديد مستنداً على أن هذا العمل سيؤدي في النهاية إلى تفتت الحركة
اليسارية .

يقول الدكتور يونان ليب في مقال له : إن عودة التثام الاحزاب
التقليدية إلى جانب ما ترتب عليها من زيادة محاولات البطش باليسار
فقد أدت الى شعور كل من الحزبيين التقليديين الكبارين بإمكانية
الاستيلاء على غنيمة الحكم كاملة وتنتج عن ذلك أن أخذ الائتلاف القائم
في الوزارة السودانية يهتز بشدة وأخذ زعماء الحزبين المؤتلفين يتقاذفان
التهم على صفحات الجرائد الناطقة بإسميهما ووصلت الأزمة الى ذروتها

١ - الميدان في ٢٨-٦-١٩٦٦ .

باستقالة محمد أحمد محجوب رئيس الوزارة في أواخر إبريل ١٩٦٩ وقد
رفضت استقالته لأن الحزبين التقليديين كانا في حاجة لبعض الوقت
لاستكمال أسباب المواجهة النهائية بينهما» (١) .
كانت النتيجة المنطقية لتلك الأحداث التي شملت السودان طوال هذه
الحقبة من تاريخه أن تتمخض تلك الأحداث عن تغيير في سلطة الحكم
في البلاد .

لقد كان أمل كل من الحزبين التقليديين أن يتم هذا التغيير لصالحه
كما عمل اليسار على أن يكون التغيير أكثر جذرية ينهي معه حكم احزاب
اليمين . فمن من هؤلاء تحقق أمله ؟ .. هذا ما سنناقشه في الصفحات
المقبلة من هذا الكتاب .

١ - السياسة الدولية العدد ١٨ - أكتوبر ١٩٦٩ مقال الثورة والصراع
الحزبي في السودان ١٩٦٤ - ١٩٦٩ للدكتور يونان لبيب رزق .

ثورة مايو المباركة

يخطيء من يظن أن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ التي قام بها الضباط الأحرار من أبناء مصر لم تكن من المؤثرات القوية على الضباط الأحرار في الجيش السوداني حينما قاموا بثورتهم .. ثورة ٢٥ مايو سنة ١٩٦٩ فهي على الأقل كانت بداية مرحلة جديدة لتلك العناصر الوطنية في الجيش السوداني . وكما كان انحدار سياسة الحكومات السابقة لمصر كان الحال بالنسبة للحكومات التي سبقت ثورة السودان . وكما أن العديد من ضباط مصر قد قدموا حياتهم ثمناً للخيانة التي كشفت عنها حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ فإن اخواناً لهم من ضباط الجيش السوداني قد قدموا حياتهم - أيضاً - في معارك النضال ضد الاستعمار البريطاني وضد الديكتاتورية العسكرية التي مني بها السودان فترة من الزمان .

يعود تشكيل الضباط الأحرار في السودان الى الضابط محمود حسيب الذي كان بسلح الاشارة آنذاك وشغل منصب وزير المواصلات في حكومة الثورة السودانية فيما بعد . وعندما انشأ محمود حسيب ذلك التنظيم لم يكن له طريقة محددة للاستيلاء على السلطة . يقول محمود حسيب :

«لقد أحس الضباط أن لهم دوراً ايجابياً ، وأنه لا بد لهم ان ينظموا أنفسهم ليكونوا على الأقل صمام أمان في المستقبل اذا انحرف القادة

السياسيون عن الطريق القويم ، وكان المهم أن يشعروا المستعمر
الانجليزي أن الجيش لن يستمر مطية يسكن أن يسخرها لأغراضه
الخاصة » (١) .

وما كاد استقلال السودان يتحقق في مطلع عام ١٩٥٦ ويتم تحرير
أراضيه من قوات الاحتلال البريطاني حتى فقد الحزب الوطني الاتحادي
رئاسة الحكومة في يوليو لموقفه المتهاون وحل محله عبد الله خليل ممثل
حزب الأمة الرجعي المتعاون مع حزب الشعب الديمقراطي .
خلال تلك الفترة حدثت في مصر عدة حوادث هامة منها جلاء
القوات البريطانية في ١٨ يونيو ثم تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو
الذي أعقبه العدوان الثلاثي في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .
ويعتبر عام ١٩٥٦ من أعوام المد الثوري في الوطن العربي .. حيث
احتشدت الأمة العربية حول شعب مصر في كفاحه ضد العدوان الثلاثي ..
ومع ظهور مشاعر الشعب السوداني بدأ الضباط الأحرار السودانيون
يتجمعون من جديد وأمامهم نضال الشعب المصري الشقيق .
إلا أنه في عام ١٩٥٧ استطاعت حكومة حزب الأمة أن تكتشف ذلك
التشكيل فحاكمت عدداً من الضباط الأحرار السودانيين منهم المقدم
عبد الرحمن كبيده ويعقوب كبيده وعمر خلف الله وعوض بابكر . وهي
نفس الفترة التي أحيل فيها النقيب جعفر نميري إلى الاستيداع . وكانت
هذه هي المرة الأولى التي يقدم فيها للتحقيق والمحاكمة .

ولقد كانت هذه الضربة من العوامل التي ساعدت على تنفيذ تسليم
الحكم للعسكريين يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ في هدوء ...
ولكن الروح الوطنية عند رجال الجيش السوداني سرعان ما ثارت

١ - مصر والسودان كفاح مشترك للاستاذ أحمد حمروش - دار الهلال
صفحة ١٥٧ .

ضد الديكتاتورية العسكرية • وكانت المحاولة الأولى للانقلاب في ٤ مارس ١٩٥٩ • وقد نجح الانقلاب من الناحية العسكرية تحت قيادة الاميرالاي عبد الرحيم شنان الذي دخل المجلس الاعلى للقوات المسلحة ومعه الاميرالاي محيي الدين عبد الله بعد أن خرج منه اللواء أحمد عبد الوهاب المدير الحقيقي للانقلاب الرجعي •

وفي ٢٢ مايو ١٩٥٩ قرر الضباط الأحرار القيام بانقلاب جديد تحت قيادة الاميرالاي عبد الرحيم شنان والبكباشي حسن ادريس وعبد الحفيظ شنان ، ولكن لم يقدر لذلك الانقلاب النجاح فحوكم عدد كبير من الضباط كما طرد آخرون من القوات المسلحة السودانية •

وقبل نهاية العام شهد السودان حركات إضرابات واسعة قام بها الطلبة وعمال السكة الحديد وإتحاد نقابات العمال • وقامت محاولة إنقلاب ثالثة في ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ قدم على أثرها قادة الحركة وكانوا من الضباط التقدميين وهم بكباشي علي حامد وبكباشي يعقوب كيده والصاغ عبد البديع علي كرار واليوزباشي طيار الصادق محمد الحسن واليوزباشي عبد الحميد عبد الماجد فصدر عليهم الحكم بالاعدام ونفذ الحكم شنقا خوفا من عدم تنفيذ زملائهم الجنود للحكم رغم ما في ذلك من مخالفات لتقاليد النظم العسكرية في أنحاء العالم •

وكان من بين المعتقلين في تلك الحركة الرائد فاروق عثمان حمد الله الذي أصبح فيما بعد عضواً بمجلس قيادة ثورة مايو وتولى منصب وزير الداخلية •

وفي عام ١٩٦١ أعيد إحياء تنظيم الضباط الأحرار وصدرت مجلتهم السرية الاولى «صوت القوات المسلحة» وقد كانت هذه المجلة من أهم العوامل التي أدت الى تجميع المناضلين في القوات المسلحة السودانية وربطهم بالقوى الوطنية الأخرى خارج القوات المسلحة •
جاء في العدد الصادر في منتصف فبراير سنة ١٩٦٢ من مجلة

(صوت القوات المسلحة) ما يلي : «إن تنظيم الصفوف في الجيوش والحركة الشعبية أصبح شعار الساعة ، وشعبنا وجيشنا الذي اصطدم بالاستعمار إصطداماً مباشراً خلال أعوام ١٩١٠ ، ١٩١٩ ، ١٩٢٤ ، ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ وبأعوانه فيما بعد لقادر على الإطاحة بهذا الحكم الضعيف المزعول » (١) .

وبالوقوف على آراء هؤلاء الضباط من خلال ما كانوا يكتبونه في مجلتهم يمكننا أن نعرف اتجاهاتهم فالديموقراطية التي ينادون بها هي : الديمقراطية الحققة والتي تحمل في مضمونها حكم الشعب بواسطة الشعب والتي لا تقبل تسلط فرد أو طبقة معينة (١) .

استمر تنظيم الضباط الأحرار ينمو يوماً بعد يوم ، ويزداد صلابته ووعياً ، حتى أسهم بدور بارز في إسقاط حكم عبود كما سبق أن مر بنا عندما وقف ضباط الجيش وفي طليعتهم البكباشي جعفر نميري واليوزباشي فاروق عثمان حمد الله يحاصرون قصر عبود ويجبرونه على الاستقالة بعد تقديم مطالبهم في مذكرة وقعها ستون ضابطاً .

وبعد انهيار ديكتاتورية عبود والمجلس الأعلى عادت القسوة المسلحة الى ثكناتها .

لقد كانت تلك المرحلة من مراحل كفاح الضباط الأحرار تتجاذبها وجهتا نظر : الأولى : تقضي بضرورة مواصلة القوى الوطنية في الجيش لدورها بمساندة جماهير أكتوبر التي لم تكن تملك القدرة الكافية على امتلاك زمام الموقف كما اثبتت الأحداث فيما بعد ... الثانية : تقضي

١ - مصر والسودان كفاح مشترك للاستاذ أحمد حمروش كتاب الهلال صفحة ١٦٠ - ١٦٢ .

بضرورة عودة القوى الوطنية في الجيش الى الشكنات ، تحت ضغط
الرغبة الشعبية المضادة لأي لون من ألوان الحكم العسكري بعد تجربة
ديكتاتورية عبود العسكرية .

واتصرت وجهة النظر الثانية لأن التنظيم العسكري في الجيش لم
يكن قد نضج الى الدرجة التي تؤهله لتحمل مسئوليات السلطة (١)
إلا أن عودة القوى الوطنية من رجال الجيش الى الشكنات قد تركت
جماهير اكتوبر فريسة لمؤامرات الرجعية الطائفية والأحزاب التقليدية التي
أجهضت الثورة الشعبية الاصيلية .

وربما كان الدليل على صحة ذلك أنه لم تكد تمضي عدة أيام على
حصار الضباط للقصر الجمهوري وسقوط حكم عبود حتى بدأت
الحكومات الرجعية في تدبير المؤامرات ضد الضباط الثلاثة «نميري
وفاروق ورشيد» ومعهم خمسة آخرون وتم إعتقالهم جميعاً يوم ٨
نوفمبر أي بعد أيام قليلة من انتصارات ثورة اكتوبر .

وقد أخذت تلك الحكومات الرجعية تشيع في ذلك الوقت ان هؤلاء
الضباط الاحرار يعملون لحساب مصر . ولكن سرعان ما تكشف للشعب
السوداني انها محاولة رخيصة لستر الحقيقة التي تحاول تلك الحكومات
الرجعية أن تبرر بها موقفها في محاولة تصفية الجيش من العناصر
الوطنية .

وحسبنا تلك المظاهرات الجماهيرية التي ملأت شوارع الخرطوم
تطالب بالافراج عن الضباط فاضطرت السلطات الحاكمة آنذاك الى إطلاق
سراحهم . ولا يفوتنا أن نذكر ان تلك الحادثة قد أوضحت لجماهير
السودان ان قواتهم المسلحة ليست كلها نماذج من ضباط عبود بل أنها

تحتوي أيضا ضباطاً وطنيين يعملون من أجل مصلحة الوطن .
خطا تنظيم الضباط الأحرار بعد ذلك خطوات أخرى حينما حاولوا
توسيع جبهتهم وأصدروا مجلة جديدة هي «الأحرار» بدلا من «صوت
القوات المسلحة» التي كانوا يصدرونها من قبل .
وقد عبرت مجلة «الأحرار» في عدد من أعدادها عن الصلة الوثيقة
التي قامت بين الضباط وصف الضباط والجنود بقولها :
«إن الجبهة تضع في المقام الأول علاقة الضباط بالجنود فالإرتباط
بينهم ارتباط حتمي تمليه طبيعة العمل والأهداف المشتركة ، ولذا كان
لزما أن تصل العلاقة بينهما إلى أقصى مراتب التعاون» .
ورغم أن تلك الأحداث كانت من الاسباب التي أدت الى بعشرة
الضباط الاحرار إلا أنهم كانوا على إتصال دائم حول مجلتهم السرية
«الأحرار» وقد استطاعوا خلال تلك الفترة أن يحصلوا على توقيع ثمانين
ضابطاً على إحدى المذكرات التي رفعت لقيادتهم يطلبون فيها زيارة وزير
الدفاع والقائد العام للجنوب . وفعلا حضر وزير الدفاع والقائد العام
لزيارتهم فطلب منهم الضباط الأحرار تحسين حالة الجنود المعيشية
والعناية بأسر الشهداء منهم ، وإعادة تنظيم وتسليح القوات المسلحة مع
تطهيرها من العناصر الفاسدة .

ولقد أدت هذه المطالب من الضباط الأحرار فيما بعد إلى طرد عدد
من ضباط الجيش من خدمة القوات المسلحة السودانية كان منهم فاروق
عثمان الذي شغل بعد ذلك وظيفة مدنية ببلدية أم درمان ، تقرر نقله
بعدها الى الجنوب ، ولكنه إستقال من تلك الوظيفة وآثر القرب من
الضباط الأحرار على تلك الوظيفة .

عند هذا الحد وقر في أذهان الضباط الاحرار أن الاصلاح لن يتم
الا اذا تغير الجهاز الحاكم نفسه .
ومع ذلك لم يكن تنظيم الضباط الأحرار منعزلاً عن التنظيمات

الشعبية الوطنية . فقد كان حلقة الإتصال بينهما هو السيد بابكر عوض الله رئيس القضاة الذي إستقال احتجاجاً على تصرفات الحكومة ورفضها تنفيذ قرار المحكمة العليا الصادر بعدم قانونية تعديل الدستور . ولم تكن تلك الأحداث بالذات سبباً في بداية العلاقة التي نشأت بين الضباط الأحرار والسيد بابكر عوض الله وإنما كانت البداية عقب ثورة أكتوبر ١٩٦٤ حينما شكلت لجنة من القضاة لتطهير الجيش ...

وقد لعبت الأحداث التي جرت في السودان في تلك الفترة دوراً هاماً في سرعة الحركة بالنسبة لهؤلاء الضباط . فقد عملوا على منع اقرار الدستور الرجعي الذي تخفى تحت اسم الاسلام وحرصوا أيضاً على منع اجراء انتخابات للرئاسة .

بدأ حزب الأمة يكون ما نعرفه في الاصطلاح الحديث بالمليشيات العسكرية ، هذا الى جانب أن الصادق المهدي قد قام بزيارة مشبوهة للخليج وابو ظبي مع تنازله عن بعض آرائه بقصد المصالحة للاستيلاء على الحكم .

وهكذا اخذت الصورة تبدو مظلمة ويائسة .. فلم يكن أمام الضباط الأحرار سبيل إلا أن يتحركوا لتغيير الحكم من جذوره . إلا أنه كانت هناك صعوبات فنية في التنفيذ لذلك حرصت قيادة الضباط الأحرار على أن يشترك أقل عدد وأحسن مستوى من الناحية الثورية . وفي اللحظات الاخيرة تقاعس بعض الضباط من أعضاء لجنة الضباط الأحرار لارتباطات خاصة وتحليلات غير سليمة . فانكمش عدد المسئولين عن التنفيذ . فما كان منهم - أي الضباط الأحرار - الا مجابهة هذا الموقف بشيء من التمويه فأخذوا يشيعون أنهم صرفوا النظر من جهة .. وعملوا على الاسراع بالتنفيذ من جهة أخرى .

وتقرر موعد الثورة لأول مرة يوم ١٤ مايو ثم تأجل ليكون ٢١ مايو بمناسبة سفر اسماعيل الازهري ثم استقر الرأي في النهاية ليكون ٢٥

مايو خلال وجود كبار ضباط الجيش في زيارة للاتحاد السوفييتي .
وحمل مسئولية الثورة سريتان من المظلات وقوة من المدرعات لا
تتجاوز في عددها أربع مائة صف ضابط وعسكري كانوا في مناورات
خارج الخرطوم .

وتمت العملية في هدوء .. ولم تطلق رصاصة واحدة اللهم الا تلك
التي اطلقت في الهواء داخل مكتب بريد الخرطوم اثناء قطع المواصلات .
إن الخطة التي قام بها الثوار لتغيير نظام الحكم في السودان فسي
الخامس والعشرين من مايو قد امتازت بالسرعة والسرية والكفاءة ولم
يستغرق تنفيذها اكثر من ساعتين ، إذ بدأت في الساعة الواحدة وهـ ؛
دقيقة من صباح ذلك اليوم وتمت بأكملها في الساعة الرابعة . وقد
انتهاز الثوار فرصة وجود الرئيس جعفر نميري في اجازته السنوية
بالخرطوم فقاموا بثورتهم تحت قيادته . هذا من ناحية ، اما الاخرى فهو
وجود قوات المدرعات يومذاك في تدريب بشمال الخرطوم على مسافة
لا تبعد اكثر من نصف ساعة فأصدر «النميري» تعليماته لضباط المظلات
بعبور العاصمة على سبيل التدريب باعتبار ان ذلك من الامور الطبيعية
بالنسبة لجنود المظلات لزيادة الكفاءة البدنية بالنسبة لهم .

وعلى هذا الأساس تجمعت قوة من المظلات قوامها سريتان في منطقة
«خور عمر» شمال الخرطوم وهو نفس المكان الذي كانت قوات المدرعات
تتدرب فيه وكانت مكونة من «بلوك» مدرع يضم أربعة وعشرين جنديا
وسرية مدرعة تتكون من مائة وخمسين جنديا .

وعند إجتماع قوات المظلات والمدرعات في ذلك المكان جرى
تقسيمها الى مجموعات حسب الخطة المرسومة لذلك الغرض . وصدرت
الأوامر للجنود بالتحرك تحت إشراف أربعة عشر ضابطا هم كل الذين
اشتركوا في تنفيذ الحركة أكبرهم برتبة عقيد ونعني به الرئيس جعفر
نميري .

وبدأ تحرك المجموعة الأولى في نفس الوقت الذي وصلت فيه
مجموعة من قوات المظلات إلى «أم درمان» وكانت مهمتها قطع التليفونات
عن العاصمة كلها وقتل المطار . وقد تمت العملية بنجاح دون أية مقاومة .
بعد ذلك اندفعت بقية المجموعات لتنفيذ الخطة التي رسمها الضباط
الأحرار وهي اعتقال كبار ضباط القوات المسلحة، إلا أن الضباط الأحرار
اكتشفوا أن خمسة من كبار الضباط الذين قرروا اعتقالهم قد سافروا إلى
موسكو في نفس اليوم تحت رئاسة اللواء محمد إدريس عبد الله .
وقد عملت كل مجموعة من المجموعات التي اشتركت في الثورة
تحت قيادة ضابطين إتجهت واحدة منها إلى المنطقة الشرقية بالخرطوم
لاعتقال كبار الضباط وكان من بين المقرر اعتقالهم القائد العام الفريق
الخواض محمد أحمد وقد تم التحفظ عليه في منزله ، كذلك مدير
البوليس اللواء محمود بخاري وبعض الضباط في المنطقة العسكرية ،
واتجهت واحدة أخرى إلى مناطق وسط وغرب الخرطوم بقصد اعتقال
كبار قادة الاسلحة . . وكان من بينهم قائد سلاح المدرعات العميد عبده
حسين ، وقائد حامية الخرطوم العميد عبد الحميد خير السيد ومساعد
مدير البوليس العميد حسين حمد ، واتجهت مجموعة ثالثة لاعتقال العقيد
عبد الله آدم قائد سلاح الإشارة بأم درمان .

كذلك شكلت مجموعة رابعة كانت مهمتها استلام من تم اعتقالهم
في منطقة تقع بالقرب من كوبري أم درمان بجوار كازينو «المقرن» .
وقد تمت الاعتقالات بالنسبة للعسكريين حسب الخطة التي رسمها
قادة الثورة فيما عدا النائب السابق للقائد العام الذي لم يكن موجودا
بمنزله إلا أنه قد قام في اليوم التالي بتسليم نفسه وهو اللواء حمد النيل
ضيف الله .

وعند الفجر صدرت الأوامر بنقل جميع المعتقلين إلى قصر الضيافة
في الخرطوم .

هذا الى جانب أن الضباط الأحرار قد قاموا بالتحفظ على المرحوم اسماعيل الازهري رئيس مجلس السيادة السابق بعد أن حاصروا منزله بأربعة سيارات مصفحة وقوة من المدرعات والمظلات . وقد حاول الازهري عندما شعر بالحصار أن يتصل بالتليفون السري - الذي لم يكن قد تم قطعه حتى تلك اللحظة - بالقائد العام إلا أن الرد قد جاءه بأنه هو - أيضاً - قد أعتقل بمنزله وأن الموقف قد خرج من يده . كذلك تم التحفظ على السيد محمد أحمد محجوب رئيس الوزارة السابق في منزله وكذلك على الشيخ علي عبد الرحمن نائبه .

وهكذا كانت الساعة الثانية من صباح ٢٥ مايو ١٩٦٩ ، لحظة تاريخية في تاريخ السودان . إذ تم خلالها نجاح الثورة التي طالبا إنتظرتها الجماهير السودانية بشغف شديد . وفي الصباح أعلن مجلس قيادة الثورة برئاسة العقيد جعفر نميري - كذلك أعلن تشكيل وزارة جديدة برئاسة بابكر عوض الله .

وقد أذاع قائد الثورة الرئيس جعفر نميري البيان رقم (١) من إذاعة أم درمان صباح الخامس والعشرين من مايو محدداً فيه أهداف الثورة وواضعا المعالم البارزة لطريقها . ويعتبر هذا الخطاب بحق الدستور الأساسي للثورة وهو دستور اشتراكي عربي بعيد كل البعد عن الشيوعية وحتى الاشتراكية الماركسية (١) . وقد بدأ بيان الثورة الأول بقوله :

«إن بلادنا الحبيبة لم تنعم بالاستقرار منذ إعلان استقلالها في ١٩٥٦ وكان ذلك مرده سلسلة من المآسي تضافرت فيها عوامل الفساد وذلك من الأحزاب المختلفة على مقدراتنا فتحول الاستقلال على أيدي

١ - الديمقراطية والاشتراكية في السودان للاستاذ علي عبد الرحمن الأمين - منشورات المكتبة العصرية - بيروت صفحة ١٤٢ ط أولى .

الحكومات المتعاقبة إلى مسخ قبيح ونظرة فاحصة الى الاقطار التي نالت استقلالها بعدنا لكفيلة بأن توضح مدى التقدم الذي أحرزته تلك الاقطار في كافة المجالات ولم يكن ذلك بسبب سبقها لنا في مجال العلم والمعرفة أو بسبب تخلفنا عنها في وضعنا الاقتصادي ولكن لأن تولي أمرها منذ استقلالها رجال آمنوا بوطنهم إيماناً صادقاً بوحى من ذلك الإيمان الصادق عقدوا العزم على أن يعيدوا صنع الحياة في بلادهم . أما نحن في السودان فقد ظللنا نسير الى الوراء لأنه تحكمت فينا أحزاب عجزت عن إدراك مفهوم الاستقلال وكان الاستقلال في نظرها علماً ونشيداً وسفارات ومؤتمرات لا وسيلة لتغيير حياة الامة واسعاد أبنائها . وانطلاقاً من هذا المفهوم الخاطيء لم يكن هم الأحزاب المختلفة إلا أن تتسلل الى مواقع الحكم ثم تمسك بزمام السلطة لمصلحتها الخاصة دون اعتبار لمصلحة الشعب فعم الفساد والرشوة كل أجهزة الدولة فاختل الأمن الداخلي وفتحت أبواب البلاد للنفوذ الاجنبي وتسلمت قبوى التخلف والرجعية الى بلادنا . تسلمت لتساند تلك الاحزاب بكل امكانياتها مدركة أن بقاء كل منها متوقف على بقاء الآخر ...

ولقد وضع جلياً رفض الجماهير لهذه الحكومات الحزبية التي تعاقبت منذ اكتوبر عام ١٩٦٤ ، ورفضت الجماهير تلك الحكومات لأنها حكومات قامت جميعها على الفساد والرشوة والحزبية والشراء الحرام فأفسدت الجهاز الحكومي وحولته الى آلة طيعة لخدمة الوزراء والمحاسيب والأقارب والمؤيدين دونما أي إعتبار لمصالح أولئك الذين يقتطعون من عرقهم وقوت يومهم للحفاظ على كيان السلطة .. رفضتها لأنها عبثت بدستور البلاد واستباححت لنفسها سلطة تعديله لسلب حرية الآخرين تمشياً لمفاهيم في الديمقراطية تتنافى مع كل المشاعر القومية وكل القيم والتطلعات الوطنية ... لقد أظهرت انها تريد أن ترى السودان يحتل المكان الصحيح بين قوى الثورة العربية والافريقية ومرتبطة إرتباطاً

مصريا بالأمة العربية مسانداً ومؤيداً حقوق شعب فلسطين السليبة ..
رفضتها لأنها عجزت عن مناهضة الدول الاستعمارية الواقفة وراء
إسرائيل وعلى الوقوف ضد التسلسل الصهيوني الى افريقيا وعن حماية
حدود الارض السودانية من نتائج ذلك التسلسل حتى هان السودان على
كل طامع في تفكيته فهب أبناء الاستعمار والصهيونيين من كل جانب
يستحلون حرماته ويستبيحون دمائه

لكل هذه الأسباب رفضت الجماهير تلك الحكومات وبدأت تتطلع
الى تغيير جذري في نظام الحكم مدركة أن السودان الحديث لم يخل في
يوم من الأيام من فئة قيادية تعرف أين تكون مصلحة وطنها دائما وأبدا
وتبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل تحقيق تلك المصلحة، وعليه فقد اتفق
قادة هذه الفئة المخلصة على انهاء هذا العهد عن طريق القوة وتولى أمر
الجيش في هذه اللحظات رجال عاهدوا الله على التضحية بدمائهم
رخيصة في سبيل إسعاد هذا الوطن وانضم إليهم من المدنيين رجال لم
يتخلفوا يوماً عن ركب الاخلاص والوطنية وبفضل هذا اللقاء المبارك
ستتولى الثورة من هذه اللحظة إدارة شؤون البلاد مجردة من كل غاية
إلا مصلحة الوطن الحبيب وسعادة شعبه ورفاهيته» .

وقد طالب الرئيس نميري المواطنين السودانيين أن يكونوا متيقظين
الى أعمال المخربين من قادة الاحزاب وأعوانهم من المنتفعين بالعهد
السابق وأن الثورة سوف تضرب بيد من حديد على حد تعبيرهم على
كل من تسول له نفسه الوقوف أمام تيار التغيير الجارف وانطلاقة
الشعب وحتمية التاريخ .

وللحقيقة والتاريخ ترانا مضطرين إلى الاتيان ببعض الهمسات التي
لاكتها ألسن الرجعية في السودان عقب نجاح الثورة .. فقد حاولت تلك
الألسن أن تشيع بين بعض الجماهير السودانية أن الحكم الجديد في
السودان حكم شيوعي مستغلين كلمة الاشتراكية التي اتخذها الضباط

الاحرار شعارا للثورة ، وساعدهم على ذلك آن حكومة الثورة قد تضمنت في تشكيلها بعض الأفراد الذين كانوا تابعين للحزب الشيوعي السوداني من أمثال فاروق أبو عيسى وجوزيف كرنج ومحجوب عثمان السدي أسندت اليه وزارة الاعلام (١) . هذا الى جانب رئيس الوزراء الذي سبق أن انطبع اسمه في أذهان السودانيين بأنه صديق للحزب الشيوعي عندما أفتى بشرعية النواب الشيوعيين قبل قيام الثورة وما نتج من ذلك بينه وبين حكومة اليسين السابقة كما مر بنا في الصفحات السابقة .

إزاء تلك الهمسات اضطر بابكر عوض الله رئيس الوزارة السابق ان يذيع بياناً على الشعب السوداني قال فيه : إن اختياره لتلك الشخصيات في وزارته كان على أسس شخصية وتقديرا لكفاياتهم وطاقاتهم الفردية ، وأما ما يشيعه البعض من أن الحكومة قد اختارتهم لصلة تربطها بالحزب الشيوعي . فالشيء الاول أن الحزب الشيوعي السوداني عندما قامت الثورة كان من الاحزاب التي حلتها حكومة الاحزاب . ولو انه كان موجودا عند قيام الثورة لقامت بحله شأنه شأن بقية الاحزاب التي ألغتها .

ويبدو أن كلام بابكر عوض الله لم يكن مطمئنا لتلك الفئة من المواطنين ، بل طالب بعضهم بسماع رأي رئيس مجلس الثورة نفسه الرئيس جعفر نميري . فانتهاز الرئيس نميري الفرصة وهو يعلن اعتراف حكومة الثورة السودانية بالمانيا الشرقية فقال : «ان الحكم الجديد

١ - مجلس الثورة لم يكن شيوعيا . . لكن كان بين اعضائه بعض الشيوعيين المموهين ، عرفوا كيف يخفون التزامهم الحزبي - الى حين - بأن القوا عليه ستارا من التقديمية الثورية التي تدعو الى الاستعانة بالقوى الشعبية كلها ، لمواجهة التآمر الامبريالي من جهة وبقايا الاستعمار الانجليزي من جهة أخرى (تراجع مجلة الحوادث اللبنانية عدد خاص عن السودان بتاريخ ٢٠-١٢-١٩٧١) .

في السودان ليس شرقيا ولا غربيا وانما هو ديموقراطي اشتراكي يعمل
أولا وأخيراً لمصلحة السودان ولم ينظم أو يخطط له أي حزب سياسي،
أما السبب في اختيار بعض الوزراء من الذين كانوا ينتسبون إلى
أحزاب سابقة في الوقت الذي حللنا جميع الأحزاب فكون الوزراء الذين
اخترناهم وطنيين مخلصين أمناء لقضيتهم» .

كذلك حرص الرئيس نميري في خطابه الذي ألقاه في حفل التكريم
الذي أقامته له القوات المسلحة على تأكيد ذلك بقوله :

«... في درب الاشتراكية لسنا مذهبين ولا عقائدين في ذيل
أحد ، لأننا نحترم تفكيرنا كشعب عريق واسع التراث . هذا في المكان
الأول . ونريد أن نأخذ من كل المذاهب الاشتراكية ما يفيد سوداننا
ويوضح أسلوب شعبنا الخاص في ذلك ليصبح مع الآخرين تراثاً
للعالمين في دنيا الاشتراكية ..

ولسنا عقائدين ولا مذهبين لأحد . لأننا أساساً عقائديون
ومذهبيون بعاداتنا وتقاليدها وعقائدها الدينية، فهي مذاهبنا التي بدأ منها
ميلاد الاشتراكية ، فالمسيح عليه السلام عندما قال «تعالى الله في الاعالي
وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة» ، كان يعمل ويدعو للكفاية
والعدل ، فلا سلام بلا عدالة ، والمسرة تعني الكفاية فلا مسرة لمحروم .
وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . قد وضع النقط فسوق
الحروف وقال : «الناس شركاء في الماء والنار والكلاء» فقرر اشتراكية
الناس في الماء وكلمة الماء واسعة تعني الشرب ، وغيره من جوانب
الاستعمال . والنار تعني الطاقة المحركة والمنجزة لكل أنواع المنافع
للطعام والتدفئة والصناعة والتعدين والزراعة والمواصلات وغيرها ،
فالناس شركاء فيها أي كان مصدرها من الفحم أو الحطب أو الذرة أو
البتروول أو غيرها . ومنها تعلم عمر بن الخطاب فأمم وادي مخزوم عندما
شحت الأمطار في البوادي وفتحته كمرعى لجميع القبائل



القائد البطل ، الرئيس جعفر نميري
رئيس جمهورية السودان الديمقراطية

ومبادئ المجلس التي أجمع عليها قبل الثورة وازداد إيماناً بها وإصراراً عليها بعد الثورة ، ولن يضيره الهس المريض ، فالزحف الثوري يتقدم بنور الله وهدى الشعب البطل وثقوا أن كل الشوائب على البساط العام في حياتنا ستصفى ، وإن كل الحاقدين والثرثارين الحمقى والمتسلقين وذوي المنافع وهواة السلطة والارهاب ، سيسقطون في الطريق ، ولن يبقى إلا من هو قادر على حمل راية الثورة عن إيمان وصدق وعمل وإنتاج .

والسؤال اندي يطرح نفسه في هذا المجال هو : ماذا كان موقف الحزب الشيوعي تجاه الاعضاء الذين اشتركوا في حكومة الثورة ؟!

قبل الاجابة على هذا السؤال يجب أن نشير الى موقف عبد الخالق محجوب الذي اتخذ شكل المعارض بشدة . لا لأنه زاهد في أن يتمثل الحزب الشيوعي في الحكومة الجديدة ببعض أفراد ، لأن من المعروف انه قد قبل مثل هذا في حكومات ما قبل الثورة ، وإنما كان ذلك الموقف لأنه تم دون استشارته فقام بتجميد عضوية الثلاثة الذين اشتركوا في الوزارة وقاد ضدهم حملة عنيفة في الاجتماعات والندوات والليالي السياسية الحزبية صورتهم على أنهم غير انضباطيين وأنهم فضلوا السلطة على النضال من أجل السودان . وهكذا واجه الحزب الشيوعي السوداني إنقساماً داخلياً كما يتضح مما نشرته مجلة «الحرية» بعددها الصادر ١٥ فبراير ١٩٧١ حيث جاء فيه : «ما حدث في السودان هو انقسام عن صفوف الحزب ، بعد صراع فكري حاد وطويل حول مصير الحزب الشيوعي وبقائه وإستقلاله الأيديولوجي والتنظيمي وفعاليته ومبادئ وأشكال تحالفه مع السلطة ..»

وقد حاولت موسكو نفسها أن تزيل الانقسام الذي حدث بين أعضاء الحزب الشيوعي السوداني فأرسلت وفداً للخرطوم لمحاولة التوفيق بين جناحي الحزب وبحيث يتمثل الحزب في المؤتمر الرابع والعشرين للحزب

الشيوعي السوفييتي الذي إنعقد في ابريل ١٩٧١ .
وقد حاول الوفد السوفييتي أن يجعل الغرض الظاهر من زيارته هو
السمي لدى الحكومة للافراج عن عبد الخالق محجوب الذي سبق
اعتقاله ضمن من اعتقلوا في ١١ فبراير ١٩٧١ .

ورغم أن الوفد السوفييتي المذكور قد وصل للخرطوم في ٢٥ مارس
سنة ١٩٧١ فإنه لم يوفق في محاولة الافراج عن عبد الخالق محجوب
وغيره من قادة الحزب ، كما انه فشل حتى في تحقيق الغرض الظاهر
من الزيارة وهو تمثيل الحزب الشيوعي السوداني في المؤتمر الرابع
والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي .

وخلال احتفالات الثورة بالذكرى الأولى حاولت الرجعية أن تظل
برأسها وانضم معها الحزب الشيوعي السوداني فحمل بعض تابعيه لافتات
خلال زيارة الرئيس ناصر والقذافي للسودان يومذاك تنادي بالأممية
وليس بالقومية ..

فالحكومات الرجعية وزعماء الطائفية من الأنصار لم يسعدهم بالطبع
قيام ثورة مايو لأنها تهدد مصالحهم .. لان في قيامها تحطيم لتلك
الغيبات السخيفة المتخلفة والمنافية مع تعاليم الدين ، والتي عن طريقها
استطاعوا أن يسخروا الجماهير للعمل في أراضيهم حقبة من الزمان .
فعندما قرر مجلس قيادة الثورة وضع جميع مشاريع الاصلاح الزراعي
في منطقة النيل الأبيض تحت إشراف مؤسسة حكومية باسم «مؤسسة
النيل الأبيض للاصلاح» سواء اكتملت مدة ترخيص هذه المشاريع أو لم
تكتمل (١) . فانهم لا بد واقفون في الاتجاه المعارض لها .

١ - يراجع خطاب الرئيس نميري في كوستي في ٢٦ مارس سنة ١٩٧٠
والأحرار ٢٩-٣-١٩٧٠ ومقال قيام وسقوط المهديّة في السودان المعاصر
للدكتور يونان رزق مجلة السياسة الدولية العدد ٢١ يوليو ١٩٧٠ .

وحسبنا تلك الأحداث التي كانت المهدية وراءها بعد قيام ثورة مايو كأحداث ودنوباوي في أم درمان، وجزيرة «أبا» العتيدة في أواخر مارس ومطلع أبريل ١٩٧٠ والتي انتهت الى ردع حركة التمرد في تلك الجزيرة ومصرع الهادي عبد الرحمن عند محاولته الهرب الى حدود أثيوبيا .

أما الحزب الشيوعي السوداني فقد استمر تابعوه في محاولة التشكيك في أهداف ثورة مايو بالنسبة لبعض الجماهير السودانية عقب اعتقال عبد الخالق محجوب . هذا الى جانب ممارسته أبشع أنواع التخريب والتصدي لمعارضة أي هدف نبيل وقيامه بتوزيع المنشورات المعادية للمبادئ التي من أجلها قامت ثورة مايو .

وقد أشار الرئيس نميري في خطابه الذي ألقاه يوم الجمعة ١٢ فبراير ١٩٧١ الى ما قام به الحزب الشيوعي السوداني في تلك الفترة من تاريخ السودان الحديث بقوله :

«لقد أدركت الثورة وأدركت معها جماهيرها الواعية منذ اللحظات الأولى لبدء المسيرة الطافرة أن هناك من يؤذيهم وضوح الرؤيا وعمق الشعارات والاهداف التي أعلنتها الثورة وسارت في خطاها وما كنا نحسب أن يشارك الرجعية في دورها المتخلف قوم فتحت لهم الثورة صدرها واثمنتهم على أهدافها واعتمدتهم رفاق درب وزملاء نضال اعتقاداً منها بأنها فئة تؤمن بالأرض وتقدر آمال هذه الامة وتحترم أخلاق هذا الشعب ومثله ولكن الغفلة تعمي ضمائر الرجال والغدر يأكل القلوب وعبادة الاشخاص تورد موارد التهلكة . ففي وضوح النهار ظلت هذه الفئة تعادي جماهير الشعب وثورته الاشتراكية الصاعدة تخاذلاً وتشيظاً ونشراً لروح اليأس ونقداً للإنجازات الجريئة الحاسمة التي حققتها ثورتكم معكم وبكم والتي هتفتم لها من الأعماق . لقد استباحث هذه الفئة لنفسها أن تضع مصلحة الوطن في كفة وتضع مصلحتها في كفة أخرى عبادة للذوات الفانية ووضعها لها فوق المصالح العليا للشعب

وكيانه وأهدافه . لقد ظللنا يا جماهير شعبنا نسمع صوتاً نشازاً يحاول الرجوع بانجازاتنا وتطلعاتنا القهقري . صوتاً لا ينادي باسم السودان ولا يهتف بشعار أصيل من شعاراتكم الثورية ، صوتاً لا يوقف ضميراً ولا يدعو الى هدف يتخذ من التهريج الرخيص وسيلة الى عرقلة مسار ثورتكم الصاعدة ويسمي نفسه الحزب الشيوعي السوداني» .

وقد تعددت جرائم الحزب الشيوعي في تلك الفترة وقد عدد بعضها الرئيس جعفر نميري في بيانه السابق منها :

١ - أن الحزب عارض ميثاق طرابلس (١) كجبهة قومية وسياسية واقتصادية وعسكرية تزلزل من شأن العدو المشترك وتهز أوصال الامبريالية العالمية التي طالما اكثر الحزب الحديث عنها ثم تبناها في آخر المطاف .

٢ - ممارسة التخريب في أجهزة الإنتاج بشتى الصور منها خلط العمل النقابي وتعبئته للاصطدام بالعمل الإداري في المؤسسات والمصالح والوزارات وإشاعة جو من الفوضى يعطل الإنتاج ، وإصدار الجرائد السرية والإشاعات المدمرة والأكاذيب الضارة وبسط جناح الخسوف والرعب على المسؤولين وعلى جماهير الشعب بهدف ممارسة التخريب وإجهاض الثورة وبذر الوهم في نفوس الناس .

٣ - لقد بلغت بهم الخيانة والشعب السوداني في هذه المرحلة الحرجة في معاداة الاستعمار أن يطبعوا المنشورات المدسوسة المسمومة الكاذبة الحاقدة ويقذفونها أمام السفارات لتنتقل محتوياتها الى بلدانها ويرسلون تقارير ومنشورات عدائية الى بعض السفارات والحكومات

١ - الوحدة القومية مناقضة للفكر الشيوعي لذلك جاء ميثاق طرابلس واتفاق بنغازي ليطلقا عاصفة الحزب الشيوعي السوداني من عقاليها .. الخ تراجع مجلة الحوادث اللبنانية عدد خاص عن السودان ٢٠-١٢-١٩٧١ .

بالخارج ليتضح لها من حديثهم أن الوضع في السودان مختل وأن عليهم أن يجمدوا معه كل المصالح والاتفاقيات .

٤ - قاموا بجمع بعض طلاب جامعة الخرطوم ودفَعوا بهم إلى الهتاف بهتافات معادية للثورة أثناء دخول الرئيس نميري للمؤتمر الذي عُقد بالجامعة لمناقشة مشكلة الجنوب ونعني به مؤتمر «اركويت» .

٥ - قاموا بنفس العمل يوم استقلال الأبيض . ففي الوقت الذي وقف فيه أكثر من مائة ألف فارس على ظهور الإبل وصهوات الخيل مع المواطنين والمواطنات الذين جاءوا من مختلف القرى والمدن للمشاركة في الإحتفال بهذا اليوم العظيم إندس بعض أفراد الحزب الشيوعي وأخذوا يهتفون هتافات معادية للثورة وهم يرفعون لافتة الحزب الشيوعي السوداني المزعوم .

ورغم هذا كله فقد استطاع الحزب الشيوعي السوداني أن يتسلل إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة . فكان له من بينهم أولئك النفر الذين حاولوا فيما بعد القيام بانقلاب فاشل لم يستمر سوى ٧٢ ساعة فأدى إلى الإطاحة باليسار كله والقضاء عليه ونعني بهم بابكر النور وهاشم العطا وفاروق حمد الله . وقد قام النميري عند إكتشاف أمرهم بإصدار قرار باقصائهم عن المجلس يوم ١٦ نوفمبر ١٩٧٠ .

وقد تبين فيما بعد أن الثلاثة كانوا أيضاً ضد فكرة الإتحاد التي كان الحزب الشيوعي السوداني يروج لها بين جماهير الشعب السوداني . قامت حكومة الثورة بإبعاد الثلاثة الذين ثبت للمجلس علاقتهم بالحزب الشيوعي وعاملتهم على أنهم أعضاء سابقين بالمجلس فكانت تصرف لكل واحد منهم مرتبه كاملاً كما لو أنه ما يزال عضواً عاملاً في مجلس قيادة الثورة . وخصصت لكل منهم سيارتين ومنزلاً إذا كان لا يملك منزلاً على أن يكون المنزل لائقاً به كعضو سابق بمجلس الثورة . باختصار لقد عاملت الثورة الثلاثة معاملة طيبة فلم تمنع أحدهم مثلاً

من السفر للخارج بدليل أن فاروق حمد الله قد سافر مرتين بمعد
إقصائه .. في المرة الأولى سافر «لنيروبي» وبقي بها ثلاثة أسابيع ثم عاد
للخرطوم . أما المرة الثانية فقد سافر فيها الى لندن .
أما بابكر النور فقد سافر الى القاهرة وبرفقتة زوجته ثم سافر من
القاهرة الى لندن .

أما هاشم العطا فقد كان دائم السفر من حين الى آخر الى «وادي
بشارة» في منطقة شندي شمال السودان وهي مسقط رأسه .
ولا يفوتنا أن نذكر أن التحقيقات التي أجريت بعد الانقلاب الفاشل
قد كشفت أن هاشم العطا وبابكر النور وحمد الله قد تمكنوا خلال
وجودهم في المجلس من إدخال عدد من العناصر الشيوعية الى الكلية
الحرية ليتخرجوا ضباطاً صالحين لتأدية دور في المستقبل اذا دعت
الضرورة اليه . وتبين أن عدداً من هؤلاء قد شاركوا في المحاولة
الانقلابية الاخيرة وكان لهم دور فيها . كذلك تبين أن حمد الله حينما
كان وزيراً للداخلية قد استطاع أن يدخل عدداً كبيراً من العناصر
الشيوعية الى أجهزة المباحث والمخابرات وقد أقصت الثورة هؤلاء ،
وسجنت بعضهم بعد عودة النميري الى السلطة .

كما لا يفوتنا أن نذكر انه خلال فترة اقصاء الثلاثة المذكورين قام
أبو القاسم ابراهيم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية باستدعاء
الرائد هاشم العطا وخلال اللقاء الذي تم بينهما بمبنى وزارة الداخلية
أبلغ أبو القاسم هاشم العطا أن ثمة معلومات تفيد بأنه يقوم بنشاطات
وتحركات وفي هذا خطورة عليه . لكن هاشم العطا حاول أن ينفي
ذلك بشدة .

يقول الاستاذ محمد حسنين هيكل في مقال له بصحيفة الاهرام عقب
انقلاب هاشم العطا الفاشل ما يلي : «سقط الحزب - أي الشيوعي -
في تناقض عدائي مع السلطة الوطنية في السودان الممثلة في ثورة ٢٥

مايو بقيادة جعفر نميري ... كان عليه أن يحل تناقضها معه بالعمل السياسي وبالتفاعل معها ولكنه اختار برغم تحذيرات مخصصة له طريقاً آخر» (١) .

ورغم أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد ناقش عبد الخالق محجوب حينما أُبعد إلى القاهرة في مارس ١٩٧٠ من أنه - أي عبد الخالق محجوب - يخطئ خطأ فادحاً إذا تصور أنه يمكن أن يقوم حكم شيوعي في السودان لأن ذلك معناه لو حدث بأية مغامرة أن الدم سوف يسيل حتى الركب في الخرطوم (٢) . وقد حدث فعلاً ما خشيه الرئيس ناصر ولكنه لم يقدّر له أن يراه حيث لاذ بالرفيق الأعلى في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

ويعقب محمد حسنين هيكل على اشتراك الحزب الشيوعي السوداني في المؤامرة بما يلي : «لقد كان مذهلاً أن يقوم حزب شيوعي بالمشاركة في إنقلاب بالدبابات والمصفحات والمدافع الرشاشة وكلها بالقطع لا يمكن أن تكون التعبير الديموقراطي عن مصالح الطبقات الكادحة خصوصاً إذا وجهت إلى سلطة وطنية» (٣) .

-
- ١ - الأهرام ٣٠-٧-١٩٧١ مقال بصراحة للاستاذ محمد حسنين هيكل .
 - ٢ - المرجع السابق .
 - ٣ - المرجع السابق .

القائد البطل

شاب يتمثل كل من ينظر الى وجهه قسما وجه السودان كله ،
فملامحه تعبر عن ذلك الامتزاج التاريخي للعنصر العربي مع العنصر
الافريقي .

لا يختلف إثنان في أنه ثوري محترف . فقد حاول الخلاص من
الحكم الحزبي بالسودان ثلاث مرات فقدم للمحاكمة في مرتين منهما ،
وعُزل من الجيش مرة أخرى لوضوح تلك الميول فيه . وأخيراً عقد
العزم على التغيير متأثراً بحركة الثورة العربية مستلهما من شخصية
الرئيس ناصر بعض الصفات ، مدركاً أن السودان لن تنهياً له فرصة
التطور المطلوب « ما لم تشحذ الثورة همة الوطن » .

ولا يختلف إثنان - أيضاً - في أنه شاب ينتمي بكل الصدق الممكن
الى أبناء هذا الجيل العربي الذي حمل الهم القومي عبر العشرين سنة
الأخيرة بكل أعصابه وأحلامه . وقد ظهر لمن درسوا شخصيته أنه قد
هضم التجربة الوطنية السودانية فصمم على وضع الأمور في موضعها
الصحيح . فكان له ما أراد .

ذلك هو الرئيس البطل جعفر نميري الذي كان عمره يوم قاد ثورة

الخامس والعشرين من مايو لا يزيد عن التسعة والثلاثين ربيعاً مملوءة كلها
بالعمل والعزيمة والثقة بالنفس .

كان مولده في مدينة أم درمان وأسرته كلها تتجمع في حلة «ود
نوباري» وهو حي من الأحياء التي تغص بها المدينة آنذاك .
وكان والده المرحوم محمد نميري يعمل بأحدى الشركات التجارية
في مدينة مدني عاصمة مديرية النيل الأزرق . أما جده الشيخ فقد كان
مؤذناً لمسجد المهدي في الحلة .

وما كان ذلك الوالد يظن أن ذلك الابن سوف يكون البطل المخلص
لأمة بأسرها من طغيان الطائفية والحزبية التي تردى السودان فسي
عهودها . وما كانت الأسرة كلها تظن أن «جعفرا» هذا سوف يضع
للشعب السوداني الزعامة القومية التي كان يفتقدها ..

وقد دخل في صباه الباكر الخلوة .. وحفظ القرآن ثم دخل كتاب
الهجرة «بأم درمان» . وبعدها تلقى تعليمه الأوسط بمدرسة مدني
الأميرية الوسطى ثم تعليمه الثانوي «بحتوب» حيث اشترك في إضرابات
سنة ١٩٤٦ المعروفة والخاصة بسفر الوفد السوداني للتفاوض بشأن
تقرير مصير البلاد وهي إضرابات أدت إلى إغلاق المدرسة سبعة شهور
كاملة .

وهنا ندع الأستاذ محمد سليمان سفير السودان في القاهرة والذي
قدر له أن يكون أستاذاً للبطل في اللغة الانجليزية عام ١٩٤٥ بمدرسة
مدني الأميرية الوسطى أن يحدثنا عن هذه الفترة من حياته فيقول :
«كان دائماً على رأس الطلبة إذا فكرنا في رحلة مدرسية .. ينظم
ويقود جميع الطلاب . كان يتطوع للأعمال التي تحتاج إلى جهد .. أردنا
أن نقيم ملعباً لكرة السلة بما يعرف اليوم على نطاق واسع باسم الجهد
الذاتي فكان في مقدمة المتطوعين للبناء .

كان يتميز بروح المثابرة إذا لم يعرف شيئاً يبيد إستعداداً كاملاً

للعلم .. والتعليم والتدريب ليتقن ما لا يعرفه أو ما لا يجيده، وبعد روح
المثابرة في صفاته تجيء المروءة .. كان يتدخل لنصرة الضعفاء ممن
الطلاب اذا اعتدى عليهم زميل قوي» (١) .

وروى القائد البطل جانباً من ذكرياته حينما كان طالباً في مدرسة
«حتوب» الثانوية فقال :

«فوق كوبري أم درمان ذكرت أحداثاً قديمة . في عام ١٩٤٦ فتح
الاستعمار وأعوانه في القاهرة كوبري عباس على الطلبة الأبطال الذين
كانوا ينددون بمهزلة المفاوضات وسقط الضحايا بالعشرات أما نحن
في السودان فقد تشكل وفد ليسافر الى القاهرة ليقول كلمة
السودان في المفاوضات .

وأردنا أن نودع الوفد ونسكب في أذنه مطالبنا . وكنت في مدرسة
حتوب الثانوية بأم درمان ، فخرجنا في مظاهرة اجتذبت إليها كل
المدارس حتى بلغنا كوبري أم درمان كنلة من خمسة آلاف فاذا بالكوبري
مغلق .. أراد الأنجليز أن يحولوا بيننا وبين توديع الوفد في محطة
السكة الحديد .. ووقف القمندان الانجليزي «سكوت» بوجهه الأحمر
مختلاً فوق صهوة جواد .. ذلك أحد جلادينا .

وفي ثوان جمعنا الحجارة .. أمضى أسلحة العزل .. وقذفت
«سكوت» بحجر في رأسه فتغطى وجهه الأحمر بالدم والتف حوله
أعوانه . وهتافاتنا زئير ، وانذار يتجدد . وبعد دقائق فتح الكوبري
ومشينا فوقه الى الخرطوم وودعنا وفدنا» .

لم تكن ثورة الحجارة التي أسالت دم القمندان الانجليزي هي
الثورة الوحيدة في حياة نميري في فترة الصبا . إنها مجرد علامة من

١ - مجلة آخر ساعة عدد خاص عن السودان اكتوبر ١٩٧١ مقال « من
ثورة الحجارة الى حرب السويس » .

علامات طريقه الطويل الذي قطعه ومشواره الذي مضى فيه .
فقد كانت عقوبة اصابة «سكوت» نقل المدرسة من أم درمان الى
مدني التي تبعد عنها حوالي مائة وخمسة وسبعين كيلومترا وفي ذلك
يقول القائد البطل :

«تشردنا سبعة شهور .. ولكن هذا التشريد والابعاد لم يفقداني
حماسي لقضية بلدي .. اكثر الحوادث عمقا في أيام المدرسة بعد ذلك ..
حادثة إضراب قمنا به احتجاجا على تعسف السلطات الانجليزية في قمع
المظاهرات الشعبية التي اندلعت في الخرطوم وعطبرة ووادي مدني
وبور سودان والأبيض . كان ذلك عام ١٩٤٨ (١) . كنت أحد زعماء
الاضراب .. وقد استطاعت السلطات الانجليزية أن تحصر عددنا فاذا بنا
١٢ طالبا .

وسمعا أن قرار فصلنا قد وقع الحاكم العام .. وذهبنا للمدرسة
لنتلقاه ففوجئت بالناظر وكان اسمه «مستر براون» يستدعيني الى غرفته
ويقول لي إننا لن نفصل لأنه لا يجب أن تفقدني مدرستي كرياضي يحرر
لها النصر في مباريات كرة القدم وألعاب القوى . وكان مستحيلا أن
يستثيني وحدي ... ولهذا توسط للطلبة ال ١٢ .. ثم قال :
- ومن هنا أطلب إليك أن تعاهدني على ألا تتدخل في السياسة
ولدت بالصمت : خشيت أن أعاهد الرجل الذي يحبني ولا أفسى
بالعهد .

قال الناظر ضاحكا :

- على كل حال .. أنت في آخر سنة دراسية عندنا . وسوف
نستريح منك بعد أشهر» .

١ - كان ذلك الاضراب الذي تزعمه النميري لمناهضة الجمعية التشريعية .

ولنا أن نقول بعد ذلك ان المصادفات في حياة البطل تكاد تكون
المصادفات أن مولده كان في أول يناير عام ١٩٣٠ وكان استقلال
السودان - كما هو معروف - في أول يناير كذلك ..

مايو عام ١٩٤٩ وقامت ثورته المباركة في نفس اليوم الخامس والعشرين
من مايو ولكن بعد مضي عشرين سنة على ذلك . وفي نفس اليوم
الخامس والعشرين من مايو - أيضاً - عام ١٩٦٩ تمت ترفيته الى
رتبة لواء .

أتم «نميري» تعليمه الثانوي ثم التحق بالكلية الحربية السودانية
ساعده على ذلك إستعداده العسكري ولياقته البدنية نتيجة لممارسته
أنواعاً من الرياضة البدنية كان أشهرها بالنسبة له «كرة القدم» التي
مارسها خلال تعليمه الثانوي وفي نادي «ودنوباري» الرياضي . وكان
خلال فترة تعليمه بالكلية الحربية يتخذ من الشاعر المصري الكبير باعث
النهضة محمود سامي البارودي مثلاً يحتذى فظل معجباً به حتى الآن .
تخرج «نميري» من الكلية الحربية برتبة ملازم في عام ١٩٥٢ وعمل
فور تخرجه قائداً لفصيلة من الفصائل لمدة ثلاث سنوات بالقيادة الغربية
بعاصمة دارفور ونعني بها مدينة «الفاشر» نقل بعدها الى القيادة الشمالية
قائداً لاحدى سرايا الأسلحة الثقيلة ومكث بها عامين نقل بعدها لسلاح
المدرعات واعتقل أثناء ذلك بسبب بعض الحوادث داخل الجيش تعارض
الحكم فأحيل الى الاستيداع بعد شهرين من اعتقاله . وظل في
الاستيداع تسعة عشر شهراً منع خلالها من العمل والحركة معا . فقد
وضع تحت رقابة شديدة . وكان عبد الله خليل رئيس الوزراء آنذاك
يحذر خطره وأصحابه ويوصي بمراقبتهم أينما ساروا أو تحركوا .
وقد شعر «نميري» في تلك الفترة بما يشبه الاختناق الشديد

وتجمعت الثورة في صدره وهو يرى أن أول فاتحة عهد الاستقلال
تصبح تلك الضغوط على العناصر الوطنية من أبناء السودان . وحين
وقع الانقلاب العسكري توقع «نميري» أنه سيعود إلى موقعه في العمل
العسكري ، ولكنه لم يعد حتى توسط له بعض الضباط الوطنيين .
فعاد إلى الخدمة العسكرية ولكن على ألا يغادر الخرطوم إلى أي مكان
آخر إلا بأذن وكأنه إستيداع .. مقنع .. بالزي العسكري .

ولا يفوتنا أن نذكر أن «نميري» قد عاش في فترة الاستيداع
ظروفاً معيشية قاسية إذ كان يتقاضى ستة وعشرين جنيهاً فقط هي ثلثي
مرتبه آنذاك يدفع منها خمسة عشر جنيهاً أجرة منزله الذي يسكنه ويعول
أسرة مكونة من سبعة أشخاص .

وفي سنة ١٩٥٩ بعد حدوث إنقلاب داخلي في القوات المسلحة كان
من نتائج تعديل المجلس الأعلى رقي «نميري» إلى رتبة نقيب . وكان
عمله بالقيادة الجنوبية في منصب أركان حرب للامداد والتموين ثم نقل
إلى حامية الخرطوم كقائد ثان للكتيبة الأولى حتى قامت حركة أكتوبر
سنة ١٩٦٤ .

يقول الرئيس جعفر نميري في معرض ذكرياته عن تلك الفترة بعد
انتهاء مدة الاستيداع ما يلي :

«جعلتني هذه العودة ثائراً على العسكريين ، وقد كان يمكن أن
أعتبرهم قدوتنا في الثورة متناسياً أنهم لم يثوروا إنما أجروا عملية
تسليم وتسلم ثم طمعوا في كراسي الحكم . كان يمكن أن أعتبرهم
قدوتنا لولا أن منهجهم في الحكم ، مهما كان الثمن أو الوسيلة في الحكم
كان «إتهازياً» هدفه البقاء» (١) .

١ - المصور العدد ٢٣٣٢ - ٢٠ يونيو ١٩٦٩ : ساعات الخطر في ثورتي
الرابعة .

ولقد كان «نسيري» في حركة أكتوبر عام ١٩٦٤ دور هام من ناحية قصد بها القضاء عليها وهي في المهدء إذ حدث أن أذرت الهيئة الحاكمة الضباط الكبار عن الحكم ويضعوا ميثاقا يسلموا به كل السلطات الدستورية للشعب . وقد حددت تلك القوات لهم وقتا لذلك مدته أربعة وعشرون ساعة . وفي نفس الوقت قامت تلك القوات بحاصرة رئاسة القوات والقصر الجمهوري والاماكن الهامة بالخرطوم بواسطة كتيبة مشاة وكتيبة مدرعات لمنع ضرب الحركة . وقد كان من بين الذين اشتركوا مع «نسيري» في تلك العملية اللواء خالد حسن عباس .

لم تسر حركة أكتوبر ١٩٦٤ إلا وتقرر بعدها نقل النقيب جعفر نسيري للقيادة الغربية بصفة مؤقتة كعقاب له لما قام به . وفي ذلك يقول :

«وحين نقلوني الى جوبا فرحت ظناً مني انني في جوبا أستطيع أن اتحرك والتقط أنفاسي ، وأدبر أموري ، ولكنني فوجئت بالأوامر تلاحقني ، ستصل الى الخرطوم مجموعة من الضباط الذين طُردوا من الجيش في حوادث الخرطوم . تقول التعليمات : ممنوع عليك يساً نسيري أن تلتقي بهم ، ولو حييتهم فالفصل عقوبتك ، أنت لم تعد الى الخدمة الا بتحفظ فلا تغامر بمستقبلك .

ألقى قائدي بالتعليمات في وجهي .. وكان في رأسي خواطر أخرى . كنت أفكر لماذا لا اكسب هذا القائد ، لماذا لا أغريه بالثقة بي وتحت جناح الثقة أستطيع العمل .. وكان هذا هو الحل الوحيد . فقد كان القائد يقدم عني تقريراً سرياً مرة كل شهر (!) وأعطيت كل طاقسي وحماستي للعمل وإذا بالتقرير السري يتحول من النقيض الى النقيض ، وإذا بالقائد يطلب لي رتبة رائد فوراً حتى ألحق بزملائي الذين عطلتني

عنهم عقوبة الاستيداع وكان له ما طلب» (١) .
خلال تلك الفترة زار الرئيس السابق الفريق ابراهيم عبود مدينة
واو وهناك التقى بنميري وقال له : أن ثناء قائدك عليك جعلني أحس
إنني كنت مضللاً فيما سمعت عنك ! ونصحه يومذاك أن يسير فسي
طريقه الجديد وألا يفكر في الثورات والمؤامرات .
ونام «نميري» ليلتها والأحلام السعيدة ترفرف على عينيه . كيف لا
وقد استطاع بذلك أن يكسب جولاته الأولى التي خطط لها ونعني بها
جولة كسب ثقة الرؤساء .

ولم يكن غريباً بعد هذا أن يكسب جولة ثانية . فعندما صدرت
الأوامر بنقله الى حامية الخرطوم أمضى هناك ثلاثة شهور في مراقبة ما
يجري داخل الحامية فلاحظ أن بعض وحدات الحامية تتمتع بدلال خاص
عند الرئيس ونائب القائد العام . وكان ثمة قائد كتيبة يتعامل مع ضباطه
وجنوده بصرامة ، ولا يقيم وزناً لقانون أو لائحة اعتماداً على صداقته
الشخصية التي كانت تربطه بنائب القائد العام . فكانت تلك التفرقة
سبباً في شحن الصدور بالسخط .

وتصادف أن كُلف «نميري» بأن يعد يوماً رياضياً للكتيبة بمناسبة
زيارة نائب القائد العام لها وتوزيعه جوائز الفائزين . فوجد «نميري»
في ذلك العمل فرصة لكسب ثقته ، فأضنى نفسه في التجهيز ، والاعداد
لذلك اليوم . وكانت فرصة هامة له استطاع خلالها أن يحتك بالجنود
والضباط .

وصف «نميري» نتيجة ذلك اليوم بقوله :
«نجح اليوم نجاحاً جعل قائد الحامية يطالب بتعييني قائداً ثانياً

للكتيبة ، وأصبح الميدان خاليا لي حين قام بإجازته السنوية فأصبحت قائداً في غيبته وكنت قد تعرفت على كل آلام الجنود والضباط وقررت أن أعمل بسرعة لكسب حبهم .

وقد كان في تلك الكتيبة حوالي عشرين ضابطاً للاستخبارات يقومون بتهديد كل من في الكتيبة على اعتبار أنهم أصحاب كلمة مصدقة ونفوذ لا يوصف . فما كان من «نميري» إلا القيام بإصدار أمر بنقلهم إلى أماكن متفرقة ، وسرح بعضهم من انتهت عقودهم . فقبل هذا العمل منه بالفرح وإزداد بذلك تلاحمه وتداخله بالجنود . ولكن هذا لم يكن كافياً لمثله . ففكر في إيجاد وسيلة تمكنه من الدخول في خفايا صدور هؤلاء الجنود والضباط والوقوف على ما يدور في رؤوسهم . فوضع برنامجاً للتدريب خارج المدينة . وهناك حيث معسكرات التدريب ومضارب الخيام وبين أحضان الطبيعة يتصرف الإنسان على سجيته فيضع نفسه في ميزان صحيح . ولكن رئاسة القوات رفضت الاقتراح بشدة لأنها كانت تخشى على نفسها من أية تحركات . فألح «نميري» في طلبه مستغلاً من ثقة الرؤساء فيه سبيلاً لتحقيقها فصرحوا له بالتحرك على أن يقوم بالتدريب سريتان على الأكثر . واستقر رأيه على اختيار منطقة تبعد عن أم درمان بأربعين كيلومتراً .

وفي ليالي السمر أو « الونسنة » كما ينطقها أهالي السودان كان «نميري» خلال تجاذبه أطراف الحديث مع جنوده وضباطه يقوم بعملية تصنيف لهم في صمت . فكان فيهم الثائر والمتحفظ والسلمي . وطبعاً كان لقاءه مع الصنف الأول . أما الصنف المتحفظ فقد بذل «نميري» معهم جهداً لاغرائهم بالتخلي عن ذلك التحفظ . وتلك مزية عرفت فيه . ونعني بها « قدرته البالغة على التأثير والاقناع طواعية بغير كلفة » أو بعبارة أوضح وأصدق أنه كان يملك الثقة ويعطيها ، وهي خصلة واحدة تجتمع فيها خصال شتى ، يصعب إحصاؤها .

بعد أن اتمت الكتيبة تدريباتها عادت الى الخرطوم وعاد معها
« نميري » ولكنه عاد بحصيلة لا بأس بها من النفوس الثائرة . عاد بعد
أن أوجد مجموعة لا يستهان بها من الضباط بدأت تتحدث بلغة الثورة ..
لغة الرغبة في تحقيق أحلام الشعب السوداني الذي خرج من طاحونة
الحزبية ليقع في طاحونة العسكريين لاسيما وأن رائحة الفضائح
العسكرية بدأت تزكم الأنوف .

لقد كان « نميري » يرى أنه لم يكن من حسن التخطيط أن يتحدث
مع جنوده بأفكاره وأفكار أصحابه لأن في ذلك عدم ضمان لكتمان
السر . فآثروا أن يعاملوهم معاملة نموذجية .. ضبط وربط وإنسانية
وتعاطف . واحترام مهما كانت درجته في طابوره فألتف نتيجة لذلك
حولهم جنودهم وأحسوا أنهم لون جديد من الضباط .
وبدأ « نميري » وصحبه حينذاك يوسعون اتصالاتهم بالضباط ،
وفي كل اسبوع كان ينضم الى تنظيمهم ضابط أو اثنان لأنهم كانوا
يدققون في الاختيار هذا من ناحية ، أما الاخرى فإنه لم يكونوا حتى
ذلك الوقت يملكون خطة تحتاج الى تنفيذ فوري .

باختصار كانت تلك اللقاءات لا تزيد عن كونها حواراً مفتوحاً يدور
حول آلام الشعب السوداني والبحث عن الطريق السوي لتحقيق آماله .
فاضطرتهم تلك الحوارات الى الدراسة .. دراسة المشاكل ودراسة
المبادئ والنظريات والتطبيقات من حولهم ، واتفقوا في النهاية على أن
الاشتراكية هي الكفاية والعدل وهذان هما جناحان يمكن ان يطير بهما
شعب السودان الى آفاق الرخاء والكرامة . كذلك وضعوا في اعتبارهم
أن للسودان طبيعته الخاصة به ولهذا حرصوا على أن يكون التطبيق
الاشتراكي فيه مما يناسب ظروفه .

وبينها « نميري » وصحبه يخططون إنذلت ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ، لقد
كانت ثورة رائعة فقد بدأها الشعب وأشعل نارها بدماء شهدائه .

وكان « نيري » في تلك الأيام بمدرسة أركان الحرب بام درمان
يلتزم جنود فرقة ولا يفارقهم . ولكنه عندما علم أن الحكم العسكري
يريد أن يضرب الشعب أجرى إتصالات سريعة ببعض زملائه الضباط في
الخرطوم فانفقوا على التحرك بسرعة لحماية الشعب من العدوان عليه ،
ولذلك عندما أصدرت قيادة القوات المسلحة أوامرها للضباط والجنود
بتفريق المظاهرات بإطلاق النار لم يلب « نيري » وصحبه تلك الأوامر
القاسية .

وبدأت المظاهرات تأخذ طريقها الى التسبيح لأنها لم تكن مخططة ولا
ذات برنامج فخشي « نيري » وصحبه أن تتبدد فقرروا التدخل بصورة
إيجابية فزحفوا من معسكر الشجرة وقاموا بمحاصرة القصر الجمهوري
وأرسلوا مطالبهم الى الحكومة العسكرية يطالبونها بالتخلي عن الحكم
فورا وتركه للمدنيين لأن هذا هو مطلب الشعب . ومن أجله قامت هذه
المظاهرات وظلوا على حصارهم طوال النهار والليل وفوهات مدافعهم
مسددة الى القصر . وأخيرا جاءهم الرد بأن الحكم العسكري قد قبل أن
يجلو عن الحكم .

فعاد « نيري » وصحبه مع فرقهم الى مواقعهم بعد أن سلموا
الشعب مقاليد أموره .

وحتى تلك الحادثة لم يكن « نيري » وصحبه قد خططوا للمشاركة
في حكم البلاد . واضعين نصب أعينهم أن مطلب الشعب هو الديمقراطية
الليبرالية كرد فعل للكبت الذي عاناه في فترة الديكتاتورية العسكرية .
فكان له ما أراد . فاكتفوا بالمشاركة في حوار جبهة الميثاق الوطني .
ذلك الميثاق الذي كان بالدستور أشبه .

ولا يفوتنا أن نذكر « لنيري » موقفه البطولي حينما بُعث به الى
مدينة « توريس » في الضفة الشرقية للنيل على الحدود المتاخمة لكينيا
وأوغندا وهي معقل من معاقل المتمردين . . منها إنطلقت شرارة تمرد

الجنوب في أغسطس عام ١٩٥٥ هذا الى جانب انها تحتضن اكثر الغابات كثافة وتعتبر مرتعا خصيبا لوحوش الجنوب المقترسة .

وقد توقعت حكومة السودان يومذاك الا تسمع عن «نميري» بعد ذلك حتى ولا صوت استغاثة لأنها منطقة منقطعة عن العالم تماما . ولكن خاب ظنهم فقد سمعوا من «توريت» أشياء عنه لا تخطر على بالهم . لأن العادة جرت على أن الضابط العظيم في أي منطقة يصدر الأوامر ويقوم غيره بتنفيذها ولكن «نميري» فاجأ كل الضباط والجنود عندما خرج بنفسه يقود القوات التي تحارب المتمردين بل ويجوس الغابات والأحراش المليئة بالحيوانات المقترسة لمدة اثني عشر يوما ويتسلق قمة جبل «ديتو» الشهيرة والتي تتمركز فيها قوات الجنوب المتمردة على سلطة الدولة . وتغص تلك القمة بمخازن الأسلحة التي يستخدمها المتمردون .

لقد استطاع (نميري) خلال المدة التي قضاها قائدا لقوات الضفة الشرقية «بتوريت» في المديرية الاستوائية أن يعيد الأمن وأن يحطم أسطورة من أساطير المتمردين وقلعة نشاطهم الرئيسي التي كانوا يظنون انها في حرز حصين نظرا لتوغلها في الأدغال وبعد المواصلات عنها .

مضت ثلاثة شهور على ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤ الا أن «نميري» فوجيء بأبعاده خارج السودان في شكل منحة دراسية عسكرية بالولايات المتحدة الأمريكية للتخصص في أركان حرب القيادة . وخلال اقامته بالولايات المتحدة كان شغوفا بأخبار بلده . . . ينتظر رسائل الأصدقاء بشغف ولهفة . يتابع صحف السودان التي تصله تباعا من الأصدقاء أيضا . وهناك كان الحزن يطبق على نفسه عندما بدأ يعرف أن الذين سلموهم مقاليد الأمور بالسودان قد خانوا الثقة وان الحزبية بدأت تعود سيرتها الأولى من ناحية البحث عن المكاسب والمغانم والآثراء على حساب الشعب .

وفي عام ١٩٦٦ عاد « نميري » من بعثته الدراسية بعد أن حصل على ماجستير في العلوم العسكرية وتولى العمل في القيادة الشرقية .
عاد « نميري » الى وطنه الحبيب والثورة مختمة في رأسه ، ومعالم الوعي بمبادئهم وتوسيع قاعدتهم . أما زملاؤه الضباط فقد بدأوا في نشر الانضمام اليهم على أساس ان الشعب سوف يرفض تدخلهم بعد ان اكنوا بنيران التجربة الأولى . . تجربة الحكم العسكري أيام عبود ، ولكن « نميري » رغم كل ذلك ظل على يقينه من أن القوات المسلحة هي وحدها التي تستطيع الثورة تستطيع أن تطيح بالحزبية وتضع في كراسي الحكم الكفاء المتخصصين الشرفاء من أبناء السودان .
وطوال هذه الفترة التي كان « نميري » ينشر فيها الوعي الثوري

بين الجنود وزملائه الضباط كانت الرجعية في السودان تعمل جاهدة ما استطاعت لابعاده عن السودان في شكل لا يدفع الى الشك . فكانت وسيلتها التي تتذرع بها في كل مرة هي البعثات الدراسية العسكرية خارج السودان فقد أختارته ضمن أول بعثة عسكرية سودانية سافرت الى مصر ١٩٥٤ لدراسة الطيران في بليس بقصد انشاء سلاح للطيران بالقوات السودانية ولكن هذه البعثة الغيت بالنسبة له وحده بعد شهرين دون سبب ظاهر .

كذلك حاولت الرجعية الحاكمة أن تبعده عن السودان فاختارته مع زميل له للسفر الى القاهرة لثاني مرة في عام ١٩٦٤ لتلقي فرقة اركان حرب في كلية اركان حرب القوات المصرية المسلحة . ولكن بعد أن انتهت الدفعة فترة تأهيلها صدرت تعليمات من السودان بتأخير بداية الدراسة بكلية أركان الحرب لذلك التحق هو وزميله بمدرسة قادة الألوية بالدقي بالقاهرة ولكن لم يمض أسبوع واحد حتى استدعي بإشارة غربية من رئاسة القوات المسلحة السودانية فسافر الى السودان مرة

أخرى .
ومما لا شك فيه أن الرجعية كانت تقصد من وراء تلك السفريات
المتعددة «للميري» خارج السودان أن تحول دون تمكنه من بذور
الثورة والتخطيط للقضاء عليها .

ورغم كل هذا كان « نيري » يخطط للثورة خلال عمله بالقيادة
الشرقية ويعمق جذوره بالضباط والجنود ولكنه بينما يخطط للضربة
القاضية فوجيء بظائرة تهبط في مطار « القصارف » وفيها عميد حضر
لتسليم القيادة الشرقية منه . وعقيد آخر أخذه تحت حراسة مشددة الى
الخرطوم . ولما سأل « نيري » عن السبب قيل له : إنهم قبضوا على
ضابط اسمه خالد حسين الكد من مركز تدريب المستخدمين وقد قام
بمحاولة لقلب نظام الحكم وانه قد وضع اسمه على رأس مجلس قيادة
الثورة .

وعندما وصل « نيري » الى الخرطوم وجد أن الحكومة قد قامت
باعتقال بعض اصحابه لأن الضابط الذي حاول الانقلاب قد أهداهم
مناصب في حكومته . ومكث (نيري) معتقلا مع زملائه لمدة اسبوع
رهن التحقيق . فلم يثبت ضدّهم أي شيء فأطلق سراحهم . وقد تردد
يومذاك أن الصادق المهدي رئيس الوزراء كان وراء ذلك التدبير بقصد
التخلص من العناصر الوطنية أو اربابهم على الأقل اذا ما فكروا في
القيام بحركات مناهضة للحكومة .

لقد أدت تلك التهمة الى إبعاد « نيري » عن جنوده وضباطه في
القيادة الشرقية . فأصدروا أوامره بنقله الى القيادة الجنوبية . وهناك
كان « نيري » يحس بأنفاسه تكاد تختنق . فقد كان بالمنطقة نوع من
الأشجار تسبب له حساسية في الشعب الهوائية . فأحيل الى الكشف
الطبي الذي قرر بأن المنطقة لا تناسبه من الناحية الصحية ، فاقنتت
رئاسة القوات فقامت بنقله الى مدرسة المشاة في « جيت » التي ظل بها

فترة من الوقت ..

لم يوقف ذلك النقل « نيري » عن الاتصال ببقية زملاء . فقد كانت اجازاته التي ينزل فيها الى الخرطوم موعداً للمقابلات للإعداد للثورة . وفي إحدى هذه الاجازات قرر القيام بثورته فبدأ الاتصالات النهائية بباكر عوض الله ليتولى رئاسة أول وزارة بعد إعلان الثورة . يقال ان اصحاب الرسائل فئتان .. وكذلك الثوار من اصحاب الرسائل فئتان :

فئة تظهر في أوانها لأن اسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان .

وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهي التي تظهر لتحقيق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها وله منها معين يذل صعايبها ويهدي الى طريقها .

وبطنتنا الخراب الرئيس « نيري » نموذج عزيز المثل لأولئك الطموح اصحاب الرسائل الذين يتفقد بهم اسباب زمانهم ومكانهم وأسباب ندماتهم ودعوتهم .

تهيأ له الزمن ، وتهيأت له رسالة الثورة فلماذا لا يؤديها ويضطلع بها . فالثورة قد ملأت رأسه وقلبه .. بل ملأت شرايينه ومسامحه . ففي الليلة التي اتفق فيها مع أصحابه على القيام بالثورة نام في بيته بالخرطوم نوما هادئاً رغم فترات من الأرق التي تصاحب أمثاله ممن وطدوا العزم على القيام بثورة .

ومع أضواء الفجر الأولى قام من نومه وأدى صلاة الفجر ثم ابتهل الى الله أن يوفقه بالنجاح فيما ينويه بينه وبين نفسه وبعضاً من زملائه الأبطال . وتصادف أن استيقظ معه في تلك اللحظة شقيقه الذي طلب منه أن يوصله بسيارته حتى موقف الاتوبيس السريع نظراً لأنه كان ينوي السفر في ذلك الصباح الباكر .

فانطلق به « نميري » بسيارته حتى يتمكن شقيقه من اللحاق
بالاتويس وهناك ودعه بحنان غريب • ألم يكن « جعفر » ينوي نية قد
يدفع حياته ثمنا لها !

واتجه « نميري » بعد ذلك بسيارته الى مشارف الخرطوم حيث
أيقظ أحد أعوانه وأبلغه واجباته المنوطة به في يوم الثورة • وعند
الساعة السادسة والنصف صباحا كان « نميري » عند مبنى رئاسة
القوات • وقد صور شعوره في تلك اللحظة بقوله : « .. خفق قلبي
بشدة • أكثر ما دخلته كان استدعاء للتكدير أو المحاكمة ، أصدا
اصوات في أذني لم تضع مع السنين : يا نميري أعيننا عليك فلا تغامر
بمستقبلك كل حركة لك مرصودة عندنا والتلبس ثمنه رقبتك » (١) •

كان نميري في تلك اللحظة يرتدي ملابسه المدنية وهو يقتحم
بسيارته البوابة الرئيسية فلم يعترضه أحد من الحراس حتى وصل الى
داخل القيادة فعلى الدم في عروقه لأن هذه الصورة التي وجد القيادة
عليها جسمت في مخيلته أن أراضي بلاده غدت مباحة، وكيف لا ! ألم يجد
مبنى رئاسة القوات بلا حراسة في حين انه أحق الاماكن بالحصانة
والامان !

وقد كانت تلك الغفلة طريقا للنصر كما كانت من اسباب تدفق
شحنات ثورية جديدة الى قلب « نميري » •

وحوالي الساعة السابعة صباحا كان « نميري » قد بلغ السلاح الطبي
في مبنى القيادة قاصداً من وراء ذلك الوقوف على قوة الحراسة التي
تحميه فوجدها لا تزيد عن بوابة القيادة الرئيسية • وحتى لو قابله أحد
الحراس فقد كان مستعداً بالجواب لأن زوجته كانت لها بعض التحاليل

الطبية وفي هذه الحالة سوف لا يستغرب الحارس - اذا صادفه - عن سؤاله عنها .

عاد « نسيري » الى بيته في « ودنوباري » حوالي الثامنة صباحا ورأسه تمتلئ بالأحداث فتصنع النوم على غير عادته في تلك الساعة . وقد فعل ذلك حتى يفر من الحديث مع من بالمنزل . وفي التاسعة صباحا طلب من زوجته أن تعد له طعام الافطار لأنه لديه مهمة عاجلة قد تستغرق النهار كله .

ثم خرج « البطل » الأسمر من منزله حتى بلغ منزلا آخر كان الصمت يلفه كما يلف غيره في حي الامتداد المواجه لمطار الخرطوم . وما أن سمع من بداخله صوت الاقدام القادمة حتى فتح الباب . كان ذلك المنتظر بالبيت هو صديقه بابكر عوض الله . ولم يكن البيت بيته وإنما هو لأحد أقاربه المسافرين خارج الخرطوم .

وهناك أعدا جهازا للتسجيل ليعدا عليه البيان الاول للثورة وكذلك القرارات الأولى التي سيذيعونها بعد نجاح ثورتهم . فأخذوا يسجلونها ويعيدون التسجيل مرات .

وبينما هما على ذلك الحال لحق بهما فاروق عثمان حمدالله . فأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث حول الوزارة التي كانوا قد اعدوا كشفها باسماء وزرائها . وقد طمأنهم بابكر عوض الله الى انه يثق بكل اسم لانه توخى في اختياره الكفاءة والوطنية والتخصص .

استغرقت تلك الجلسة ما يقرب خمس ساعات بعدها تسلم بابكر عوض الله التسجيلات وتواعدا على موعد اللقاء في الثالثة من فجر اليوم التالي .

يقول الرئيس « نسيري » : « خطر بيالي أن أرى وقع الثورة القادمة في نفوس الناس ، فبدأت جولة استطلاعية وشمس الخرطوم لاهبة . واجتذبت عدداً من الاصدقاء الى الحديث عن الفساد ، وقلت لهم انهم

كطلائع لهذا الشعب المظلوم يجب أن يقوموا بدورهم إذا قامت القوات المسلحة بالقضاء على هذا العهد . فقال أحدهم في يأس : « وهل تستطيع القوات المسلحة أن تقضي على هذا العهد ؟ إنه راسخ الاقدام في كل مكان بأعوان هم بأعينهم جمعية منتفعين . وقلت اطارد ياسهم : ان شعبنا ثائر على الاوضاع . . فقالوا : وماذا يملك الشعب وهو غير مهياً للعمل ؟ قلت : يملك مساندة قواته المسلحة اذا تحركت لتحريره من الفساد . فلاذوا بالصمت وتبادلوا النظرات فقلت ملوحاً بشكل الثورة القادمة : فاذا تضافر المدنيون ذوو الصفحات المشرقة والأيدي النظيفة مع القوات المسلحة فإن الشعب سوف يندفع الى تأييدهم بكل قوته وعنفوانه وغضبه . . فاستطردوا في الصمت . وقلت بحزم : سأعمل سريعاً على أن تتحرك القوات المسلحة » (١) .

ويستمر الرئيس «نميري» قائلاً :

« ودعوني وهم لا يصدقون انني استطيع . انهم يعرفون انني حاولت من قبل واخفقت ويعرفون انني قائد مدرسة المشاة في جيبت . . مسيرة ٥٠٠ كيلومتر عن الخرطوم وانني قبل هذا مراقب الخطي لأنني خطر ما جئت الى الخرطوم إلا باجازة وأنا فيها ضيف على أخي ! » (٢) .

بعد ذلك الحوار أحس « نميري » بأنه تحدث عن الثورة اكثر مما يجب . فصدق هذا الإحساس في قلبه ناقوس الخطر اللامرئي . وتوهم انه مراقب فما كان منه إلا الاتجاه الى مكتب شركة الطيران السودانية ليوهم كل من يراقبه بأنه سيقوم بحجز تذكرة للسفر الى القاهرة . وهناك بمكتب شركة الطيران إلتقى بأحد الضباط المسافرين الى موسكو ضمن وفد من كبار الضباط . ومنه عرف موعد السفر لأنه ينوي أن يقوم

١ - المصور العدد ٢٣٣٢ - ٢٠ يونيو ١٩٦٩ .
٢ - نفس المرجع السابق .

بتوديعهم وفي هذا تمويه مزدوج يعيد الطمأنينة للنفس . ثم عاد الى البيت .

وفي المساء طرقت الباب زائر عزيز لديه هو الراحل منير حمد . لم يكن منير ضمن التشكيل السري الذي أعده « نميري » وكانت تصحبه في هذه الزيارة زوجته . فوجد « نميري » الفرصة سانحة ليدفع زوجته لتجلس معها فيختلي هو بصديقه . وخلال تلك الجلسة بين الصديقين ، طلب « نميري » من الصديق أن يسهم في عمل ما بداخل القوات المسلحة ، لتخلص من الحزبية التي انتهكت الشعب وعشت بمقدراته . فكان رد الصديق : إن هذا العمل يحتاج الى وقت طويل . ثم قال « لنميري » : ألم تتب عن الثورات ؟ فقال له والسري يمور في صدره كحجم بركان على وشك الانفجار :

— إسمع يا منير .. إنني الآن اتخبت الرجال الذين يساعدونني ، فهل أنت مستعد .

فقال بغير تردد : أنت تعرفني . حينذاك طلب منه « نميري » أن يستيقظ من نومه قبل الفجر لأنه سيحدثه بالتليفون . غادر الزائر وزوجته بيت « نميري » . وبعد مغادرتهم حضر الضباط فقام « نميري » ليقول لزوجته أن عنده مهمة تستغرق الليل كله وودعها وهو يقول لها :

— اذا طالت غيبتني أكثر من هذا فلا تسألني عني . وانطلق الثائر العظيم بسيارته وخلفه سيارة أخرى بها بقية الزملاء متجهين الى (خور عمر) حيث بداية الزحف العظيم وحيث تنتظر فرقة المدرعات وفرقة المظلات اللتين كانتا تقومان بتدريبات بالذخيرة الحية . وهناك إلتقى « نميري » وصحبه بالراحل خالد حسن عباس وبعض الزملاء في التنظيم السري . وقد طلب بعض جنود محطة الإشارة الذين كانوا على علم بما يدور أن يشاركوا في الزحف العظيم فلم يمانع

« نيري » • وتحركت قوة عددها ٥٠٠ جندي لتفتح صفحة جديدة في تاريخ السودان • وقد يقال أن هذا العدد ربما لم يكن كافياً لنجاح الحركة ، ولكن الذي طمان قائدها أن المعلومات التي لديه تفيد بأنهم لن يصادفوا مقاومة في أي مكان لأنه قد أعد للأمر عدته كما يقال في الحكم والأمثال •

وقد اختار « نيري » كلمة سر للشوار هي « النصر لنا » واطلقوا على الزحف « عملية الخلاص » • وفي اللحظة التي بدأ الجنود يصعدون إلى مدرعاتهم قال لهم « نيري » :

— لا تنسوا لحظة أنها معركة حياة أو موت • وإذا القي القبض على واحد منا فلا يعطي لأحد فرصة قتلة أو ابتزاز أسرار التشكيل منه • ومن يقع منا فليقتل نفسه على الفور •

صحيح أن كلمة القتل ترجف الأبدان • ولكنها في قاموس الذين يؤمنون بقضايا الشعوب والمبادئ لا يكون لها هذا الوقع وذلك المعنى •

وكانت الليلة ليلة المولد النبوي وكانت مدينة أم درمان التي لا بد من أن تجتاز القوات طرقاتها مليئة بالثريات الكهربائية بمناسبة الاحتفال العظيم • فهي طريقهم حتى عبورهم الجسر إلى الخرطوم • فلم يكن أمام القوات إلا الانتظار إلى ما بعد منتصف الليل حتى تنطفئ آخر تلك الأضواء • وقد كان •

وفي الساعة الثانية إلا ربعاً من فجر يوم ٢٥ مايو كان « نيري » يخرج من منطقة « خور عمر » قاصداً رئاسة القوات ليفتح صفحة ناصعة بيضاء في تاريخ بلاده •

كانت مدينة أم درمان تغط في نومها في تلك اللحظات ، وقبة المهدي تلمع بسبب الأضواء التي تلتف حولها ولا تنطفئ أبداً • قلة من الناس

هنا وهناك كانت تلتفت لترى هدير المدرعات ثم تضي لحال سبيلها .
لم يدر بخلد تلك القلة من الناس ان قواتهم المسلحة قد تحركت لتنهي
حكم الأحزاب ذلك لان المناورات التي تمت في رئاسة الجمهورية قبل
أيام قد أوحى لهم أن الحكم قد إستقر الى الأبد وانه رسخ الى آخر
الدهر .

يقول الرئيس « نميري » مصوراً شعوره في تلك اللحظات :

« عبرت كوبري أم درمان بخاطر جديد .. لن أمر عليه مرة أخرى إلا
إذا غيرت مجرى التاريخ .. أو قدمت روجي فداء ما آتوني وأخذنا
طريق الجامعة فهو أقصر الطرق الى رئاسة القوات . ودخلنا الرئاسة
وكأننا وفد صداقة بالتحية استقبلتنا القوات هناك » (١) .
لم يكن هناك من سبيل للاتصال بأحد . فقد تأكد « لنميري » أن
خطة قطع أسلاك التليفونات قد تمت وان كان التليفون الذي بين وحدات
الجيش المختلفة حول الخرطوم كان يعمل لأنه منفصل عن شبكة
الخطوط التليفونية العامة . فقام « نميري » بالاتصال بمختلف الوحدات
يسأل عن الأخبار فكانت تصله من زملائه أن كل شيء يسير وفق الخطة
المتفق عليها .

بدأت المصفحات والمدرعات تذرع شوارع الخرطوم تطرق الأبواب
وتقبض على من خانوا الشعب وتؤمن مداخل المدينة . إستسلمت
الخرطوم للشوار .

كان « نميري » في تلك اللحظات يتعجل الصباح ليقفز الى الأفق
قبل الفجر ليرى الشعب الأصيل وهو يشاهد ثورته المباركة . لقد
استطاع « نميري » أن ينقل سخط ذلك الشعب المكتوم الى ثورة أو الى

بركان يقذف بالحجم في وجه اعدائه •
وأرسل « نميري » الأشرطة الى الاذاعة • التي بدأت ارسالها مع

الصباح •
وفجأة سمع « نميري » صوته في الاذاعة فتخيل في تلك اللحظة انه
يختزل عمره في ثوان • فأخيرا قد كتب الله له النجاح • وجاءه الضباط
يحملون البشري • الناس في الشوارع يتعانقون مع الجنود وهم فوق
دباباتهم ومدركاتهم • ثم سمع « نميري » بعد ذلك صوت بابكر
عوض الله يعلن عبر الاثير برنامج الثورة وقراراتها التي تقضي بحل
مجلس السيادة والجمعية التأسيسية والأحزاب السياسية التي كفسر
الشعب بها •

إن هذا كله لا بد أن يختفي الى الأبد ولا بد أن تبدأ صفحة جديدة •
وظل « نميري » في مكتبه برئاسة الاركان يرد على دقات التليفون
التي يسير عبر اسلاكها صوت أعضاء التشكيل مهئين القائد بنجاح
الحركة • ان كل ما تراءى « لنميري » يومذاك يحمل معنى واحداً •
هو أن الشعب إحتضن الثورة لأنها ثورته •

وخلال تلك اللحظات وبعد أن تحقق « لنميري » نجاح ثورته سرح
بأفكاره عبر أسوار الماضي يسترجع كلماته التي قالها لصديقه الرائد
منير حمد عندما ذهب ليوقله ليشارك في الزحف العظيم • وكانت تلك
الكلمات هي : وهل الثورات جرائم تتوب عنها يا منير ؟ ومن هذا المنطلق
شدته ذكرياته الى جعبة مليئة بالثورات • • ثورة الحجارة حينما كان
طالباً • • تلك الثورة التي أسالت دم القمندان الانجليزي مستمر
« سكوت » ثم فترة إحالته الى الاستيداع تسعة عشر شهرا خلال وزارة
عبدالله خليل وغيرها من الثورات التي سبقت ثورته الكبرى •

إن انجازات الرئيس « نميري » الانسان لا تقل عن انجازاته في
ميدان الثورة والاصلاح ومهما يقال فيها فهي لا تمثل سوى قطرة من

محيط... لأنها فاقت كل الحدود وتجاوزت كل تصورات العقل والخيال.
وحسبنا قصة واحدة رواها وزير التربية والتعليم الاستاذ محيي الدين
صابر لمدوب مجلة آخر ساعة حيث قال :

وطلب مقابلة الرئيس وكان هذا في بداية الثورة . فقال له سكرتيه : لا
بد من أن تقيد إسمك في سجل خاص وتنصرف ثم تتصل بك ونخبرك
هذا الذي تقوله ... إنني مصمم على مقابله الآن ، ولن اسجل اسمي .
فرد عليه السكرتيه بقوله : إن البروتوكول يحتم عليك ذلك . فزادت
ثورة التاجر الصغير وأخذ يصيح بأعلى صوته ... أنا لا أفهم معنى
البروتوكول . أنا لم أسمع عنه من قبل . هل هذه بدعة جديدة دخلت
الى السودان .

وسمع الرئيس « نميري » الرجل وهو يصيح فخرج بنفسه ودعاه
الى مكتبه .. وفي نفس اللحظة وأمام التاجر الصغير أمر بإلغاء إدارة
البروتوكول ونقل الموظفين الذين يعملون فيها الى الإدارات الأخرى (١)
ذلك هو قائد الثورة البطل الرئيس « جعفر نميري » الذي سمعنا
وصف سجايه وملكاته العقلية ممن عاشروه وعرفوه عن كثب ، كما قرأنا
هذا الوصف باقلام من تناولوا ثورة مايو بالكتابة والتحليل . فرأيانهم
يتفقون على سجايه خلقه وملكات عقله اتفقهم على سماته وتكوين
جسده ، كأنهم ينظرون الى ملامح لا تخطيء العين رؤيتها ولا يختلف
الناظرون إليها في وصفها . فما من ترجمة منها لم تبرز في الكلام عنه
صفات الفطنة والنجدة وعفة اللسان وصدق الإرادة . وكأنما ثبتت هذه
الصفات في نفوس عارفيه ، لأنها جاوزت أن تكون صفات مقدورة

وأصبحت أعمالاً متكررة يؤيد بعضها بعضاً فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها وهي قد أصبحت فعلاً في عداد الأعمال المشهورة ولم تبق في حيزها من عالم السجيا والاخلاق ، وسنحت لها منادح الظهور والثبوت مرات في جملة المواقف التي وقفها في حياته فكان في كل منها أمين الجهر والسر خبيراً بعمله غيوراً على الضعفاء حريصاً على واجبه متطوعاً بما يزيد على الواجب كلما دعت إليه ذلك دواعي النجدة والانصاف . فالرجل قضية حية متفقة المقدمات والتائج ، شخصية قوية جليلة لا موضع فيها لغوض أو التواء .

مفتاحها اذا التمسنا المفتاح لبعض زواياها انها :
« شخصية عزيز قوم غضب لكرامته وكرامة قومه » فقام بثورته في الخامس والعشرين من مايو عام ١٩٦٩ .

ذلك هو القائد البطل الذي تهيأت له البيئة وتهيأ له الزمن ، وتهيأت له الرسالة .. رسالة الإصلاح فلا حاجة بالمترجم لحياته الى غير الاشارة القريبة والدلالة العابرة لقارئه : هناك فانظر .. هاهو ذا صاحب تلك الثورة المباركة قائماً حيث ترى من حيث نظرت إليه متمتعاً بحب شعبه العريق .

وحسبه من حب الشعب له أنه في محاولة الانقلاب الاخيرة ضده زحف الشعب والجيش نحو القصر الجمهوري ليخلص قائده من المؤامرة والمتآمرين . واستطاع الشعب السوداني الأصيل أن يطيح بالمؤامرة ويعيد قائده المحبوب بعد إثنين وسبعين ساعة عاشها ذلك الانقلاب الغادر كما يعيش الأطفال الذين يولدون مشوهين ويموتون بعد لحظات . فكان ذلك أول حدث في تاريخ الثورات يعود فيه القائد بعد إنقلاب يحدث ضده فجأة .. يعود بفضل جماهير شعبه الواعية التي ترى أنه لا بديل لهم سواه في تحقيق الأمانى الوطنية والاشتراكية العربية النابعة من طبيعة السودان وطبيعة أهله .

تلال من المشاكل

يخطيء الإنسان اذا تصور أن قيام ثورة في بلد من البلدان معناه اختفاء كل الأخطاء والانحرافات بلمسة سحرية .. وفتح صفحة جديدة ناصعة البياض فور إعلان تلك الثورة .

يتضح هذا بجلاء من استقراء تاريخ الثورات على جملتها لأنها في شهورها الاولى تكون دائما متخمة بالمسؤوليات والأعباء إلى جانب محاولاتها العديدة للتخلص من قيود الماضي المتوارثة حتى تنطلق بعناصرها وطاقاتها الواعية الى الامام ونحو مجتمع أفضل .

وثورة السودان قد حالفها النصر بعد فترة طويلة من الردة والرجعية في البلاد وعندما تحركت قواتها لم يكن لدى القائمين بها دراسة كاملة وافية لكل المشاكل .

وصحيح أن طابعها العام كان شديد الوضوح منذ قيامها .. ومنذ اذاعة بيانها الأول ، وهو الديمقراطية الواعية الاشتراكية وصحيح أيضا انها استطاعت ان تفصل بين الرجعية الطائفية والتقليدية ، وبين جماهير الشعب العامل أصحاب الحق الشرعي في الثورة .

ولكن الشيء الملموس - أيضا - تلك التلال من المشاكل التي واجهت قادتها عقب توليهم السلطة في البلاد وهي مشاكل تحتاج بدون

شك الى الجهد والدقة والى الشجاعة والقوة .
ونستطيع أن نلخص في ايجاز تلك المشاكل وأنواعها فيما يلي بالقدر
الذي يسمح باتسام الصورة اللازمة لذلك .

١ - الثورات المضادة :

إن من أخطر الأمور التي واجهت أي ثورة من الثورات هي عناصر
الثورة المضادة ، أما بالنسبة للسودان فتتضح تلك الثورة المضادة في
رجال الطوائف المستفيدين من إستغلال الدين ، والى جانبهم قادة ونواب
الأحزاب التقليدية الذين جعلوا الحكم مغنما وفائدة وارتبطت مصالحهم
بالرأسمالية والتنظيمات الرجعية المساندة لهؤلاء .

وهذه القوى الرجعية لا تنحصر - عادة - في حدود الأفراد أو
الجماعات فقط ، ولكنها تأتي من الخارج بدافع استعماري يعتمد أساسا
على القواعد الداخلية الممالة له والمتمثلة في بعض الهيئات والأفراد من
الذين أبعدتهم الثورة أو الذين ما زالوا يعملون تحت ألوان من التمويه
المختلفة .

ويلاحظ الباحث المدقق أن هذه الأنواع من الثورات المضادة لا تهدأ
أو يصيبها اليأس ، لأنها تنتهز كل فرصة تتاح لها فتطعن وتكذب وتسيء
وتضلل . وقد تعرضت ثورة السودان لبعض هذه المحاولات في إبان
قيامها .

ومن قبيل تلك الثورات المضادة تلك التشهيرات التي رموها بها وهي
أنها ملحدة ومعادية للدين الإسلامي الحنيف ، ولكن سرعان ما طاش هذا
السهم بعد ان اكتشف البسطاء من الناس بأنفسهم أنها ثورتهم وما جاءت
إلا لتحقيق لهم مطالبهم العاجلة في الماء وفي التعليم وفي العمل ، وتعمل
على تأمين مستقبلهم ضد الأمراض الإجتماعية المتعددة .
كذلك قامت محاولات مضادة أخرى بعد قيام الثورات الثلاث ثورة

٢٣ يوليو بمصر ، وثورة أول سبتمبر الليبية ، وثورة ٢٥ مايو في السودان . وحاولت تلك الثورات المضادة أن تحدث الواقعة بين مصر الثورة ووزارتي الداخلية والارشاد القومي والهيئات والتنظيمات الشعبية جعل من نجاح هذه المحاولات سرا با صعب المنال .

وبعض أصحابه ومن ورائهم الحزب الشيوعي السوداني في التاسع عشر من يوليو سنة ١٩٧١ والتي قدر للرئيس البطل جعفر نميري أن يقضي عليها في مهدها بمعاونة شعب السودان العظيم .

إن مثل هذه المحاولات لن تتوقف .. فكلما نجحت الثورة في أداء رسالتها كلما عمل الاستعمار على تعويق مسيرتها عن طريق أعوانه وأنصاره .

وهذه القضية لا تخفى على القائمين على الثورات ولذلك لا نريد أن نمضي في هذا الحديث الذي يمكن أن يتجدد كل يوم بلهجة أو أسلوب آخر .

٢ - مشكلة الجنوب :

إن أول ما يجب علينا أن ندركه من هذه الأمور هو أن هذه المشكلة التي واجهت السودان في مديرياته الجنوبية مشكلة معقدة ترجع لأسباب طبيعية تتعلق بجغرافية القطر وتكوينه البشري من جهة ، ولأسباب تاريخية أهمها السياسة الانفصالية التي كانت متبعة في القطر قبل الاستقلال من جهة ثانية ، ولأسباب سياسية معاصرة على رأسها تلك الأخطاء التي وقعت فيها الحكومات الوطنية المتعاقبة منذ الاستقلال لاسيما إبان الحكم العسكري الذي جثم على البلاد من عام ١٩٥٨ الى ١٩٦٤ . يضاف الى ذلك كله التدخل الأجنبي ودوره الفعال في تأجيج

نار الفتنة في البلاد وعرقلة سيرها في طريق الوحدة والتقدم (١) .
وقد ثبت ذلك الدور في التحقيقات التي تمت بواسطة لجنة التحقيق
في حوادث الجنوب برئاسة القاضي قطران قبل قيام ثورة الخامس
والعشرين من مايو .

وقد بلغت مشكلة الجنوب الذروة أيام الحكم العسكري لأنه اتبع
في معالجتها سياسة البطش والارهاب فتعقدت المشكلة أضعافا مضاعفة .
ورغم إن مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في الخرطوم في مارس
١٩٦٥ قد حاول الوصول لحل أو اتفاق إلا انه لم يوفق إلا في حالة
واحدة هي عودة عدد كبير من قادة الجنوب الذين كانوا قد هاجروا من
أقاليمهم في فترة حكم عبود العسكري وعلى رأسهم « وليم دينج » أحد
مؤسسي حزب الوحدة الافريقي السوداني « سافو » .

وختم المؤتمر جلساته الى إحالة مشكلة الجنوب الى لجنة « الاثنى
عشر » التي مثلت اثني عشر حزبا من الشمال والجنوب . ثم أحيست
المشكلة الى مؤتمر الأحزاب واللجنة القومية للدستور .

وقد كانت نتيجة لتلك المساعي الطويلة أن تم الاتفاق بين الأحزاب
المختلفة عام ١٩٦٨ على تفاصيل الحل الاقليمي الذي كانت قد أجمعت
عليه من حيث المبدأ في مؤتمر المائدة المستديرة وبناء عليه فقد جعلت

١ - تراجع مجلة الايكونومست بعددها الصادر ٢٣-١١-١٩٦٣ وكذلك
صحيفة الصنداي تلفراف بعددها الصادر ١٠-١١-١٩٦٣ فقد اشارتا الى
دور اسرائيل في ذلك . ما قاله المستر « فيليكي أوناما » وزير داخلية أوغندا
في البرلمان الاوغندي يوم ٣-٣-١٩٦٥ عن الجهود الكبيرة التي تبذلها بعض
الامم لعرقلة المساعي الصادرة المبدولة من قبل جمهورية السودان ومن
قبل أوغندا أيضا للتوفيق بين الفريقين المتخاصمين في جمهورية
السودان ... وهذا مثل واحد من أمثلة سعي العملاء الأجانب لهدم
السلام والاستقرار في افريقيا ..

مواد الاتفاق المذكور ضمن « مسودة الدستور الدائم » التي كان من المقرر عرضها على الجمعية التأسيسية لإجازتها بوصفها جزءا أساسيا من الدستور الدائم . ولكن الجمعية التأسيسية قد حلت فيما بعد وقبل أن تتمكن من اجازة الدستور المرتقب ثم تعرضت - وتعرض السودان نفسه انتهت بقيام ثورة الخامس والعشرين من مايو (١) .

إزاء هذا كله كان لا بد لحكومة الثورة من الاسراع في دراسة مشكلة الجنوب ومحاولة إيجاد الحل المناسب لها . ولذلك أعلن الرئيس جعفر نميري عقب نجاح الثورة بيانا خاصا بمشكلة الجنوب ، جاء فيه :

«إن الثورة تدرك الأبعاد الحقيقية لمشكلة الجنوب وهي مصممة على المضي قدما لإيجاد تسوية نهائية لتلك المشكلة التي تحملت أعباءها جماهير شعبنا في جنوب البلاد وشمالها . إننا جميعا ندرك الجذور التاريخية لقضية الجنوب والتركة المثقلة التي ألقاها على كاهلنا جميعا الاستعمار البريطاني الذي درج عن قصد وتدير على رسم خطة التطوير غير المتكافئ بين شقي البلاد في الجنوب والشمال » .

وقد أعلن الرئيس « نميري » في سياق هذا البيان قرار الثورة الخاص بالوضع بالنسبة للجنوب فيما يلي :

- ١ - إستمرار ومد فترة قانون العفو العام .
- ٢ - وضع برنامج اقتصادي إجتماعي ثقافي للجنوب .

١ - لعبت اسرائيل دورا هاما في عرقلة حل مشكلة الجنوب فتولت توزيع الاسلحة على المتمردين ووزعت المرتزقة من كل لون وجنس ليقوموا بتفذية التمرد عن طريق تدريب عناصر المتمردين على السلاح . وكان من بين هؤلاء المرتزقة رولف شتاينر الذي وقع في أيدي حكومة الثورة ووقعت معه وثائقه التي تؤكد صلته باسرائيل (تراجع الحوادث ٢٠-١٢-١٩٧١) .

٣ - تعيين وزير لشؤون الجنوب *

٤ - تدريب كادر متمرس لتولي المسؤولية *

ثم اضاف الرئيس نميري قائلا :

« وسوف تنشئ الحكومة أيضا لجنة خاصة للتخطيط الاقتصادي

في الجنوب كما سوف تعد أيضا ميزانية خاصة بالجنوب تستهدف رفع

مستواه ليقف على قدميه في وقت قريب » (١) *

وأوضح الرئيس نميري قضية الحكم الذاتي :

في أن سياسة حكومة الثورة في الجنوب ستقوم على أساس من الحكم

الذاتي الإقليمي في نطاق السودان الموحد * وعليه يرجى أن يتمكن

الجنوبيون من إدارة شئونهم المحلية دون تدخل من الخرطوم الا عند

الضرورة القصوى كما يرجى أن يتمكن السودانيون ، شماليون

وجنوبيون ، من العيش في إطار من الوحدة والانسجام ، بدلا من الفرقة

والخصام مما سيكون له - لو تحقق - أسوأ الآثار على الشمال

والجنوب جميعا ، بل على التعاون العربي الإفريقي كذلك في كل مسألة

من المسائل وفي كل مكان من الأمكنة *

وقد أيد أبناء الجنوب هذه السياسة فخرجوا في مظاهرة كبيرة يوم

١٥ يونيو ١٩٦٩ ، للتعبير عن ذلك الامتنان والتأييد * وقد سن الرئيس

« نميري » سنة لهم يعرفها السودان من قبل ، ولذلك كان الرئيس

« نميري » أول رئيس يزور مناطق السودان جميعها لاسيما منطقة

الجنوب * كذلك قرر أن تكون هناك زيارات دورية مستمرة لوزرائه

أيضا والمسؤولين في الحكومة *

وقد زار « نميري » خلال شهور ما بعد الثورة كل مناطق

السودان ...

١ - بيان الرئيس نميري عن الحكم الذاتي الإقليمي للجنوب ٩ يونيو ١٩٦٩ *

وصف الاستاذ أحمد حمروش إحدى هذه الرحلات التي قام بها الرئيس « نيميري » وبعض الوزراء عقب قيام الثورة حيث كان له شرف مرافقتهم فيها بقوله : « .. الناس في شوق لملاقاة قافلة رئيس الجمهورية . وكل قرية أو

مركز أعدت دراسة عن مطالبها . وصدور رجال الثورة والوزراء مفتوحة لاستقبال هذه المطالب .. البعض منها يصدر الأمر بتنفيذه .. ولا تمضي القافلة في الطريق المعبد وحده .. تنجه الى طرق من

تراب .. وتتأرجح مع المطبات الشديدة .. ويقول لي صحفي من المانيا الديمقراطية كان واضح النشاط هو وزميلة أخرى في تصوير الرحلة لتليفزيون برلين : إن حركة رجال الثورة السودانية تبهرني .. يبدو لي إن ما يلاقونه من جهد ، يشحن قلوبهم بالعزيمة للارتفاع بالجماهير الى حياة العصر .. هذه اعظم فرصة أتاحت لي على الطبيعة لتصوير هذا الحشد الهائل من البشر » (١) .

ولأول مرة أخذت الكلية الحربية وكلية الشرطة في إستقبال عدد كبير من أبناء الجنوب وهذا ما لم يعهده الجنوبيون من قبل . ويرى الرئيس نيميري أن النجاح في حل مشكلة الجنوب لا تقتصر آثاره على بناء الوحدة الوطنية السودانية بل تمتد الى النطاق العربي ، ذلك لأن السودان الموحد الذي لا تفرقة بين أبنائه هو التعبير الوحيد عن التحالف الوثيق بين حركة التحرير الوطني وحركة التحرير الافريقية . وقد وضع للثورة بعد أحداث السودان الأخيرة دور اسرائيل في الجنوب لاسيما بعد إلقاء القبض على شتاينر الذي اعترف بدور اميركا

١ - مضر والسودان كفاح مشترك للاستاذ أحمد حمروش كتاب الهلال صفحة ٢١٨ .

وألمانيا الغربية وإسرائيل في تمويل المرتزقة في الجنوب وتشجيع حركة التمرد واستيراد الأسلحة لمحاولة إبعاد السودان عن الخط العربي .
ولم تكف حكومة الثورة السودانية بإصدار القوانين أو بالعفو العام بالنسبة للجنوبيين بل بدأت على الفور في تدريب أعداد كبيرة من رجال الجيش والشرطة والإدارة من الجنوبيين كما تم تنفيذ عدد من مشروعات التنمية في الزراعة والصناعة .

وقد أعلن الرئيس « نميري » في خطابه الذي ألقاه في مدينة واو في شهر سبتمبر الماضي أنه سيشرف إشرافاً مباشراً على كل خطط الوزارات فيما يتعلق بالإنشاء والتعمير في الجنوب . وقال إن الحكومة ستفتح مراكز للتدريب وستنشئ مدارس مهنية في الزراعة والطب البيطري والصحة حتى يمكن لأبناء الجنوب أن يتسلموا مقاليد الحكم الذاتي الإقليمي . وقال إن الطرق يجب أن تكون مفتوحة من بلد إلى بلد . . بين المدينة والمركز والقرية .

لقد بدأ أبناء الجنوب يشتركون ويساهمون ويعملون وبذا قد فشلت المؤامرة البريطانية التي بدأت بعد سنة ١٨٨٥ والتي عبر عنها المفاوض البريطاني في إتفاقية القاهرة فقد أرادت بريطانيا منح جنوب السودان فترة إنتقال مدتها ٢١ سنة بينما نجحت ثورة السودان في عامين في القضاء على ما كان يسمى مشكلة الجنوب أو أزمة الجنوب أو حرب الاستنزاف في جنوب السودان .

٣ - المشكلة الاقتصادية :

من المعروف أن فترة حكم الأحزاب في السودان قد تركت اقتصاداً هابطاً إلى الحضيض وبالتالي قد تسلمت الثورة منها المجتمع السوداني مشرفاً على الإفلاس . هذا إلى جانب النظام الاستعماري الذي مرر بالسودان فترة طويلة من الوقت جعلته إقليماً بلا صناعة ولا طرق

للمواصلات ولا مشروعات للري ولا زراعة متطورة .
لذلك كان على الثورة أن تواجه هذا كله بعقليات ثورية . فاتخذت
التجارية والاقتصادية مع الدول المختلفة ولاسيما الدول العربية الشقيقة .
ووسعت قاعدة القطاع العام وخاصة في مجال الصناعة ، وعملت على
تشجيع رأس المال الوطني ، وغيّرت سياسة السودان من ناحية القروض
الأجنبية فاشتترطت فيها أن تكون للأعمال المدرجة في الخطة وبفوائد
محدودة . كما وضعت حكومة الثورة سياسة جديدة للاستيراد كي لا
تنفق العملات الصعبة على السلع الترفيفية غير الضرورية كما كان يحدث
من قبل .

٤ - الخدمات الاجتماعية الأخرى :

واجهت ثورة مايو مسئوليات كبيرة من ناحية التعليم والخدمات
الصحية لاسيما حينما يعلم القارىء أن وزراء العهد الماضي قد وضعوا
أساس ٢٥ مستشفى لم يبن منها واحد لعدم وجود ميزانيات لها
آنذاك (١) .

أما في مجال التعليم فقد استدعت حكومة السودان في عام ١٩٦١
خبراء عالميين لإصلاح السلم التعليمي فكان رأي هؤلاء الخبراء أن
إصلاح السلم التعليمي يستغرق اثنتي عشر سنة وأنه يتكلف مائة وستة
وخمسين مليوناً من الجنيهات .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الانجليز قد وضعوا للتعليم في السودان
نظاماً فريداً يختلف عن كل نظم التعليم في بلاد العالم وهو .. النظام

١ - مجلة آخر ساعة عدد خاص عن السودان أكتوبر ١٩٧١ .

الأولي ثم الاوسط ثم الثانوي •

أعادت حكومات ما قبل الثورة النظر في مسألة التعليم فكان من رأي آخر الخبراء الذين استدعتهم تلك الحكومات أن اصلاح السلم التعليمي يحتاج الى عشر سنوات وانه يتكلف مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات • فلما تحقق للسودان ثورته أعلن السلم التعليمي الجديد في فبراير ١٩٧٠ ابتداء من اول سبتمبر ١٩٧٠ أي خلال ستة شهور فقط وبتكاليف لم تتجاوز خمسة ملايين من الجنيهات وبالعون الذاتي والجهد الذاتي ، فأقام الناس المدارس وافتتحوا الفصول التعليمية وطبق على الفور مبدأ الالتزام بنقل كل الحاصلين على الثانوية الصغرى الى الثانوية العليا ، أي تحققت المساواة في فرص التعليم وقبل ١٢ ألف طالب و٣ آلاف طالبة وأصبحت ٤٠ بالمئة من المدارس الثانوية العليا و٦٠ بالمئة من المدارس الثانوية العليا أكاديمية •

فإذا كانت ثورة السودان قد اعتبرت الجنوب المشكلة الأولى التي نجحت فيها فمن المؤكد أن التعليم كان يمثل المشكلة الثانية وفي حلها لهذه المشكلة الثانية ما يساعد على الانطلاق في تحقيق التنمية فسي السودان •

لقد تسلمت حكومة الثورة السودانية البلاد ونسبة الأمية فيها تبلغ ٨٣ بالمئة والمقيدون بالمدارس فوق ١٠ سنوات ٣٨ بالمئة • فعملت على فتح المدارس وتشجيع التعليم •

فإن كان التعليم من أبرز ما تميزت به ثورة مايو ، فإن تأميمها المؤسسات والشركات والبنوك الأجنبية في السودان لا يقل قيمة عن إصلاح التعليم •

فمن المعروف أنه كان هناك قطاع صناعي عام في السودان يضم تسعة مصانع فقط قيمة إستثماراتها أربعة وعشرون مليوناً من الجنيهات وبقرارات التأمين آلت للدولة سبعة وثلاثون مصنعاً تبلغ جملة

استثماراتها ستة وثلاثين مليوناً من الجنيهات .
وبذلك أصبحت المؤسسة العامة للإنتاج تضم ستة وأربعين مصنفاً
إيرادات الجمارك وضرائب الإنتاج وتضم ستة عشر ألف عامل وبلغت
خمس وعشرين مليوناً من الجنيهات .
وقد إرتفع شعار ثوري جديد يقول ان هذه مؤسسات إنتاج لا

لتحويل ١٠ بالمئة من العاملين في القطاعات التقليدية ليصبحوا عاملين في
القطاع الصناعي .

كما عملت ثورة مايو على إنشاء ثماني مؤسسات فرعية متخصصة
للأغذية وصناعة السكر والمشروبات والصناعات الزيتية ومواد البناء
والتبغ والصناعات الهندسية وصناعة الجلود والبلاستيك .
وفي خلال عام واحد بعد الثورة سجل إنتاج القطن رقماً قياسياً لم
يعرفه السودان خلال السنوات العشر السابقة وارتفع سعر التصدير
بنسبة ٤ بالمئة وأصبح تسويق المحصول يتم قبل ظهور المحصول التالي،
وأعيد تنظيم شركات القطن فأصبحت أربع شركات تتنافس فيما بينها .

٥ - التنظيم السياسي :

يعتبر التنظيم السياسي للدولة من أكثر المواضيع التي واجهت ثورة
مايو من ناحية الأهمية والحساسية في وقت واحد . فالتنظيم السياسي لا
يمكن التقليل لحظة من أهمية وجوده ، لأنه يوسع قاعدة السلطة التي
يتحمل عبئها كله مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء .
والديمقراطية الاشتراكية ترتبط أساساً بوجود تنظيم سياسي صلب
توفر فيه الديمقراطية والحرية الأصلية .
وقد عقدت ثورة مايو اجتماعات شعبية عديدة في إبان قيامها لتصل

عن طريقها الى النظام السياسي الذي ترضى عنه جماهير الشعب . فكانت هناك وجهتي نظر تلخصهما فيما يلي :

اولاهما : أن يقوم تنظيم سياسي واحد تندمج فيه كل التنظيمات التي أسهمت في العمل الثوري .

وثانيهما : ان تجمع كل القوى الثورية في جبهة ديموقراطية فيها وجهات النظر المختلفة في إطار ميثاق كامل لمرحلة الثورة الديموقراطية في البلاد . ويسيل أصحاب الرأي الى ضرورة طرح ميثاق الثورة الديموقراطية لجماهير الشعب أولاً وإجراء مناقشة عامة على النطاق الوطني حوله ثم تأتي الخطوات التنظيمية لاحقة لهذا العمل الفكري .

وقد تولى الرائد مأمون عوض أبو زيد الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي السوداني ، وهو يعمل خلال هذه الايام جاهداً حتى تستكمل المؤسسات السودانية تنظيمها السياسي وبعدها يعلن الاتحاد الاشتراكي السوداني ميثاقه رسمياً ، وقد تحدد لذلك أول يناير ١٩٧٢ وسيحرص السودان في ميثاق الاتحاد الاشتراكي على تأكيد وحدة شعبي وادي النيل .

وقد قام الرائد مأمون عوض أبو زيد بزيارة للقاهرة هذه الأيام لاجراء محادثات مع قيادات التنظيم السياسي بها . لأن السودان يرى أن مصر لها تجربة رائدة في مجال التنظيم السياسي لا بد من دراستها بعمق نظراً لأهميتها .

ومنذ أعلن الرئيس «نميري» في العيد الثاني لثورة مايو أن هذا العام سوف يشهد إكمال الثورة التنظيمية . شرع السودان في إقامة تنظيم سياسي يضم قوى الشعب العاملة فكان الاتحاد الاشتراكي هو أنسب الصنيع لتحقيق هذا الهدف . وكان أيضاً من الطبيعي للسودان أن يدرس التجربة من ناحية إيجابياتها وسلبياتها حتى يتمكن من الاستفادة من الايجابيات وتخطي السلبيات .

وقد أصبح بعد الدراسات المستفيضة من رجال الثورة السودانية إن
تعبئة الجماهير المناضلة ضمن التنظيم الشعبي على أسس ديمقراطية لن يتم
تحويل أهداف النضال الى واجبات يومية ، ووضع خطة مفصلة تكفل
وقد سأل مندوب صحيفة الأخبار القاهرية الرائد مأمون عوض الله

أبو زيد خلال زيارتها لها ، عن موعد إعلان قيام الاتحاد الاشتراكي
بالسودان ، وعن أبرز ملامح الميثاق الوطني السوداني المقبل . فقال :
«من المتوقع أن يعلن قيام الاتحاد الاشتراكي في يناير المقبل . وعلى أي
حال فهذه مسألة محكومة بانتهاء المؤتمر الوطني الذي يضم ممثلين لقوى
الشعب العاملة من إجازة القانون الأساسي للاتحاد ، وكذلك بانتهاء
اللجنة التحضيرية من إعداد وثيقة الميثاق .. أما عن ملامح الميثاق المقبل
الأساسية فيمكن تحديدها في النقاط التالية :

- تأكيد العلامة المميزة بين شعبي وادي النيل .
- تأكيد إلتواء السودان للأمة العربية وتأكيد تلاحمه مع القارة
الأفريقية .
- النص على أن السودان جمهورية ديمقراطية، السيادة فيها للشعب .
- الرفض التام لطريق التنمية الرأسمالي في بناء المجتمع الاشتراكي .
- تأكيد تحالف قوى الشعب العاملة .
- تأكيد مبدأ الانجاز بمفهومه الإيجابي» (١) .
- وقد وضعت ثورة مايو النظام الذي سيتكون بمقتضاة الاتحاد
الاشتراكي السوداني وهو الانتخاب من القاعدة الى القمة تأكيدا لمبدأ
الديموقراطية وحتى يمكن عن طريق التنظيم الشعبي إحداث التغيير

١ - صحيفة الاخبار القاهرية الصادرة ٨-١١-١٩٧١ .

الاجتماعي المطلوب ، فالسودان هو البلد الممتد من خط الاستواء جنوباً الى الصحراء الكبرى شمالاً فلذلك وجد الاستعمار في الماضي فرصة لتعميق الفرقة بين أبنائه فلا شك أن الاتحاد الاشتراكي السوداني سيكون خطوة هامة لتوحيد السودان داخلياً وبذلك تُخلق القاعدة الاقتصادية الصلبة التي تكفل التصدي لمؤامرات الاستعمار ، والاستعمار الجديد بالذات .

هذه هي بعض تلال المشاكل التي واجهتها ثورة مايو في السودان وعمل قادتها جاهدين على إيجاد الحلول المناسبة لها حتى تضمن الجماهير السودانية حياة هادئة رغدة ترفرف عليها شعارات الكفاية والعدل .



مؤامرة فارشله وإرادة شعبية

عندما تسوء علاقة الاتحاد السوفييتي مع أي صديق من البلاد العربية فالإنسان عندما يبحث عن أسبابها سيجد لا محالة أن المسئول عنها هو الاتحاد السوفييتي نفسه ومن وراءه أعوانه المنتشرون في شكل أحزاب شيوعية سواء كانت علنية أو مستترة . وعندما ساءت العلاقة بين الرئيس «نميري» والاتحاد السوفييتي بعد حادث الانقلاب الفاشل الذي قاده هاشم العطا كان الحزب الشيوعي السوداني بكل امكانياته وراء ذلك .

أما كيف حدث الانقلاب ؟ وما دور الحزب الشيوعي السوداني في تلك المؤامرة ؟

هذا ما سنعرض له في هذا الفصل من الكتاب :

كان يوم الاثنين ١٩ يوليو من الأيام العادية في الخرطوم . . الحر شديد . . والمواطنون السودانيون بملابسهم البيضاء التي تشبه ملابس الإحرام يروحون ويغدون وكانت الحركة في القصر الجمهوري عادية أيضا .

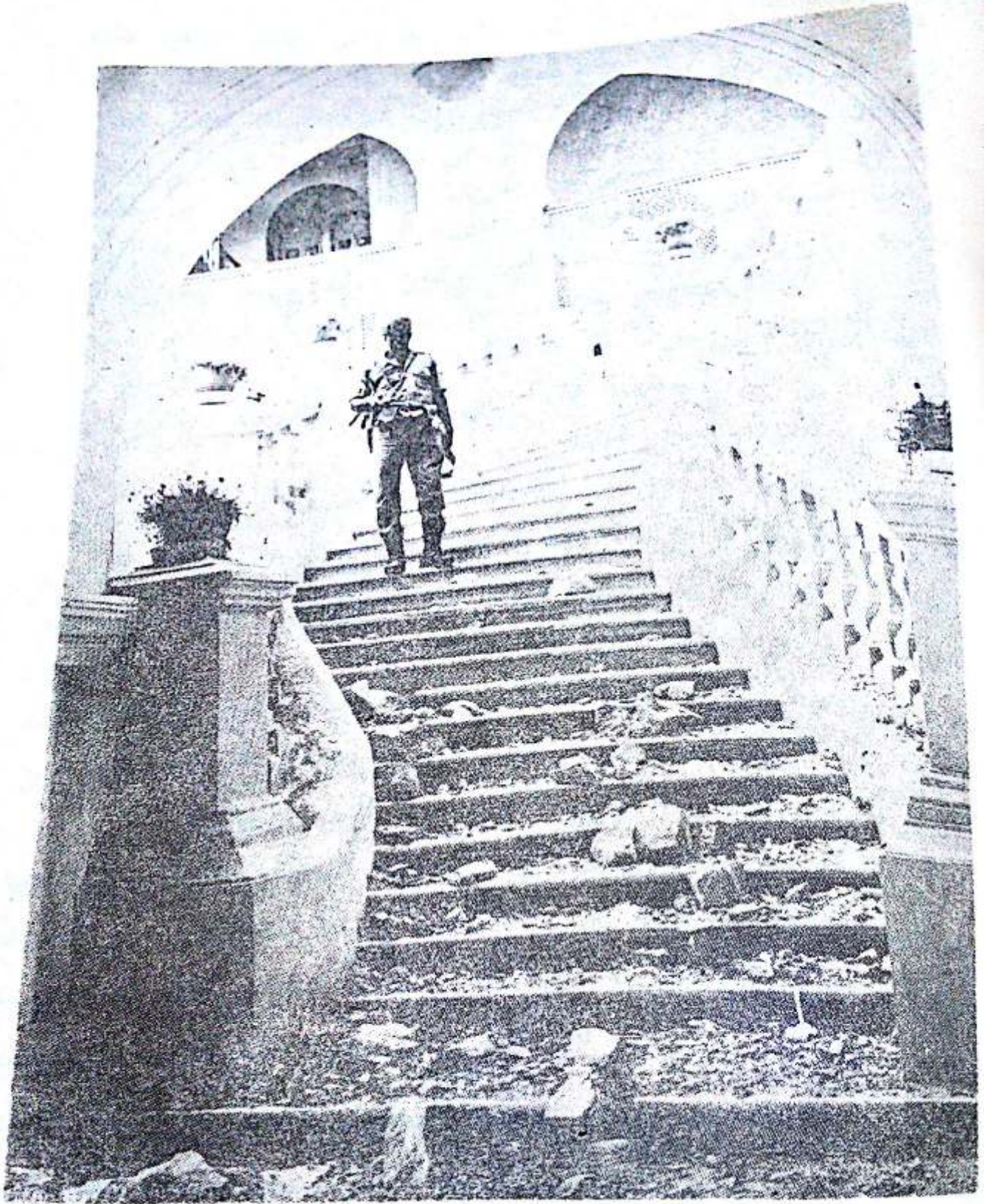
بعد ظهر ذلك اليوم وصل الرئيس «نميري» الى منزله الذي يقع بجوار مبنى قيادة القوات المسلحة ليرتاح من الاجتماع الذي عقده في

مبنى الأمانة العامة لمجلس الوزراء واستغرق بضع ساعات .
كان الاجتماع مرهقا . فالمألوف عن الاجتماعات التي تعقدها اللجنة
العليا للمؤسسات القطاعية ويرأسها الرئيس «نصري» انها متعبة ، ذلك
لأن هذه اللجنة تبحث أوضاع المؤسسات التي أمتت وهي موزعة على
ست قطاعات هي : الزراعة والصناعة والتجارة والاقتصاد والنقل
والمواصلات والفنادق والسياحة وكان ذلك الاجتماع المرهق مخصصا
للبحث في وضع الأسس التنظيمية الجديدة للقطاع التجاري .

وفي الوقت الذي كان الاجتماع قد قارب فيه على نهايته ، كان موعد
وصول الرائد زين العابدين محمد أحمد عبد القادر عضو مجلس قيادة
الثورة ، والرقيب العام علي مرافق الدولة من خلال شكاوى المواطنين
من القاهرة بعد أن شارك في الاجتماعات الرباعية التي عقدت في مرسى
مطروح وانتهت في يوم ١٧ يوليو أي قبل إنقلاب العطا يومين . وعلى
الطائرة نفسها سيصل السيد فاروق أبو عيسى وزير الخارجية عائداً من
نيويورك عن طريق القاهرة ، أيضا .

اتفق الرائد مأمون عوض أبو زيد والرائد أبو القاسم ابراهيم
والسيد معاوية ابراهيم وزير العمل آنذاك على استقبال العائدين من
القاهرة .

وروى بعض المشاهدين قائلًا : «إن مأمون أبو زيد وأبو القاسم
ابراهيم ذهبا قبل ساعتين من وصول العائدين إلى منزل العقيد عبد المنعم
محمد أحمد القائد الثاني ل سلاح المدرعات (كان أحد الاربعة الذين
أعدموا بعد فشل حركة العطا) لتناول طعام الغداء بدعوة منه . وبعد ما
تناولوا طعام الغداء غادر عبد المنعم المنزل بعدما أحضر لمأمون أبو زيد
وأبو القاسم ابراهيم طاولة زهر قائلًا لهما : باق بعض الوقت على وصول
الطائرة وأنا عندي مهمة وإني أعذر وعليكما تمضية الوقت في
التسلي . إنكما في منزلكما .



آثار القصف ، علم سلم القصر الجمهوري بالخرطوم

وبعد لحظات قليلة غادر مأمون أبو زيد وأبو القاسم ابراهيم ذلك المنزل الى المطار وهناك انضم إليهما معاوية ابراهيم .
فهل كان ذلك الغداء وتلك الدعوة إليه مهمة متعددة لتشغل هذين الركبين المهسين في النظام السوداني في تلك اللحظات ؟
ابراهيم بصفته وزيراً للداخلية يكمل المهمة التي تقوم بها الأجهزة القوية التابعة للرائد أبو زيد . فيبدو أن القائمين بالانقلاب قد تعمدوا ذلك بحيث إذا لاحظ أحد أي تحركات فحاول الإتصال بالرائد مأمون ، أو الرائد أبو القاسم فسوف لا يجدهما . ووجد الانقلابيون أن خير من يلهي الرائدین هو صديقهما الضالع في المحاولة الانقلابية ، ونعني به العقيد عبد المنعم محمد أحمد .

بعد استقبال العائدين من القاهرة توجه الجميع الى منزل الرئيس «نميري» لعرض نتائج محادثات مرسي مطروح عليه . وكان الرئيس نائماً من شدة الإرهاق الذي شعر به بعد الاجتماع الطويل الذي سهر من أجله الليل ثم واصل الليل بالنهار أيضا .

وخلال عرض الرائد زين العابدين محمد أحمد نتائج تلك المحادثات الرباعية على الرئيس «نميري» داهم الاجتماع بعض الضباط شاهريين السلاح واعتقلوا الخمسة الذين كانوا مع الرئيس «نميري» .

لم يكن المواطنون السودانيون حتى تلك اللحظات يعلمون شيئاً عما حدث . فقد كانت الاذاعة ترسل برامجها بشكل عادي . حتى الساعة السابعة إلا ربعا وهو الموعد الذي كانت إذاعة «أم درمان» تقدم فيه برنامجاً منتظماً عن تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله الطيب عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم . توقف الدكتور الطيب عن الكلام فجأة، وبدأت الاذاعة ترسل موسيقى عسكرية . فارتسمت التساؤلات على وجوه المواطنين السودانيين الذين عاشوا ما يقارب نصف ساعة في

حيرة لم يعرفوها من قبل . ثم قطع حيرتهم إعلان الاذاعة الذي يقول إن
الرائد هاشم العطا سيذيع بياناً على جماهير الشعب . وأخذت إذاعة
أم درمان تكرر هذا الاعلان عدة مرات . وظل المواطنون السودانيون في
حالة تنبه شديد بين اذاعة الموسيقى العسكرية والاعلان لذلك البيان
إلا أن الشيء الذي ادركه العارفون بمجرد سماعهم أن الذي سيذيع
البيان المرتقب هو الرائد هاشم العطا أدركوا أن الحزب الشيوعي
السوداني وراء هذا العمل أو على الأقل ليس بعيداً عن الاحداث التي
تجري في تلك اللحظات .

وفي لحظات خاطفة إنتشرت الشائعات في خارج السودان عن طريق
السفارات الأجنبية بأن هناك إنقلاباً ضد حكومة الرئيس «جعفر نميري»
لأن المدرعات تحيط بالقصر الجمهوري في الخرطوم ، وأن محطة الاذاعة
الرئيسية في «أم درمان» تحاصرها المدرعات أيضاً ، وأن حركة الطيران
قد توقفت في جميع مطارات السودان ، كما أن الاتصالات اللاسلكية
قد قطعت إبتداء من الساعة الرابعة بعد الظهر بين الخرطوم ومسكن
السودان الأخرى ، ثم بينها وبين باقي دول العالم .

أذاع هاشم العطا بيانه المرتقب زاعماً فيه أن الحركة التي قادها تهدف
الى تصحيح مسار ثورة ٢٥ مايو بما يحقق آمال جماهير أكتوبر فسي
السودان . إلا أن جماهير الشعب السوداني الواعية لا زالت تذكر ان
هاشم العطا هذا قد فصل من جميع مناصبه العسكرية والمدنية مع
صاحبيه المقدم بابكر النور عثمان والرائد فاروق عثمان حمد الله ، وذلك
لأنهم اتصلوا بعناصر مخربة إمتد نشاطها الى داخل مجلس قيادة الثورة
السوداني وأصبحت أسرارهم تُعرف في الخارج (١) . ويقصد قرار
الفصل بتلك العناصر المخربة الحزب الشيوعي السوداني وأعوانه .

أعلن الانقلابيون بعد ذلك تشكيل مجلس للشورة من سبعة ضباط
بعد أن القوات التي قامت بذلك الانقلاب قد تحركت في البداية من
«منطقة الشجرة» على بعد ٣٠ كيلومترا من الخرطوم ، وهذه القوات
ساعدها على ذلك .

وأصدر المجلس الجديد قراراته التي كان من أولها إلغاء قوانين ثورة
مايو وحل جميع المنظمات التي انشأتها ومن بينها اللجنة التنفيذية للاتحاد
الاشتراكي السوداني .

وقد تأكد للجماهير السودانية وللعالم أجمع بما لا يدع مجالا
للشك - إلتواء القائمين بالحركة للحزب الشيوعي السوداني عندما أعلن
الرائد هاشم العطا ضمن القرارات التي أصدرها المجلس الجديد إلغاء
الحظر الذي فرضته حكومة الرئيس «نميري» على نشاط المنظمات الأربع
التي تعد قاعدة للحزب الشيوعي السوداني وهي اتحاد نقابات عمال
السودان ، واتحاد الطلبة ورابطة الشباب والاتحاد النسائي .

وقد أجرى هاشم العطا إتصالا تليفونيا في نفس اليوم الذي وقع فيه
الانقلاب بالسيد بن بابكر النور وحمد الله اللذين كانا موجودين بلندن
طلب فيه منهما سرعة العودة الى الخرطوم .

أما باقي أعضاء المجلس الانقلابي الجديد هم المقدم محمد أحمد
الريح الشيخ قائد إحدى وحدات الدفاع الجوي ، والرائد محمد أحمد
الزين قائد إحدى وحدات سلاح المدرعات ، والرائد محمد محجوب
عثمان الذي كان قد أحيل الى الاستيداع ضمن ضباط آخرين يوم
فصل الأعضاء الثلاثة وهو شقيق عبد الخالق محجوب السكرتير العام
للحزب الشيوعي السوداني والنقيب معاوية عبد الحي وكان من حرس
القصر الجمهوري .

عقب ذلك حدد القائمون بالانقلاب إقامة جميع الذين كانوا مع الرئيس «نميري» وقد تم القبض على بعض أعضاء مجلس الثورة السابق وعلى رأسهم السيد فاروق أبو عيسى وزير الخارجية •

ومما يذكر أن ستة من وزراء حكومة الرئيس «نميري» كانوا خارج السودان ساعة وقوع الانقلاب وهم اللواء عوض خلف الله قائد السلاح الجوي السوداني والعميد أحمد عبد الحليم قائد سلاح المدرعات حيث كان مسافرا بليبيا ، والسيد بابكر عوض الله الذي كان يعالج في ألمانيا الديمقراطية ، واللواء خالد حسن عباس وأحمد سليمان اللذين كانا في زيارة ليوغسلافيا على رأس وفد من ثلاثين شخصا وكذلك السيد محمد عبد الحليم وزير الخزانة الذي كان بانجلترا ، وعمر الحاج موسى الذي كان بالمجر ، ومبارك سناده الذي كان موجوداً بالقاهرة •

ويقال أن بعضاً من المنشورات كانت قد وزعت قبل الانقلاب بأيام تعلن أن الحزب الشيوعي السوداني قد بحث في إجتماع له برئاسة عبد الخالق محجوب موضوع مقاومة حكومة الرئيس «نميري» بالسودان ، وقد تم هذا الاجتماع بعد هروب عبد الخالق محجوب من الاعتقال بمعاونة بعض الضباط •

ومن الأمور المفاجئة للعالم أن حكومة العراق كانت أسرع الحكومات اعترافاً بالنظام الجديد في السودان • إذ جاء اعترافها بعد ثلاثة ساعات من حدوث الانقلاب ، فكان ذلك الاعتراف المفاجيء والسريع مما أثار دهشة المراقبين في العالم العربي •

في تلك الفترة ظهر عبد الخالق محجوب ومعظم قادة الحزب الشيوعي السوداني الذين كانوا مختبئين أو معتقلين ومن بين هؤلاء محمد إبراهيم نقد الذي يعتبر الرجل الثاني في الحزب الشيوعي بعد عبد الخالق محجوب وهو من الشباب الذين درسوا في براغ ومن أقرباء بابكر عوض الله نائب رئيس مجلس الوزراء ومن زملاء الرئيس «نميري» في

بعض مراحل الدراسة بالسودان . كذلك كان من بين هؤلاء الذين
ظهروا على مسرح الأحداث فجأة التيجاني الطيب الذي عمل رئيساً
لتحرير صحيفة «الميدان» التي كانت تنطق بلسان الحزب الشيوعي خلال
فترة حكم الاحزاب التي بدأت بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤ .
السودان وهو أحد قادة الحزب ، فبرغم انه كان قد اتخذ موقفاً ناعماً
وحذراً خلال حكم الرئيس «نميري» وأثر التعايش السلمي معه فانه
عندما حدثت تلك المحاولة الانقلابية أعلن عن موقفه صراحة فدعى الى
اجتماع للنقابات السودانية وشارك بشكل إيجابي في ذلك الموكب الذي
قام به الاتحاد العام للنقابات أمام القصر الجمهوري صباح الخميس ٢٢
يوليو . وقد كان الذين اشتركوا في ذلك الموقف كلهم من الشيوعيين
الذين حملوا الاعلام الحمراء وظلوا يهتفون بحياة الأممية . وكانت من
أبرز هتافاتهم التي سمعها أهالي السودان «حنكمل المشوار في طريق
لينين» .

باختصار يمكننا القول بأنه عقب إذاعة هاشم العطا لبيانته بدأت
المنظمات التابعة للحزب الشيوعي تطل برأسها . وهذه المنظمات هي
التي كان الرئيس «نميري» قد أصدر قراراً بحلها من قبل وهي : اتحاد
الشباب والاتحاد النسائي واتحاد نقابات عمال السودان الذي كان
موقفه منسجماً مع موقف أمينه العام الشفييع أحمد الشيخ .
يقول أحد الصحفيين اللبنانيين «لقد كانت عملية احتلال الاذاعة في
منتهى السهولة ، ذلك أن فترة بعد الظهر في السودان مرهقة وكل
السودانيين يشعرون بالاسترخاء ، وبالحاجة الى النوم بمجرد أن
يتناولوا طعام الغداء . ولم تكن الحراسة مشددة على الاذاعة لأنه بعد
انقضاء أكثر من سنتين على ثورة ٢٥ مايو ١٩٦٩ دون أن يحاول أحد
مهاجمة الاذاعة لاحتلالها صار من الطبيعي أن تكون الحراسة «مترامية» .

وقد يكون كلام هذا الصحفي اللبناني صحيحاً على وجه مسن
الوجوه . ولكن هل عملية احتلال مبنى الاذاعة يمكن أن تتم في أي
بلد ببعض الجنود الشاكين السلاح ؟ لا نعتقد ذلك لأن الاذاعة
السودانية كانت على الأقل لا تخلو من حراسة لا بأس بها ، وهذا من
الامور العادية في حكومات الثورات في الآونة الاخيرة في العالم العربي
كله وبالنسبة لأجهزة الاعلام . هذا الى جانب أن التحقيقات قد أسفرت
فيما بعد على أن احتلال الاذاعة السودانية قد قامت به بعض الدبابات
التي إنضت للانقلاب . فليس من المعقول أن يقاوم الحرس بالأسلحة
الخفيفة تلك الدبابات هذا من ناحية ، أما الأخرى فهي أن رئيس الحرس
الذي كان منوطاً به حراسة الاذاعة تبين فيما بعد تواطؤه مع الانقلابيين
لأن الحرس حينما ترامت الى أذنيه أصوات الدبابات القادمة تأهب
للدفاع وأداء الواجب فطلب منهم رئيسهم عدم المقاومة .

لقد لعب عنصر المفاجأة دوره الكبير في عملية الانقلاب بدليل أن
ضباط سلاح المظلات بمنطقة «شمبات» قد سيطرت عليهم الدهشة لبضع
دقائق حينما أخذ الانقلابيون يجردونهم من أسلحتهم ويأمروهم بركوب
بعض السيارات العسكرية وهم يقولون لهم : «امشوا روحوا بيوتكم» .
كذلك لعب تأمر بعض قادة سلاح المدرعات وانضمامهم الى
الانقلابيين دوراً هاماً وإلا لما قدر لذلك الانقلاب أن ينجح . لأننا نعلم
أن هذا السلاح من الأسلحة المرموقة في السودان والتي كان لها دور
في نجاح ثورة ٢٥ مايو . . فلولا أن العميد أحمد عبد الحليم (شقيق
وزير الخزانة السيد محمد عبد الحليم) كان في زيارة لليبيا ساعة الانقلاب
لما كان من السهل السيطرة على هذا السلاح المهم بالجيش السوداني .
فالذي حدث أن بعض الانقلابيين قاموا باعتقال العقيد سعد بحر قائد
سلاح المدرعات بالوكالة ومعه بعض ضباط السلاح بناء على تعليمات
صدرت لهم من العقيد عبد المنعم أحمد فأصبح بذلك الأمر الوحيد لهذا

السلاح . وقد تحفظ الانقلابيون على المعتقلين في قصر الضيافة بشارع الجامعة ، وظلوا معتقلين حتى مساء الخميس ٢٢ يوليو عندما أعيده الانقلابيون في لحظه يأس بعد ما وجدوا أن حركتهم قد إنهارت .
التي قدّر فيها لانقلاب العطا ان يعيشها وتعيشها معه الجماهير السودانية من ناحية ، والعالم الخارجي من الناحية الأخرى .
لقد أعلن الانقلاب عن فشله بمجرد قيامه لأسباب عديدة يمكن ان نوجزها فيما يلي :

- ١ - كيف يجوز لثورة أن تقوم ورئيسها وكبار أعضائها خارج البلاد ؟ وهذا ما حدث للانقلاب الأخير بالسودان . ولا شك أن هذا العمل يحمل في طياته سمات الجهل بالثورات وقيامها بالنسبة لمن قادوا الانقلاب . فقد كان على الأقل لو كانوا ذوي خبرة بنظام الثورات لترثوا ولو قليلا ولم يذيعوا اسم رئيس ثورتهم المزعومة كما فعلت الثورة الليبية عند قيامها حيث لم تعرف أسماء قادتها قبل مدة طويلة .
- ٢ - أن المقدم بابر النور عند سماعه بانقلاب هاشم العطا وهو خارج البلاد سارع بالادلاء للصحافة العالمية بتصاريح غير مدروسة ، فقد فعل ذلك مع صحيفة «التايمز» اللندنية عشية عودته الى الخرطوم . وفي هذا تصرف ساذج لأنه ليس رئيس حكومة وهو منفي خارج بلاده . فإنه قد اختير رئيسا لنظام جديد أعلن عن نفسه فكان الواجب يحتم عليه ألا يدلي بأي كلام للصحافة العالمية دون دراسة دقيقة . هذا اذا تغاضينا عن أن نظام الثورات يحتم على رؤسائها أن يكون كلامهم من إذاعة بلادهم في شكل بيانات وليس عبر تصاريح صحفية عاجلة وغير مدروسة .
- ٣ - بلغ من استهانة القائمين بالانقلاب بمسألة عقيدة أبناء السودان وتمسكهم بها حداً لا مثيل له . إذ المعروف ان السودانيين متمسكون

بالاسلام واحترام تعاليمه لدرجة يلمسها كل من يزور تلك البلاد ولو زيارات خاطفة . فإذا جاء الانقلابيون وكانت تصريحاتهم الأولى عسن حكمهم انه يساري وسيطبق «الاشتراكية العلمية» مع علمهم بتعارض الشيوعية مع الدين . هذا الى جانب تجاهلهم للمكانة التي يتمتع بها الرئيس «نميري» في نفوس أبناء السودان . تلك المكانة التي جعلت الجماهير بعد ذلك تخرج في الشوارع غير عابئة بالأحداث وهي تهتف «عائد يا نميري .. عائد يا نميري» .

٤ - إن اطمئنان هاشم العطا ذلك الاطمئنان المدهش الذي لا مبرر له عندما شاهده الكثيرون ليلة اليوم الثاني للإنتقلاب يتمشى وحيداً على كورنيش النيل على مقربة من القصر الجمهوري ، وهو يحيي الجنود والضباط المنتشرين هناك لمن الأمور التي تجعل الباحث يحار في أمره ولو بالنسبة لتقديره للأمور . وإلا لما غامر بنفسه من خلال ذلك التصرف الساذج الذي قد يؤدي بحياته من جراء رصاصة طائشة تصيبه من أحد أنصار الرئيس «نميري» الذين خرجوا يهتفون في الشوارع «عائد يا نميري» .

٥ - كيف تكون عودة الرئيس المعين المقدم بآبكر النور وزميله الرائد فاروق حمد الله على طائرة ركاب عادية من لندن تمر على ثلاث مطارات قبل وصولها إلى الخرطوم ؟ فلو كان الانقلابيون عارفين بدراسة النظم الثورية لتصرفوا على الأقل تصرفاً مخالفاً لذلك كأن يعلنوا أن الرجلين قادمان في هذه الطائرة من باب التمويه على أن ترسل لهما طائرة خاصة لتأتي بهما .

٦ - إن قيام هاشم بتسريح الطيارين السودانيين جميعاً والتنبيه على الخبراء السوفييت الذين كانوا يقومون بتدريبهم بالتزام منازلهم . ثم عودته بإصدار أوامره لإذاعة أم درمان أن تدعو جماهير الشعب السوداني الى التطوع للعمل في السلاح الجوي السوداني لمن الأمور

المدحمة لأن الذين قاموا بالانقلاب - كما هو معروف - أناس سبق لهم العمل بالقوات المسلحة من قبل . فمما لا يخفى عليهم أن إعداد الطيارين ليس من الأمور السهلة التي يمكن أن تتم بين ليلة وضحاها - هذا لو افترضنا جدلاً أن المواطنين العاديين سوف يكون من بينهم من يحسن قيادة الطائرات إلا إذا كانت قيادة الطائرات في نظرهم لا تزيد عن كل هذه النقاط قد جعلتنا نقطع بأن هذه الحركة التي قام بها هاشم العطا ورفاقه قد حملت في طياتها أسباب فشلها . وقد حققت الأحداث التي تلت ذلك ظننا ولم يقدر لتلك الحركة أن تستمر أكثر من اثنين وسبعين ساعة . فكانت أقصر انقلاب في التاريخ الحديث . كان أشبه بخلافة ابن المعتز التي لم تستغرق سوى يوم وليلة فعرفت بأنها أقصر خلافة في التاريخ الاسلامي .



قلنا قبل صفحات ان المتآمرين في السودان قد أصدروا أوامره فور تحركهم ضد السلطات الحاكمة في السودان باغلاق مطار الخرطوم . إلا انهم عادوا وسمحوا باستقبال طائرتين فقط احدهما تابعة لشركة الخطوط البريطانية وهي التي كان سيصل عليها المقدم بابكر النور والرائد فاروق حمد الله والثانية تابعة لشركة الخطوط التشيكية وهي التي كان سيصل عليها الرائد محمد محجوب عثمان شقيق عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني والذي كان في براغ بقصد المعالجة الطبية .

أما بالنسبة لطائرة الخطوط الجوية البريطانية فقد هبطت في مطار «بنينه» الدولي بينغازي وهناك تم التحفظ من قبل السلطات الليبية على الرائد حمد الله والمقدم بابكر النور وقد أحدث هذا التحفظ إرتباكاً في

صفوف الانقلابيين . وفي نفس الوقت أذاع راديو بغداد ان طائرة عراقية كانت تحل وفداً رسمياً ، قد تحطت قرب جدة وهي في طريقها للخرطوم وتبين فيما بعد أن هذا الوفد كان في طريقه الى الخرطوم لتهنئة قادة الانقلاب . وقد لقي أفراد هذا الوفد مصرعهم وكان من بينهم العضو السوداني في القيادة القومية لحزب البعث محمد سليمان الذي اختاره حزب البعث الحاكم في العراق في مارس ١٩٧٠ ضمن القيادة القومية . وما هو معروف أن محمد سليمان هذا كان بعيداً عن السودان طوال السنوات العشر الماضية .

ويذكر المتتبعون للأحداث السودانية انه قبل الانقلاب الذي قاده هاشم العطا بشهور قليلة استطاع الرئيس «نميري» أن يطوق جيوباً حاولت إحداث وجود للبعث العراقي في السودان كان معظم أفرادها من المحامين وطلاب جامعة القاهرة فرع الخرطوم . وقد كان هؤلاء حتى تطويقهم وكشف مراكز لقاءاتهم ومراقبتها بعثيين وكان من أبرزهم شوقي ملاسي المحامي الذي كان دائم السفر الى بغداد . وكان من أوائل الذين أبرقوا لهاشم العطا بالتأييد لحركته من خارج الخرطوم فسور إعلانها .

وقد تزعم هؤلاء البعثيون في السودان حملة تجريدية ضد الرئيس ناصر بتوجيه من البعث العراقي من قبل فأحدثت آنذاك صراعات عديدة بينهم وبين القوميين العرب من جهة ، والاخوان المسلمين من جهة أخرى شهدت ردهات الجامعة بالخرطوم .

إن حادث وقوع الطائرة العراقية التي كانت تحمل وفداً من حزب البعث الحاكم هناك وهي في طريقها الى الخرطوم قد أحدثت شهوراً قديراً لدى السودانييين .

وفجأت بدأت المظاهرات تملأ شوارع الخرطوم وعلى رأسها كنائب مايو للشباب التي كان قد أنشأها الرئيس «نميري» من قبل ، فبدأت

آلاف الحناجر تطالب بعودة الرئيس «نميري» فطفت على حناجر المؤيدين
للاقتلاب والرافعين للأعلام الحمراء . فحاول هاشم العطا توسيع قاعدته
العسكرية بعد ما رأى أن القاعدة الشعبية لن تدعم صسوده فأخذ يتصل
بالضباط والجنود الذين سرحهم وجردهم من أسلحتهم . وبدأ يشيع عن
طريق الإذاعة بيانات متلاحقة زاعماً أن هناك تدخلا خارجياً . فلم يلب
نداءاته أحد . فقد كانت نداءات اللواء خالد حسن عباس (١) التي كان
يوجهها من الإذاعة الليبية ذات اثر فعال في القيادات العسكرية السودانية
الحائرة التي سمعتها بصعوبة بالغة لبعد المسافة . . . إن تلك القوات تؤيد
الرئيس «نميري» ولكنها حتى تلك اللحظة كانت لا تدري ماذا ستفعل .
ولكنها بعد لحظات بدأت تتحرك من عدة مناطق . فشهدت شوارع
الخرطوم وأم درمان قتالاً بالدبابات والمدركات . وتقدمت بعض هذه
الدبابات على الجسر الذي يربط بين أم درمان والخرطوم وقامت
بقصف أول دبابة للاقتلاب فدمرتها .

قطعت إذاعة أم درمان إرسالها ثم عادت لتعلن عن أول أنباء للقتال
الذي شهدته شوارع العاصمة المثلثة .

واستمرت إذاعة أم درمان تكرر تلك النداءات الهستيرية دون توقف
إلى حد أنها أذاعتها عشرين مرة في عشر دقائق تقريبا (٢) .
وقد استطاعت القوات الموالية للرئيس «نميري» أن تهاجم القيادة
في الخرطوم وتقتحمها بعد أن تبادلت النيران مع الدبابات الموالية
للاقتلابين .

وحوالي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم قطعت إذاعة أم درمان

١ - لقي شقيقه وهو ضابط برتبة ملازم بالجيش السوداني مصرعه من
أحد رشاشات الانقلابيين .

٢ - صحيفة الاهرام القاهرية الصادرة ٢٢-٧-١٩٧١ .

إرسالها بالنسبة لجميع موجاتها لعدة لحظات • ثم أعادت الإرسال لتعلن للعالم أن قوات سودانية بقيادة الملازم محمد علي كرباسي قد احتلت دار الإذاعة السودانية وأن الرئيس جعفر نميري سيديع بيانا على الشعب السوداني بعد لحظات •

ثم سعت الجماهير السودانية بيانا من المقدم صلاح عبد العال الأمين العام لمجلس الثورة ، حيى فيه المواطنين السودانيين وأعلن فيه أن الرئيس «نميري» في حالة طيبة «وما زال ذلك الرجل الذي قُاد وسيقود الأمة السودانية» •

بعد ذلك أعلنت إذاعة أم درمان -أيضا- أن المحنة التي مرت بالشعب السوداني خلال اليومين الماضيين قد زالت • ووصل الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم إلى مبنى الإذاعة وتلا بيانا قال فيه : «ان الثورة صامدة وستواصل القوات المسلحة المسيرة بإرادة الشعب السوداني البطل» ثم أعلن ان مجلس الثورة الذي يرأسه الرئيس جعفر نميري قرر إعلان حالة الطوارئ في جميع أنحاء السودان كما قرر فرض حظر التجول في البلاد •

بعد ذلك حملت موجات الأثير صوت الرئيس «نميري» إلى ملايين المواطنين من الشعب السوداني البطل وإلى الملايين من المواطنين العرب التي كانت ترقب الأحداث التي تعرض لها القطر الشقيق بقلق بالغ طوال الاثنين والسبعين ساعة الأخيرة •

وفي هذه الكلمة قال الرئيس «نميري» :

«ان ثورة الخامس والعشرين من مايو وما أعلنته من أهداف ، سوف تظل أبداً ماضية • ولقد قلنا منذ اللحظة الأولى في بياناتنا وخطبنا وقالها المسؤولون ، أعني في القوات المسلحة ، أو في الجهاز التنفيذي ان هذه الثورة ثورتكم ، وقد أيدها الشعب منذ اللحظة الأولى ، وصار الجندي يعمل ويعمر بيد ، ويدافع ويحمل السلاح باليد الأخرى ، فكان تلاحما

عظيماً استطاع أن يقدم خدمات كثيرة ، واستطاع السودان أن يطور نفسه ، وأن يغير منهجه التعليمي ، واستطاع أن يبني المدارس والطرق والمصانع ، كما استطاع أن تفتح مشروع كهربية خزان الروصيرص .
وهذا هو التلاحم الحقيقي ، التلاحم الأصلي بين القوات المسلحة وبين الشعب .

ان هذه المؤامرة ، التي تم دحرها قد برهنت فعلاً على أن الشعب السوداني شعب أصيل ، وأنه سيبقى متلاحماً متضامناً جنباً إلى جنب ليقضي على المؤامرة ، وفعلاً زالت المحنة .

ومن أفراد الشعب أن يقوم بإطلاق النار على كل متآمر ، أو يقبض عليه ويسلمه لأقرب نقطة بوليس .
وانني أنذر .. إنني أنذر هنا كل فرد يحاول أن يخفي أحداً من المتآمرين بأنه سيعامل مثل المعاملة التي سيعامل بها هذا المتآمر .

أرجو أن تعضوا بالنواجذ على مكتسباتكم واني أعاهدكم نيابة عن القوات المسلحة ، أننا على العهد سائرون ، واننا سنعمل سوياً يبدأ واحدة وقلبا واحداً حتى نصل إلى ما تصبون إليه .. شكراً والسلام عليكم « (١) » .



إزاء تلك الأحداث التي قامت بها القوات المسلحة السودانية ومن ورائها شعب السودان البطل لم يكن أمام المتآمرين شيء سوى خسة النفس ووضاعة الاخلاق . وحيلة العاجز المخمور الذي خيل المخدر له

١ - صحيفة الأهرام القاهرية الصادرة ٢٣-٧-١٩٧١ .

انه يستطيع أن يصيد واقفا كلما هبت الريح من حوله . فعندما يزول من رأسه أثر العقار تجتاحه حالة من اللوث أقرب الى الجنون . وهذا ما حدث لأولئك المتآمرين بالسودان . فعندما أحسوا بأن حركتهم قد ضربت وأن المشائق سوف تتركب عليها رؤوسهم فتحوا فوهات بنادقهم على الأبرياء من رجال القوات المسلحة الذين كانوا قد اعتقلوهم ساعة محاولتهم الانقلابية فارتكبوا بذلك اكبر حياقة عرفها تاريخ السودان . لقد أحال المتآمرون بيت الضيافة المشهور بالسودان الى بيت للموت عندما أبادوا برصاصهم ثلاثين ضابطا وجنديا مجردين من السلاح .

فقد حدث أن الملازم أحمد عثمان عبد الرحمن الحردلو الذي كان مكلفا بحراسة الضباط وصف الضباط الذين كانوا موالين للرئيس نميري وقد تم اعتقالهم ساعة قيام العطا بحركته . فعندما شعر ذلك الملازم الخائن بفشل الحركة وعودة الرئيس «نميري» أمر بقتل جميع المعتقلين وشارك في عملية القتل بنفسه حتى نفذت ذخيرته . وحتى الجرحى لم يسلموا من رصاصه ثم هرب متخفياً في زي مدني ولكنه قبض عليه بعد ذلك . وهذا الملازم هو الذي قال له الرئيس «نميري» أثناء التحقيق معه بعد أن قبضت عليه السلطات السودانية :

— «ما كنا نعرف في السودان وجوها بهذا الاجرام وهذه الخسة والحقارة .. المفروض أن تقتل نفسك بيدك الآن لو كنت رجلاً حقاً ، ولكنك جبان .. أريد أن أفهم سر هذا الحقد وهذا الاجرام في نفسك وأنت لا تزال في مقتبل الشباب» .

وقد صدر عليه حكم الاعدام ونفذ فيه . صحيح أن هذا الجزاء لذلك المجرم من دعاة الانقلاب أقسى جزاء يوقع على المرء ، ولكن جريسته في بشاعتها تفوق الوصف حيث أنه في لحظات طيش تسبب في أن يفقد السودان ما يقرب من خمسين من زهرة شبابه من الضباط

الممتازين الذين قد يبر الوقت طويلا حتى يعوض السودان كفاءاتهم وشجاعتهم .

وصفت مراسلة صحيفة الأخبار القاهرية شعورها ساعة دخولها قصر الضيافة بعد تلك الأحداث بقولها : «شيء رهيب . خسيس . مقزز . الكلمات هنا تخونني . لا

الأولى . رائحة الموت تفوح منها . الدماء متجلطة ومتجمدة على الأرض ، الرجال . . كيف هان على القتلة أن يبيدوهم بهذه الصورة البشعة . لقد ماتوا في لحظات وهم عزّل . . آمنون .

أرى وسادة على الأرض ربما كان أحدهم نائما عليها وبجواره طفاية سجائر مليئة بعشرات من أعقاب السجائر ، كما هي ، لم يمسه رصاص الغدر ، أما مرتبة السرير فلا يمكن وصفها ! لقد تشبعت بالدماء . وفاض ما زاد عليها في بقع كبيرة على الأرض ، وأبواب الحجر مكسورة . زجاج النوافذ محطم عن آخره !» (١) .

وقد روى العقيد سعد بحر أن الانقلابيين عندما شعروا بفشل مؤامرتهم انهالوا على المعتقلين بقذائفهم ورصاصهم ثم دخلوا إلى المعسكر ليتأكدوا من موتهم وأخذوا يهزون كل واحد فاذا كان حيا سألوه عن رتبته العسكرية . وقد سألوا الشهيد مصطفى أوتشي عن رتبته ، فلما علموا منه انه عقيد أفرغ أحدهم في جسده عشرين رصاصة من رشاشه .

وقد أعلن الرئيس «نميري» أن خمسة وثلاثين عسكريا قد استشهدوا

١ - صحيفة الاخبار القاهرية الصادرة ٢٧-٧-١٩٧١ رسالة السودان من مريم روبين الصفحة السادسة .

في الحركة التي أعادت الرئيس «نميري» الى السلطة (١) . وقام الشعب السوداني البطل بتشجيع هؤلاء الشهداء الأبطال في احتفالات مهيبه وترحمت اذاعة أم درمان عليهم بآيات من القرآن ظلت ترسلها منذ الصباح . وقد شارك في تشييع تلك الجنازة السيد خالد حسن عباس فور وصوله للسودان .

لقد قامت القوات السودانية المسلحة بالقبض على جميع قادة الانقلاب أثناء اجتماعهم في مركز القيادة . ومن سخریات القدر ان الساعة التي تم فيها القبض عليهم هي نفس الساعة التي قاموا فيها بانقلابهم الفاشل .

وشكلت على الفور محاكم عسكرية لمحاكمة الضباط المتمردين الذين استولوا على السلطة .

ولا يفوتنا أن نلقي بعض الضوء على الدور الذي لعبه قائد الحرس الجمهوري العقيد عثمان الحاج حسين في تعضيد حركة الانقلاب الفاشل وقد دفع ثمننا لتلك الخيانة حياته حينما نفذ فيه حكم الاعدام رمياً بالرصاص يوم الجمعة ٢٣ يوليو ١٩٧١ . هذا الى جانب ان العقيد عثمان الحاج حسين يعتبر المسئول الأول عن هروب عبد الخالق محجوب من المعتقل .

لقد كان العقيد عثمان الحاج حسين من أقرب الضباط الى الرئيس «جعفر نميري» وكان الرئيس السوداني يثق به الى درجة غير محدودة . وخیال هذه الثقة بدأ العقيد عثمان يفكر في توسيع دائرة طموحه . كانت حراسة أعضاء مجلس قيادة الثورة السوداني باستثناء الرئيس «نميري» يكلف للقيام بها رجال من الوحدة التي كان ينتمي إليها كل من هؤلاء الأعضاء . فمثلا العضو الذي كان يعمل في سلاح المشاة

يحرسه رجال من هذا السلاح . وهكذا بالنسبة لمن كان يعمل فسي المدرعات أو المظلات وهكذا .

وذاث يوم كتب العقيد عثمان الحاج مذكرة للرئيس «نميري» أوضح فيها بأن النظام المتبع دوليا يقضي بأن يتولى الحرس الجمهوري حراسة من يشكلون رأس الدولة ، ولم يتنبه الرئيس «نميري» الى ما كان يقصده العقيد عثمان فوافق على طلبه . ومنذ تلك الفترة أصبح الحرس الجمهوري هو المسئول عن حراسة الرئيس «نميري» وباقي أعضاء المجلس . وبعد مضي فترة عاود العقيد عثمان رفع مذكراته للرئيس «نميري» ولكن هذه المرة أوضح في مذكرته ان دبابات الحرس الجمهوري تابعة لسلاح المدرعات وانه يرى أن تكون سلطة هذه الدبابات لرئيس الحرس الجمهوري دون سواء .

ووافق الرئيس «نميري» على طلبه . فهو من الذين يتمتعون بثقة الرئيس «نميري» .

بعد ذلك أصبحت سلطة العقيد عثمان كبيرة . كل أعضاء مجلس قيادة الثورة تحت رحمته فهو المسئول عن حراستهم وتحت يده دبابات يتلقى قادتها الاوامر منه وليس من سلاح المدرعات كما كان الحال من قبل .

وقد استغل العقيد عثمان هذه السلطة في عملية الانقلاب . وبسبب هذه السلطة - أيضا - استطاع أن يؤمن عملية تهريب عبد الخالق مجحوب . وبسبب هذه السلطة استطاع أن يبقيه تسعة عشر يوما تحت حمايته وداخل القصر الجمهوري . فاستحق بذلك حكم الاعدام الذي نفذ فيه رميا بالرصاص بعد عودة الرئيس «نميري» وفشل انقلاب العطاء . وبتاريخ ٢٤-٧-١٩٧١ نشرت الصحف العربية نقلا عن اذاعة أم درمان أنه قد تم تنفيذ حكم الاعدام في كل من هاشم العطا قائد ذلك التمرد الفاشل وعثمان الحاج حسين قائد الحرس الجمهوري وعبد المنعم

محمد أحمد أحد قادة الفرقة الثالثة المدرعة ومعاوية عبد الحي أحمد أعضاء الحركة . وقد نفذت الاحكام فور اعلانها بعد تجريدهم من رتبهم العسكرية وفصلهم من القوات المسلحة .

وقد بلغ عدد المتهمين في هذه المؤامرة أربعمئة شخص منهم مائة من الضباط كان من بينهم بابكر النور وفاروق حمد الله وقد قامت حكومة الثورة الليبية بتسليمهما للرئيس «نميري» .

وكذلك قدم للمحاكمة الشفيح أحمد الشيخ والدكتور مصطفى خوجلي وهما من قادة الحزب الشيوعي السوداني . وقد كان الدكتور مصطفى خوجلي هذا من الذين رشحهم القائمون بالانقلاب لرئاسة الوزارة . وقد جرد الشفيح أحمد من أوسمته قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه . وحكمت بعض المجالس العسكرية التي عقدت بسلاح المدرعات بمنطقة الشجرة قرب الخرطوم بالاعدام على العقيد بشير عبد الرازق والمقدم محبوب ابراهيم والملازم أحمد دونار وهو من الذين شاركوا في إبادة المعتقلين الذين كانوا بقصر الضيافة .

تعقبت حكومة الرئيس «نميري» التابعين للحزب الشيوعي السوداني فبدأت بتفتيش وسائل المواصلات للبحث عنهم . وقد ساعد المواطنون السودانيون الحكومة في الارشاد عن المخابىء التي اتخذها أعضاء الحزب الشيوعي للاختفاء فيها .

وقد ذكرت وكالات الانباء يومذاك «ان من المظاهر التي شوهدت في الخرطوم ان عشرات من المواطنين كانوا يهرعون الى أي مكان يصدر منه طلق ناري ويرشدوا الجنود الى مصدره . وكان الرجال والصبية يسرون خلف الجنود المشتركين في القتال ويرشدونهم الى الأهداف» (١) .



الرائد فاروق حمد الله



الرائد هاشم العطا
زعيم الانقلاب الفاشل



الشيخ احمد الشيخ .. في الطريق الى التحقيق ..

وصف الرئيس « نميري » المعاملة التي لقيها من الذين قاموا بالانقلاب وهو في معرض الرد على سؤال صحفي من احد الصحافيين الانقلاب فقال : المؤتمر الصحفي الذي عقده للصحافة العالمية عقب فشل « . . » كانت معاملة عنيفة وهي انني قد وُضع على ظهري وعلى عنقي

قطع من السلاح . وكنت رافعا يدي لمدة تزيد على ساعة وأوقفت بملابس النوم عاري القدمين . وكانت الشمس ساخنة ، والعربة التي استعملت في نقلنا كانت من العاج . وكانت في الشمس لفترة طويلة وهي ساخنة أيضا .

وعندما آدخُلنا القصر الجمهوري وأدخلت في حجرة لم أخرج منها لأي عملية طبيعية أو يقدم لنا أي طعام الا في الساعة الحادية عشرة من اليوم الثاني . وكانت تقريبا هذه هي المعاملة التي وجدتها في بقية الأيام . واستطيع أن أقول انني تناولت وجبتين مختلفتين في يومين ونصف يوم قضيتهما في المعتقل . وخرجت لإزالة الضرورة مرة واحدة بعد أن طلبت ذلك بعناد « (١) .

لقد كانت تلك المعاملة التي لقيها الرئيس « نميري » من الذين قاموا بذلك الانقلاب من اكبر الدلائل على خسة النفس التي عرف بها الشيوعيون في كل مؤامرة قاموا بها .

ووصف الرئيس « نميري » - أيضا - لحظة خروجه من المعتقل الذي وضعه فيه الانقلابيون بقوله :

«وسط جو الهلع الذي أصيب به أفراد الحرس نتيجة للهجوم العنيف المفاجيء تمكنت من الخروج من غرفتي» . لقد حاول بعض جنود الانقلاب الامساك به ليتخذوا منه «ستارا» يحتمون به من طلقات القوات

المؤيدة له . ولكنه تمكن من التخلص من هؤلاء الجنود واتجه الى ساحة القصر . وحاول الرئيس «نميري» أن يوقف إحدى الدبابات المهاجمة ولكن طاقمها لم يتنبه لوجوده ، فلم يجد بدا من التصرف بمفرده ، وعن طريق خبرته بسمرات القصر استطاع ان يصل الى أحد الأبواب الجانبية حيث خرج الى الشارع وسط الجماهير . وما أن تعرفت الجماهير عليه حتى علا هتافها بحياته وبثورة مايو وحملوه على الاكناف .

لقد لعب الشعب السوداني البطل دوراً هاماً في مساعدة حكومة الرئيس «نميري» عقب عودته وبعد فشل انقلاب العطا في مسألة محاصرة الهاريين من أعضاء الحزب الشيوعي السوداني والذين كان لهم دور فعال في مؤازرة الانقلاب . لاسيما في عملية القبض على عبد الخالق محجوب الذي هرب من سجنه يوم ٢٩ يونيو قبيل الانقلاب بأيام . وقد شارك الشعب السوداني في عملية تعقب الهاريين مع قسوات الجيش والمخابرات والمباحث والكتائب التي شكلت حديثاً ككتائب مايو للشباب . ولم تكن عملية تعقب الهاريين من الشيوعيين من الأمور السهلة في السودان . ذلك لأن بعضهم كان يحمل أسلحة نارية . وكثيراً ما اتخذ بعضهم بعض المباني الحكومية والدوائر الرسمية أوكارا للاختفاء فيها ولم يكن ذلك منهم من قبيل الاعمال العفوية ولكن لأنهم بعد أن ضيق عليهم الخناق أصبحوا لا يستطيعون الاختفاء على سطوح المنازل لأن معظم منازل السودان كما هو معروف قد بنيت من طبقة واحدة ، أما المباني الحكومية فهي قد شيدت بأكثر من طبقة . هذا من ناحية ، أما الناحية الأخرى فهي أن بعض العائلات السودانية دائماً تتخذ من أسطح المنازل أماكن للنوم هرباً من شدة القيظ في الصيف ، يضاف الى ذلك أن الهاريين يعلمون أن رجال الجيش سوف يحرصون عندما يطلقون النيران على المباني الحكومية حتى لا يلحقها الضرر البالغ .

يقول أحد الصحفيين اللبنانيين وهو يصف هذه الاحداث :

«ولا أنسى ما حدث يوم ٢٤ يوليو . كنت أتجول في الشارع التجاري من الماصة حيث كثرت عمليات القناصة . كان كلام بعض المواطنين سودانيين عنهم مثيرا ، وذهبت أترقب وأنا بالقرب من بعض الجنود ظهور قناص أو نار قناص . فجأة سمعنا صوت طلق ناري وأدار الجنود بنادقهم ورشاشاتهم نحو سطح إحدى البنايات وردوا . كثرت الطلقات ورافق ذلك تجمع عدد كبير من المواطنين وقفوا بالقرب من الجنود يتفرجون . استمرت المشاغلة بالنار نحو عشر دقائق ثم توقف القناص عن إطلاق النار . فهم الجنود عندئذ ان ذخيرة القناص نفدت ولا بد أن يسلم نفسه . وهذا ما حدث بالفعل» (١) .

«رأس الحية» عبد الخالق أعلنت اذاعة أم درمان انه قد تم القبض على «أبوروف» في أم درمان . فقابلت الجماهير السودانية هذا النبأ بالفرح العظيم .

وقد لقبته الاذاعة السودانية يومذاك بالخائن والملحد والمخرب الاول . وقد تمت عملية اعتقاله في تلك المنطقة حيث كان مختبئا في منزل أحد اقربائه . وهو الملازم السابق خالد حسين الكد . وقد ذكر أن أجهزة الامن قد تلقت إشارة من أحد المواطنين السودانيين تفيد أنه رآه هناك . فتحركت تلك الأجهزة وقامت بمحاصرة المنطقة . فلم يجد عبد الخالق محجوب بداً من القيام بتسليم نفسه . فخرج إليهم رافعا يديه فقبضوا عليه وساقوه الى مقر القيادة العامة للجيش ، وهناك بمكتب القائد العام لقيه الرئيس «نميري» ، وقد علم بأمر اعتقاله ، عندما كان بمعسكر الشجرة فحضر الى مقر القيادة ومعه الرائد أبو القاسم محمد

١ - فؤاد مطر صحيفة النهار اللبنانية ويراجع كتابه عن الحزب الشيوعي السوداني صفحة ٣٥ منشورات دار النهار .

ابراهيم وزير الداخلية ومأمون عوض أبوزيد وزير شئون الرئاسة ، وأبو القاسم هاشم وزير الشباب ومدير الأمن القومي ، وعمر الحاج موسى وزير الاعلام والثقافة .

وقد سأله الرئيس «نميري» عن دور الحزب الشيوعي السوداني في تلك المؤامرة . فاعترف بأن الحزب هو المسئول عنها ، وأنه هو الذي خطط لها . وقد تم ذلك بقرار جماعي من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اجتماع لم يحضره عبد الخالق محجوب حيث كان يومذاك معتقلا . وقد قامت السلطات السودانية بوضعه في سيارة تجولت به تحت الحراسة في حي السوق العربي ليراه الشعب .

ذكر الرئيس نميري لمراسلة صحيفة أخبار اليوم أن المحاكم العسكرية الميدانية عند سماع اعضائها خبر القبض على عبد الخالق محجوب توقفت عن الاستمرار في أعمالهم يهللون (١) . وأضاف الرئيس نميري قائلاً :

« .. وباعتقال عبد الخالق محجوب . والقبض عليه .. قبض على رأس الحية بالفعل .. ولن نسمح لأي تجمع حزبي بعد ذلك سواء كان شيوعياً أو غير شيوعي . ونحن جميعاً كشعب سنسير على مبادئ ثورة مايو مستهدفين مصلحة السودان أولاً وأخيراً » (٢) .

وقد عثرت السلطات السودانية في بيت عبد الخالق محجوب على أوراق ومستندات تثبت دور الحزب الشيوعي السوداني في حركة هاشم العطا . ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان من بين تلك الاوراق ورقة كتبها عبد الخالق محجوب بخط يده تضمنت أسماء الوزارة الجديدة التي كان الانقلابيون على نية تشكيلها ، وكان من بين تلك الأسماء اسم «سعاد

ابراهيم أحمد» زوجة حمد الانصاري الذي كان شاهدا مهما من شهود
الانقلابات في قضية عبد الخالق محجوب ودوره في الحركة ، وقد رشح
ان المعروف «سماد ابراهيم» هذه لوزارة الاعلام والثقافة .
العلم بكلية دار العلوم بالقاهرة حتى خطط لانقلاب هاشم العطا الاخير
فأوشك أن يسوق السودان ومكاسب شعبه البطل الى هاوية ليست
بعدها هاوية .

فأبناء السودان يعرفون مواقفه في الأعوام التي سبقت ثورة مايو
١٩٦٩ عندما أقام تحالفا سريا من وراء ظهر حزبه مع الصادق المهدي .
ويعتبر هذا التذبذب إمتداداً لنظريته التي طرحها في كتابه «آفاق
جديدة» عام ١٩٥٦ عندما نادى بالتحالف مع حركة الاخوان المسلمين :
محمد يوسف محمد ومحمد صالح عمر وجعفر شيخ إدريس وصادق
عبد الله عبد الماجد حيث كان عبد الخالق محجوب يعقد معهم اجتماعات
منتظمة للتنسيق، بل شمل ذلك التحالف جماعة «وليم ديننج» أي معسكر
الصادق المهدي كله .

كذلك يعرف أبناء السودان أن وزير الداخلية السوداني في ١٨
سبتمبر ١٩٦٩ قد قام بكشف عبد الخالق محجوب حينما طالب الحكومة
بضرورة اعطاء اعتبار خاص للصادق المهدي في التكوين الحكومي
الجديد وإشراكه في ذلك التكوين . ولم يستطع عبد الخالق محجوب
يوم ذاك أن ينكر شيئا مما أدين به .

يضاف الى هذا ما رماه به السيد فاروق أبو عيسى في الاجتماع
الذي عُرف باسم «المؤتمر التداولي» في ٢١ أغسطس ١٩٧٠ حينما أعلن
أن عبد الخالق كان يعترض على اعتقال الصادق المهدي بعد ثورة مايو ،
بل راح يطالب بتمثيله في الحكومة بدلا من اعتقاله مع مطالبته أيضا
بترشيح أحمد ابراهيم دريج لدخول الحكومة .

كذلك يعرف السودانيون تلك المعلومات الخطيرة التي كشف عنها
عمر مصطفى في اجتماع اللجنة المركزية في دورة مارس حول تحالف
عبد الخالق محبوب مع الصادق المهدي والتي حجت عمداً عن عضوية
الحزب حيث لم ينشر منها حرف واحد في مداولات اللجنة المركزية
للحزب والتي وزعت على الأعضاء •

ان جملة ما يفهم من أحواله هذه انها أحوال رجل زائف الطبيعة منقطع
الصلة بينه وبين أبناء وطنه مستعد للبغضاء ، وليس مستعداً للمودة
والوفاء • والا لما حدث منه ما حدث • ولكنها آفة الصغار المسخرين في
هذا الزمن بقصد النيل من العقائد ومكتسبات الشعوب المناضلة وتقويض
كل دعامة قائمة من دعائم المجتمع الإنساني في كل بيئة • هذا لسو
تغاضينا عن أن هذا المسلك هو مسلك العاجزين المستسلمين للكسل
والحسد ليداروا به عجزهم فيتناولون على كل عمل مفلح وكل هدف
بناء • وتلك — والعاذ بالله — صفة من الصفات البارزة في كل فرد من
أفراد الشيوعية أو مذهب «ذوي العاهات» كما لقبهم أحد المفكرين
العرب •

بعد فشل الانقلاب ..



صورة بعض القادة الشيوعيين الهاربين ملصقة على جدران شوارع الخرطوم



متآمر .. بعد اللقاء القبض عليه في طريقه الى التحقيق

هَـدَامُون .. وَمِـهْدُومُون

تعرف الشيوعية في الاصطلاحات الحديثة بأنها مبدأ من المبادئ الهدامة ، ويطلق على الداعين إليها والمروجين لها لقب الهدامين للقيم والنظم . وحصيلة الدعوى في مقاييس الإنسانية الصحيحة أن أتباعها هدامون مهْدومون . ذلك لأنها مذهب لا يقبله إلا من تلوث طبائعه بلوثة اللؤم والانانية وأسقط من نفسه تبعة العمل ومؤونة التكليف ، وغلبت فيه الكراهية والحسد على محبة الخير للناس ، فالإنسانية تعرف أن الشيوعية لا يقبلها الفقير المحروم الذي برئت نفسه من لوثة الحسد والحقد والكراهية واستقر في طبعه صدق الإيمان بالجد والكفاية ، وإنما يتقبلها المحروم إذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل وسولت له الأنانية أن يطمع في جميع الحقوق ويسقط عن كاهله جملة القروض والتكاليف .. ومن كان كذلك من الأغنياء فهو شيوعي وإذا لم يكن من العاملين باليد أو ضحايا الحرمان .

وان ما قام به الشيوعيون في السودان في الآونة الأخيرة مثل صادق على آفة الحقد والكراهية التي ملكت تلك النفوس الحاقدة وتلك الشخصيات المخدجة . وان يوم ١٩ يوليو ١٩٧١ سوف يقف أمامه المؤرخون طويلا وهم يكتبون تاريخ السودان الحديث ، لأنه قد مثل

نقطة سوداء داكنة في مسيرته عبر الاجيال . «إن الذين قاموا بذلك
الانقلاب الفاشل قد ملك الحق عليهم نفوسهم . لأنهم لو - كانوا -
مواطنين صالحين حقا لكان في امكانهم أن يقوموا بعمل إيجابي كما
يقوم حاة ثورة مايو المباركة . ولكنهم بعد تلك التجربة التي عاشها
السودان أثبتوا للعالم كله ، أنهم كانوا معاول هدم لا تعرف الاصلاح .
«إن الذي حدث في السودان خلال تلك الأيام . . كان حسابا ختاميا
بين الذين قاموا بثورة مايو وليجعلوا منها نقطة انطلاق لتعويض ما فاته
من سني التخلف والانطلاق به الى آفاق جديدة قوامها إنعاش المواطنين
ورفاهيتهم من ناحية ، ودعم القوة التحررية في العالم العربي من ناحية
أخرى ، وبين أصحاب الايديولوجيات الذين أرادوا أن يرثوا هذه الثورة
وهي لا تزال على قيد الحياة . ولكن ثورة مايو فوتت عليهم أغراضهم
وكان في طليعتها الاستئثار بالسلطة . ثم يأتي بعد ذلك تنفيذ مخططهم
الذي لم يكن يعرف مداه إلا الله» (١) .

وقد صدق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر حينما وصف أتباع
الشيوعية في معرض تقديمه لكتاب «حقيقة الشيوعية» بأنهم صاروا
آلات في جهاز الانتاج العام - وكانوا بشراً ذوي إرادة . وهذا كل ما
كسبه الشيوعيون من شيوعيتهم (٢) .

فأتباع هذا المذهب في كل مكان هم عبارة عن جماعة من مرضى
التعصب والهوس والجنون بالفكرة الواحدة النابتة من اختلال الشخصية
والأعصاب المعتلة . فهم فئة من الناس يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة .

-
- ١ - اخبار اليوم ٣١-٧-١٩٧١ مقال بعنوان «الذي حدث في السودان . .
ولماذا حدث» للدكتور محمد المعتصم سيد .
 - ٢ - مقدمة كتاب «حقيقة الشيوعية» سلسلة اخترنا لك - الكتاب
رقم (١١) منشورات دار المعارف .

ويؤيد هذا الاتجاه رأي أحد المتأدين الذين انضموا الى أحد الأحزاب الشيوعية حينما قال : «قرأت بيان كارل ماركس وأعجبت به شعري ويقول لي ان لك موهبة عظيمة ، ولكن لما جاء فلان وبدأ ينشر وهناك فئة من الناس تنضم الى المذهب لا لاعتلال في أجهزتهم العصبية ولكن لانهم يحاولون أن يجدوا مسوغا لغضبهم على المجتمع وافراغ هذا الغضب في قالب أخلاقي .

كذلك توجد فئة ثالثة تنضم الى المذهب لا لشيء الا لرغبة في قلب الأنظمة وتغيير الأحوال ، وهؤلاء يسلوهم الشعور بالعداء والخصومة والنقمة والتذمر فيجدون بذلك في هذا المذهب ما ينسي فيهم روح العداء والخصومة . وهذا الصنف من الناس مصابون بالميل الى الخصومة والعداء فيجدون في الحزب الشيوعي انه الهيئة التي تقوم على بث العداوة وإذكاء الخصومة والمناداة بالخروج على النظام والأحوال الراهنة . فعن طريق خلاياه يتاح للفرد فرصة لاظهار مشاعر العداء والخصومة من خلال المناقشات الحادة والمظاهرات الصاخبة والمنشورات الثورية او الخطب العدائية . وفي كل هذه المظاهر يبدو الشعور بالخصومة والعداء والنقمة في حل الحماسة للحق والدفاع عن مصالح الانسانية وتهئية المستقبل وأمثالها من تلك الدعاوى العريضة التي لا تسعها الا من معسكرات الشيوعيين دون سواهم .

ويتخيل الشيوعي دائما انه رجل له مكان فيما يطلقون عليه الحركة التقدمية العالمية وانه دائما محاط بمجموعة كبيرة من الرفاق يتفانون في تأييد الدعوة الشيوعية .

١ - حقيقة الشيوعية سلسلة اخترنا لك رقم (١١) صفحة ٦٤ منشورات دار المعارف .

ويستفاد من دراسة العلماء النفسيين الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع ودراسة حالات كثيرة لأفراد انضموا الى الاحزاب الشيوعية «أن في طبيعة الامراض النفسية والعلل الداخلية التي تميل بالناس الى الانضمام للشيوعية ، الشعور بالعداء ، والشعور بالعزلة والوحشة ، والشعور بالاتباذ ، وتفاهة القيمة وقلة الشأن» (١) .

نستخلص من كل هذا أن معظم أسباب الاستجابة للدعوة الشيوعية ، هو الشعور بالنقص في أي صورة من الصور ، فكلما ازداد شعور الناقص بنقصه ، والتافه بتفاهته زاد استعداده لتقبل الشيوعية والاستجابة لدواعيها ، فهي في أكثر أحوالها مظهر من مظاهر اعتراف المرء على نفسه - من حيث لا يريد - بضعته وهوانه وقلة شأنه .. وحقده على البشرية ، ذلك الحقد الذي يسد عليه مسالك التفكير السليم ويدفعه الى هدم المجتمعات والقيم الانسانية غير عابىء بما يترتب من وراء دعوته من خراب ودمار وقتل للابرياء الذين لا جريرة الا انهم مواطنون عاديون وليسوا بشيوعيين .

وحسبنا كلمة كتبها زعيم الشيوعية الكبير لينين مرة خلال رسالة بعث بها الى الاديب الروسي الكبير مكسيم جوركي حيث قال : « إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء ، وإنما الشيء الهام أن يصبح الربع الباقي منهم شيوعيين ! » (٢) .

فالفرد الذي يرى أن في هلاك ثلاثة أرباع العالم أمرا هينا ، بل ليس بشيء ما دام سيضمن في النهاية ان الربع الباقي سوف يعتنق دعوته لهو فرد أقل ما يقال فيه أنه مجرم عريق في الاجرام ، وأقل ما

-
- ١ - حقيقة الشيوعية سلسلة اخترنا لك الكتاب رقم (١١) صفحة ٧٠ - منشورات دار المعارف - القاهرة .
 - ٢ - المرجع السابق صفحة ٢٥ .

يقال في أتباعه أنهم أناس ملأشون قد أصيب تفكيرهم بالخلط والاضطراب .
فأي أهدار للأدمية وإرخاص لشن الإنسان أبلغ من هذا الهوان ؟

ما تقدم يسكتنا القول أن القيم البشرية لا مكان لها في مفاهيم الشيوعيين بل أن هناك من الأشياء التي نلاحظها في الحيوان الأعجم الفجور التي تنتشر عادة بين النساء الشيوعيات والرفقاء في الحزب أو الخلية .

وقد رأينا في بعض قضايا الشيوعية بمصر واحدة من «زوجات الدولة» اسمها «ميري روزنتال» كان لها في مصر زوجان تختلف إلى كليهما وتقاسم كلا منهما الفراش حين تشاء أو حين يشاء هو ، ولم تنكر هي أنها «زوجة» لكل منهما ، ولم ينكر أحد منهما أنها «زوجته» ولم نر أو ير أحدهما في ذلك عيبا لأنهم جميعا شيوعيون » (١) .

والشريف أن مثل هذه الأمور كان يرتكبها أعضاء الحزب الشيوعي السوداني ، بل كانت من أهم وسائلهم لاجتذاب الشباب السوداني إلى حظيرتهم ونعني بها العلاقات الجنسية التي يتيحونها لهم مع النساء الشيوعيات . غير عابئين بأن المجتمع السوداني كما هو معروف مجتمع ديني تلعب العقيدة الإسلامية دورها الهام في تنظيم العلاقات بين أفرادها .

١ - حقيقة الشيوعية سلسلة اخترنا لك الكتاب رقم (١١) منشورات دار المعارف بالقاهرة صفحة ١٨٧ .

حُبِّ واجتماع

«أصدر مجلس الثورة السوداني قرارا بالاجتماع في اجتماع شامل عقده أمس بإجراء إستفتاء شعبي على رئاسة الجمهورية في السودان يوم ١٥ سبتمبر وترشيح اللواء جعفر نميري لاختياره رئيسا لجمهورية السودان الديمقراطية» .

خبر صغير نشرته صحيفة «الاجبار» القاهرية بعددها الصادر ١٩٧١-٣ ولكن الشيء الكبير فيه انه جاء عقب فشل تلك المؤامرة التي تعرض لها نظام حكم الرئيس «نميري» خاصة والسودان بوجه عام. وصحيح أن الجماهير السودانية قالت كلمتها في رئيسها «جعفر نميري» يوم فشل انقلاب هاشم العطا بمساندة الشيوعيين الذين كانوا وراءه. فالجماهير السودانية عندما خرجت كالأعصار غير عابئة بالرصاص الذي كان يملأ شوارع المدن السودانية لتقول وسط هذا كله «عائد يا نميري» كانت صرخاتها تحمل في طياتها مبايعة جماعية واستفتاء عاما يجمع على أن السودان لا يرضى بديلا عن «نميري» رئيسا لجمهورية. ولكن الرئيس «نميري» هو الوحيد الذي قال يومذاك «لا» لأنه يريد أن يبرف رأي كل فرد في الأمة السودانية وحدد نسبة عالية يستحيل أن

يقبل بدونها تولي رئاسة الجمهورية . كذلك لم يشأ الرئيس «نميري» أن يترك الناس على عواطفهم بل طرح لهم نفسه في برنامج عمل واضح . لقد عرف الشعب السوداني الأصل رئيسه «نميري» منذ الخامس والعشرين من مايو مناضلا حرا من أجل الملايين من أبناء شعبه ، بل عرفه قبل ذلك بسنوات عرفه في أكثر من موقف وطني كان من أبرزها موقفه من ثورة أكتوبر ١٩٦٤ عندما فوت على الحكومة القائمة يومذاك مقابلة الجماهير بطلقات الرصاص وهي تطالب بحقها في الحياة .. بحقها في الحرية .. بحقها في الحياة الكريمة .

إزاء ذلك كله لم يكن الرئيس «نميري» في حاجة الى سؤال الجماهير عادة عن هويته أو شخصه . فقد رأوه في حياتهم اليومية والتقوا به في طوافه عليهم .. ساعيا بالثورة لهم حيثما كانوا حقا وعدلا ، لقد دخل الرئيس «نميري» كل بيت بثورته بالقرار وبالحسم وبالانجاز . بل بالصورة الجديدة للحياة التي يعمل على ارسائها من أجل ابنائهم وبناتهم . فهو الرئيس الوحيد الذي عرفه السودان يعمل لأجل السودان وأبنائه ، بل هو الوحيد الذي سمعته الجماهير السودانية يقول : لا إستغلال ولا أجراء ولا وكلاء ولا وسطاء . الشعب سيد نفسه .

ان الرئيس «نميري» بدون شك هو الرئيس الوحيد الذي وطئت أقدامه كل شبر من مليون ميل مربع هي كل مساحة السودان تقريبا . لقد وصل الى مناطق كان سكانها يرون في زيارة الحاكم لهم حلما بعيد المنال .

روت مجلة آخر ساعة ان الرئيس «نميري» اثناء جولته في أرجاء السودان تقدم اليه اهالي احدى جزر المديرية الشمالية بعريضة تحتوي أحد عشر مطلباً فناقشهم الرئيس نميري في تلك المطالب فلما اقتنع بعداتها أصدر تعليماته قبل أن يغادر الجزيرة فأثارت استجابة الرئيس «نميري» لمطالب أهل الجزيرة فبادروا بعقد اجتماع أعلنوا فيه انهم قد

أصبحوا مدينين له بأحد عشر دين ، دين مقابل كل مطلب أمر بتنفيذه ثم
أقسموا على أن يكون سداهم لأول هذه الديون انتخابه رئيساً
للجمهورية (١) .

كذلك لا يفوتنا أن نذكر للرئيس «نميري» جانباً إنسانياً كبيراً غمر
به أسرة المرحوم اسماعيل الأزهرى رئيس مجلس السيادة السابق . فقد
توفي الأزهرى وترك لأسرته ديوناً متراكمة عليه لدى البنك التجارى
السودانى مقدارها أربعة عشر ألفاً من الجنيهات . فبادر الرئيس الإنسان
بإصدار قرار جمهورى بإعفاء أسرة الأزهرى من ذلك الدين الكبير
وضمن القرار نفسه منح الأسرة معاشاً شهرياً قدره مائة جنيه .
وصحیح أن اسماعيل الأزهرى كان أحد مدرسي الرئيس نميري في

المراحل الوسطى وربما يقول قائل ان في عمل الرئيس «نميري» هذا
واجباً كرد لجميل أحد اساتذته عليه . ولكن ردنا على ذلك القائل المتعجل
هو : كم رئيساً من رؤساء الثورات في العالم قام بمثل هذا العمل ؟
ففي اجابته لهذا السؤال ما يغنيه عن السؤال والاستفسار .
وقد روي أيضاً أن الرئيس «نميري» حينما زار ومعه أعضاء

مجلس الثورة دارفور استوقف سيارتهم رجل عجوز وقال لهم بلهجتة :
— أنا سمعت ان الرئيس جاي فايت بهنا .. ومينه الرئيس فيكم ؟
فتقدم «نميري» ليقول : أنا .

قال الرجل : قالوا لي قمت بشورة .. وقالوا لي دي انت قمت بيها
لأنه الناس اللي جابوا الاستقلال خانوا . لكن والله أنا اقول ليكم
الحقيقة نحن ما شعرنا بأن الانجليز مرقوا من البلد .. يعني الانجليز
كانهم قاعدين . فأتوا شويه خلونا نشعر معاكم .. اننا قايمين معاكم أي

-
- ١ - مجلة آخر ساعة عدد خاص عن السودان اكتوبر ١٩٧١ .
 - ٢ - مجلة آخر ساعة عدد خاص عن السودان اكتوبر ١٩٧١ .

تؤيدكم .. الحالة اليوم أحسن بدأنا نشعر بأنه فعلا في ثورة وتغيير» .
لم ينتظر الرئيس «نميري» الجماهير السودانية حتى تقول كلمتها
في توليه منصب رئيس الجمهورية . فطرح برنامجا عليها كما يفعل
الكثيرون فقام بطرح تصورات له للدولة الجديدة التي يعمل لانشائها . فهي
في نظره مدرسة سياسية شعبية يراها أبناء السودان لأول مرة فسي
حياتهم .. الديمقراطية فيها لا تمارس بالوكالة .. الشعب فيها مصدر
كل سلطة .. الاتحاد الاشتراكي السوداني هو واجهتها السياسية التي
تعبّر عن الإرادة الشعبية في تحالف متين لكل قوى الشعب العامل ..
المسئولية فيها ليست حكرا لجماعة أو أفراد .. ليس للارهاب والسرية
مكان فيها . بل رأينا يقول لشعبه انه «يحتاج لكل فرد بجانبه» بل في
تواضع العظماء رأينا يقول لشعبه أيضا «انما أنا بشر ومعرض
للخطأ .. مهما كان اخلاصي وقوتي لا يمكن تقديم كل الخدمات اللازمة
لقطر مساحته مليون ميل مربع وعدد سكانه عشرون مليونا أو يزيد» (١) .
فمن أجل هذه الاعمال والاقوال الصادقة ومن أجل غيرها قالت
الجماهير السودانية «نعم» بالاجماع وقد كانت لحظات تاريخية خالدة
عندما اعلنت نتيجة الاستفتاء بالاجماع على تنصيب «نميري» أول رئيس
لجمهورية السودان . وقد نال الرئيس «نميري» ثلاثة ملايين صوتا
وبضعة آلاف أي بنسبة مئوية قدرها ٩٨,٦ بالمئة .

وقد وقف الرئيس «نميري» في قاعة الشعب واضعا يده اليمنى فوق
كتاب الله الكريم ليؤدي اليمين الدستورية بصوته الجمهوري قائلا :
«أقسم بالله العظيم أن أحافظ على النظام الثوري الاشتراكي وأن

١ - مجلة آخر ساعة عدد خاص عن السودان اكتوبر ١٩٧١ مقال السيد
عمر الحاج موسى وزير الاعلام والثقافة السوداني بعنوان «جعفر نميري
رئيسا للجمهورية» .

احترم أحكام القانون وأن أؤدي واجبي كرئيس للجمهورية بأمانة
واخلاص وأن أحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه» .
لقد عاش شعب السودان لحظات تاريخية خالدة وهو يحتفل بتنصيب
الرئيس «جعفر محمد نميري» رئيسا للجمهورية .. انه اول مواطن
سوداني يتولى منصب رئيس الجمهورية .
وفي ذلك اليوم التاريخي العظيم احتشد الشعب السوداني على طول

شارع النيل من قصر الشعب حتى وزارة الاسكان في أكبر وأروع لقاء
جماهيري لتحية الرئيس الذي خرج من صلب الشعب ليقود ثورته
الوطنية المجيدة .

كانت التهافتات تتعالى تحية للرجل الذي حمل آمال الشعب على كفه،
وراح يرسم بها صورة المستقبل المشرق .
وكانت الوجوه كلها تعبر عن فرحتها بهذا اليوم التاريخي الخالد من
أيام السودان العريق .

روى الذين شهدوا ذلك اليوم وتلك اللحظات التاريخية أن جماهير
الشعب السوداني لم تتمالك نفسها عندما ظهر الرئيس «نميري» في
سيارته وهو في طريقه الى قاعة الشعب ليؤدي اليمين الدستورية بمناسبة
انتخابه رئيسا للجمهورية فاندفعت نحو سيارته وأحاطت بها من كل
ناحية وهي تهتف «نميري .. نميري» .

ولم تسمح الجماهير للموكب بالتحرك الا بعد أن وقف الرئيس
«نميري» فوق سيارته ، ثم رفع يده اليمنى لتحية تلك الجموع الحاشدة
التي تدفقت حول سيارته . وكان يحمل في يده نسخة من المصحف
الشريف .

وكان الرجل يريد أن يقول لجماهير شعبه العريق «هذا كتاب الله عهد
بيني وبينكم ايها الشعب الوفي الأمين» .

لقد كان الرئيس «نميري» بسيطا في احتفال توليه منصب رئيس

الجمهورية كمعادته في كل أموره بعيدا عن طيلسان الحكم وهالته الكاذبة التي كان حكام السودان السابقون يحرصون عليها .. فقد كان عدد الذين شهدوا حفل أدائه اليمين الدستورية لا يزيد عن خمسمائة مدعوه هم الصفوة الذين يقودون مسيرة شعب السودان في هذه المرحلة التاريخية من حياته . فهم يمثلون تحالف قوى الشعب العامل مسن مزارعين وعمال ومثقفين وجنود ورأسمالية وطنية . وقد كان على رأس الذين شاركوا في الاحتفال أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي انحل من تلقاء نفسه على أثر اعلان نتائج الاستفتاء الشعبي الكبير وانتخاب الرئيس «جعفر محمد نميري» رئيسا للجمهورية .

وبعد أن فرغ الرئيس «نميري» من تلاوة اليمين الدستورية انطلقت المدفعية تقصف واحدا وعشرين طلقة كتحية لأول مواطن سوداني يتولى هذا المنصب وعلى الفور ارتفع فوق سارية قصر الشعب علم رئيس الجمهورية لأول مرة أيضا .

وفي مساء نفس اليوم احتشد آلاف المواطنين من أبناء السودان حتى ميدان سباق الخيل بمدينة الخرطوم في اعظم لقاء جماهيري عرفه السودان .

وهناك القى الرئيس «نميري» خطابا سياسيا عظيما جاء فيه :
«انه سيبقى دائما على العهد .. ولن تكون هناك وصاية على الثورة الا وصاية الشعب» .

وعلى اثر اتمام مراسم تنصيب الرئيس «نميري» رئيسا للجمهورية السودانية أصدر قرارا بتعيين السيد بابكر عوض الله (١) نائبا أول لرئيس الجمهورية واللواء خالد حسن عباس وأييل البر نائبين لرئيس

١ - أعفي أخيرا من منصبه .

الجمهورية أيضا •
وقد تم تشكيل وزارة جديدة برئاسة الرئيس «نميري» نفسه ضمت
سنة وعشرين وزيرا وقد قسمت الوزارات الى قطاعات على النحو التالي:

وزارات السيادة :

وتشمل وزارات الدفاع - الخارجية - الداخلية - العدل -
الخدمات العامة والاصلاح الاداري •

وزارات الخدمات :

وتشمل وزارات الحكومات المحلية - الاسكان والمرافق العامة -
المواصلات والتموين •

وزارات الاقتصاد :

وتشمل وزارات التخطيط - الخزانة - الاقتصاد والتجارة والصناعة
والتعدين والنقل •

وزارات الزراعة :

وتشمل وزارات الزراعة - التعاون والتنمية الريفية - الري -
والطاقة الكهربائية والانتاج الحيواني •

وزارات التوجيه :

وتشمل وزارات التربية والتعليم - الاعلام والثقافة - الشباب
والرياضة - الشؤون الاجتماعية - الشؤون الدينية والاعراف - التعليم
العالي والبحث العلمي •

هذا الى جانب وزراء الدولة الذين يضمهم تنظيم الوزارة الجديدة
لشئون رئاسة الجمهورية ولشئون مجلس الوزراء ولشئون الجنوب .
كذلك أصدر الرئيس «نميري» قرارا جمهوريا بتعيين الرائد مأمون
عوض أبوزيد أمينا عاما للاتحاد الاشتراكي في جمهورية السودان .

وأصدر الرئيس «نميري» قرارا بتعيين اللواء أركان الحرب محمد
عبد القادر رئيسا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة السودانية خلفا
للواء أركان الحرب محمد الباقر الذي اختير ليكون وزيرا للداخلية في
الحكومة السودانية الجديدة . وكذلك تقرر ان يطلق على القوات
المسلحة السودانية اسم قوات الشعب المسلحة .

وتقرر -أيضا- طبقا لما يقضي به النظام الجديد في السودان انشاء
أمانة عامة لرئاسة الجمهورية وأخرى لمجلس الوزراء .

اختير للأولى السيد السعيد مهدي مصطفى الذي كان يشغل منصب
مستشار رئيس مجلس قيادة الثورة للشئون الخارجية من قبل ، واختير
للتانية السيد احمد بابكر عيسى وهو نفس المنصب الذي كان يشغله
من قبل .

وقد كان تشكيل الوزارة السودانية الجديدة على النحو التالي :

وزيرا للدفاع (١)
وزيرا للخارجية

- اللواء خالد حسن عباس
- الدكتور منصور خالد

١ - تقدم اللواء خالد حسن عباس بعد ذلك باستقالته للرئيس نميري
طالباً اعفائه من منصبه نظراً لدواعيه الصحية التي تحول دون استمراره
في العمل . ففضل الرئيس نميري بقبولها .

وزيراً للداخلية
 وزيراً للعدل
 وزيراً للخدمة العامة والإصلاح الإداري
 وزيراً للحكومة المحلية
 وزيراً للإسكان والمرافق العامة
 وزيراً للصحة
 وزيراً للمواصلات
 وزيراً للتموين
 وزيراً للتخطيط
 وزيراً للخزانة
 وزيراً للاقتصاد
 وزيراً للصناعة
 وزيراً للنقل
 وزيراً للزراعة
 وزيراً للتعاون والتنمية الريفية
 وزيراً للإنتاج الحيواني
 وزيراً للري والطاقة الكهربائية
 وزيراً للتربية والتعليم
 وزيراً للإعلام والثقافة
 وزيراً للشباب والرياضة والشئون
 الاجتماعية

وزيراً للأوقاف والشئون الدينية
 وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي
 وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية
 وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء
 وزير الدولة لشئون الجنوب

نائباً لوزير الدفاع
 نائباً لوزير الخارجية
 نائباً لوزير الإعلام والثقافة
 نائبة لوزير الشباب والرياضة
 نائباً لوزير الدولة لشئون الجنوب

- اللواء أ. ح. محمد الباقر أحمد
 - السيد أحمد سليمان
 - السيد عبد الرحمن عبد الله
 - الدكتور جعفر محمد بخيت
 - السيد مبارك سنارة
 - الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم
 - الدكتور بشير عبادي
 - السيد موسى عوض بلال
 - السيد رئيس الوزراء
 - السيد محمد عبد الحليم عبد الرحمن
 - السيد إبراهيم منعم منصور
 - الدكتور أحمد عبد الرحمن العاتب
 - الرائد زين العابدين أحمد عبد القادر
 - السيد وديع حبشي
 - الدكتور عثمان أبو القاسم
 - الدكتور محمد النصري حمزه
 - السيد يحيى عبد المجيد
 - الدكتور محيي الدين صابر
 - السيد عمر الحاج موسى
 - المقدم صلاح عبد العال

- الدكتور عون الشريف قاسم
 - الدكتور أحمد محمد الحسن
 - الرائد أبو القاسم هاشم
 - السيد موسى المبارك الحسن
 - السيد إميل البر

كذلك تضمن التشكيل الوزاري كلا من :

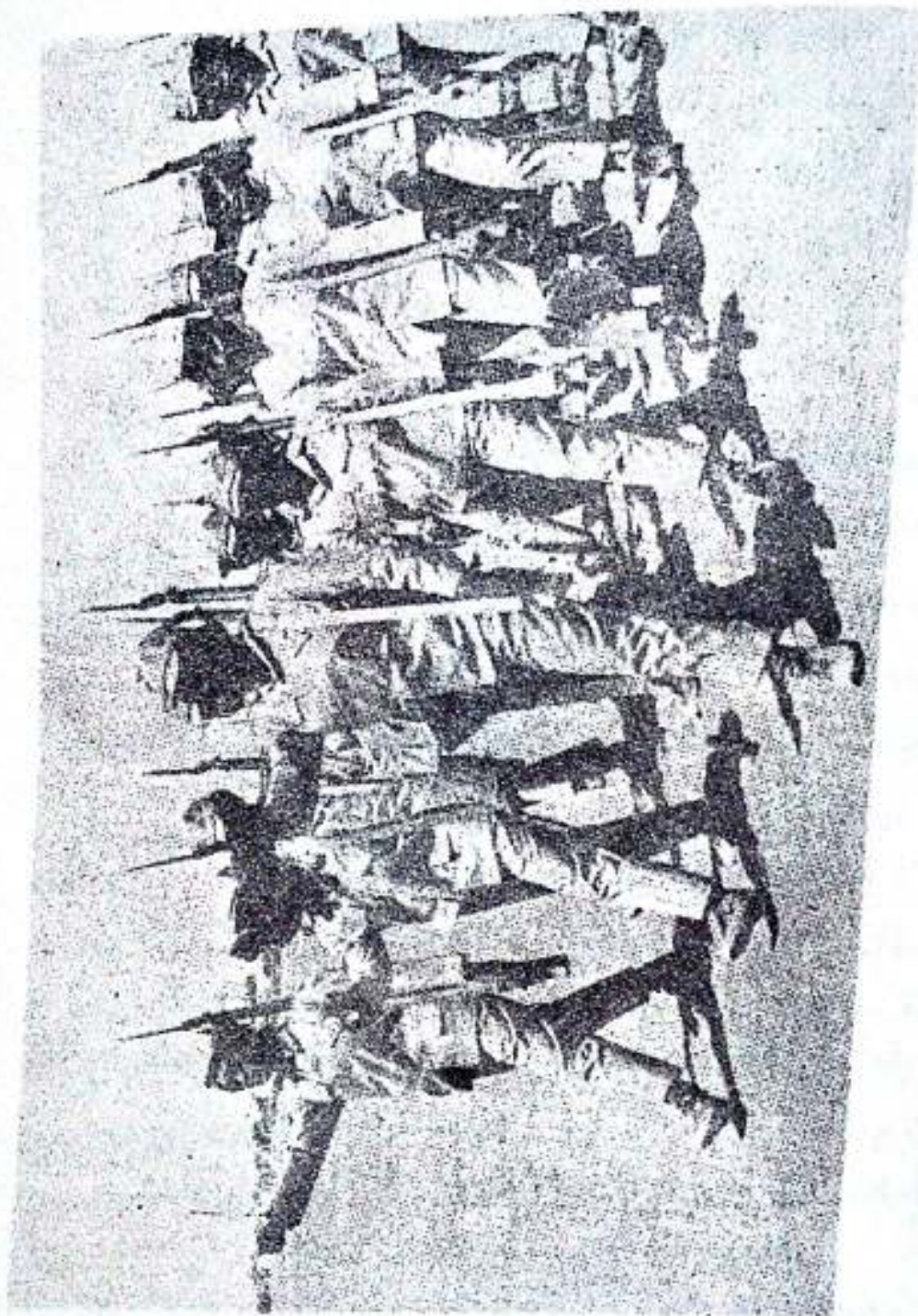
- اللواء مصطفى عثمان
 - السيد فخر الدين محمد
 - السيد أحمد عبد الحليم
 - السيدة نفيسة أحمد الأمين
 - السيد بيتر جات كوات

ولا يفوتنا ان نذكر ان المرأة السودانية ساهمت بدور واضح في عملية الادلاء بالاصوات في انتخاب الرئيس «نميري» لرئاسة الجمهورية السودانية .. وقصة المرأة السودانية مع الرئيس «نميري» بدأت منذ قيام ثورة الخامس والعشرين من مايو . فقد ادلى الرئيس «نميري» عقب نجاح الثورة بحديث صحفي لمجلة «حواء الجديدة» السودانية والتي كانت الادبية عصمت عبد الجواد ترأس تحريرها آنذاك .

قال الرئيس نميري عن المرأة السودانية يومذاك : «انها نصف المجتمع .. بل هي حياة المجتمع وقلبه النابض .. هي الأمومة الصادقة والزوجة المخلصة والأخت الوفية .. لقد ظلت فترات طويلة من الزمان مكبلة بقيود وسدود جاهدت الكثيرات من بنات السودان لكي يحطمن هذه القيود وأقبلن على العلم يرتشفن من مناهله فحصلن على مؤهلات علمية مشرفة . وثلن حقوقهن السياسية والتحقن بالوظائف العامة . وكثيرات منهن عملن بالسياسة في إطار الاحزاب السياسية المنحلة .. ولكن هل معنى هذا أن المرأة السودانية اخذت حقوقها كاملة ؟ وهل مكنتها العهود البالية من اداء رسالتها ؟ .. أقولها بملء فمي .. لا .. ان حكومة الثورة تدرك الدور الخطير الذي يمكن أن تلعبه المرأة السودانية في اعادة تنظيم هذا المجتمع على أسس سليمة لذلك فقد حرصت منذ الوهلة الاولى على العمل على اعادة الحقوق المسلوبة للمرأة، وفتح المجالات أمامها للعمل بمساواة كاملة مع الرجل» .

ثم استطرد الرئيس «نميري» يومذاك قائلاً لرئيسة تحرير المجلة المذكورة : «سندعم الجمعيات والهيئات النسائية لتؤدي رسالتها نحو المجتمع بصورة جدية وفعالة ايماناً منا برسالة هذه الجمعيات التطوعية النبيلة .. سنعمل على أن تقف المرأة جنباً الى جنب مع الرجل في التشييد والبناء» .

اجتازت ثورة الخامس والعشرين من مايو عامها الثالث رغم ما مر



واخيرا .. نالت المرأة السودانية حقوقها بفضل «نميري»
لتشارك في بناء الوطن

بها من محن وشدائد تسبب فيها دعاة الهزيمة وقلول الرجعية ولكنها
وبرغم هذا كله استطاعت أن تضع القواعد السليمة لكي تقف المرأة
السودانية على أرض صلبة متكافئة مع الرجل في بناء سودان الثورة
الجديد .

وقد أصدر الرئيس «نميري» في يونيو عام ١٩٧١ قرارا بتشكيل
اتحاد نساء السودان الاشتراكي كبديل للاتحاد النسائي المنحل . وقد
كونت أمانة عامة له من النساء السودانيات برئاسة السيدة نفيسة كامل
والسيدة حاجة كاشف نائبة للرئيسة والسيدة محاسن عبد العال مقرر
عامة . كذلك انشئت مكاتب تابعة لهذه الامانة اولها مكتب التنظيم
ومقرته الرائدة عائشة حسن ، وثانيها مكتب البحوث والتخطيط
ومقرته السيدة بديعة عبد الرحمن ، والمكتب المالي ومقرته الآنسة
ماري سيرسيوايرو . هذا الى جانب مكتب الاتصال والاعلام الذي تولت
وظيفة المقررة فيه السيدة أم سلمة سعيد ومعها الدكتورة فاطمة عبد
المحمود والسيدة نفيسة أحمد الامير والسيدة نفيسة المليك والسيدة
آمنة بنت وهب والسيدة حواء محمد صالح كعضوات .

لقد استطاعت المرأة السودانية أن تنال حقوقها بفضل رعاية الرئيس
«نميري» لها فقد مثلت في المجالس المحلية بنسبة ٢٥ بالمئة كما مثلت في
مجالس المديريات التنفيذية ومجالس الحكم المحلي ولجنة الميثاق الوطني
واللجنة التمهيدية للاتحاد الاشتراكي السوداني والسلك الدبلوماسي
والمؤسسات المؤممة والمصادرة . وقد فتح أمامها أيضا المجال لدخول
الكليات العسكرية فقد التحقت اثنتان من خريجات جامعة الخرطوم
بكلية البوليس .

فلا عجب بعد ذلك كله أن تكون كلمة المرأة السودانية يوم الاستفتاء
«نعم» فقد قالتها للرجل الذي منحها حقوقها .. للرجل الذي جاء

لسودانين بمفاهيم جديدة .. للرجل الذي كرم حواء في احدى بناتها
وهي السيدة نفيسة احمد الامين حينما اصدر قرارا جمهوريا بتعيينها
نائبة لوزير الشباب والرياضة والشئون الاجتماعية فكان هذا ايمانا منه
برسالة المرأة ودورها الطليعي في بناء السودان الثورة .
ان السودان الحديث حينما قالت جماهير شعبه «نعم» لرئيسها
المحبوب «نميري» اعطت القوس بارها ..

ولكن هناك كلمة لا يغفلها الباحث في قضايا السودان الاخيرة ونعني
بها محاولة الانقلاب الفاشل الذي قاده الحزب الشيوعي السوداني . فقد
ثرثرت بعض الألسنة الممالئة للشيوعية بأن ما حدث للانقلابيين بعد فشل
محاولتهم كان نوعا من القسوة من الرئيس «نميري» لانه اذان أناسا
بالموت . وفاتهم انه ومن ورائه شعبه البطل لم يفعل بهم سوى ما يفعله
القاضي حينما يدين المجرم بذنبه .

فما أعجب هؤلاء حينما يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذي
استوجبها كما يستوجب السبب النتيجة .

ورغم هذا كله ، ورغم دعايات أنصار الشيطان فقد أحب الرئيس
«نميري» اصدقاءه وأحبه لانه طبع على الصداقة النظيفة ، أما أعداؤه
وأعداء الشعب السوداني البطل فقد لقوا جزاءهم لانهم طبعوا على
إلعداء والاعتداء .

أما بعد ..

أما بعد .. كلمة تقفز الى الوجود بعد أن رأينا خلال تلك الصفحات كيف تسلمت تلك الدعوة الهدامة الى صفوف شعب السودان الأصيل ، وكيف حاولت تلك الطغمة من دعايتها أن يثيروا القلاقل وينشروا الشغب طوال فترة الكفاح الوطني السوداني حتى وصلنا مع القاريء الصديق الى تلك المحاولة الفاشلة التي قادها هاشم العطا ومن ورائه سكرتير الحزب الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب في صيف عام ١٩٧١ وكيف استطاع الرئيس «جعفر نميري» ومن ورائه شعب السودان البطل أن يقضي على تلك المحاولة في مهدها ، وكيف استطاعا بالتالي القضاء على الشيوعية في البلد العريق . وصحيح أن السودان قد نفذ حكم الاعدام في الرؤوس التي قادت الحركة وزج ببعضها الآخر في السجن، ولكن ما يجب على أبناء السودان أن يدركوه هو أن هناك كثيرين منهم مختبئين . وانهم ربما سيبعدون عن المواقع او ينزلون تحت الارض لفترة من الزمن ثم يعيدون النظر في استراتيجيتهم وتفكيرهم ويلتصقون أكثر بالارض بعيدا عن الاضواء حتى يتمكنوا من اعادة التنظيم لاسيما انهم فور تنفيذ الحكم في عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب قاموا في سرية تامة وفي سرعة خاطفة - كما ذكرت بعض الانباء - بانتخاب

محمد ابراهيم نقد أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني

خلفاً لعبد الخالق محجوب .
إزاء مثل هذا التوقع يجب على كل سوداني يؤمن ببلده أن يكون في حالة يقظة دائمة لقطع رأس ذلك الثعبان كلما حاول أن يعاود الظهور صيانة مكتسبات الأمة السودانية والتي حققتها لهم ثورة الخامس والعشرين من مايو .

ويجب على كل سوداني -أيضاً- أن يضع كلمات الرئيس «نميري» عن وحدة الصف نصب عينيه حينما قال : «ان الوحدة الوطنية هي سلاح معركتنا الرادع ودروعها الواقية ...» (١) ذلك لأن الاستعمار لا يفتأ يغير أساليبه ويغير جلده كما يقال عنه . وليكن ادراك كل مواطن سوداني أن ثورتهم حينما تفجرت في الخامس والعشرين من مايو عام ١٩٦٩ وضعت في اعتبارها أنه لا مكان للرجعية في كيانها أو بين صفوف أبنائها ، وأنها لن تفسح مكاناً بين صفوفها لمن خانوا الشعب السوداني الكريم وقدر لهم ان يعيشوا طوال سنوات الفساد الرجعي على كدح الكادحين وعلى حساب عرق الجماهير .

لقد تعودت الشعوب أن الاستعمار لا يكون الفشل نهاية لتحركاته وانما يكون دائماً دافعه لمزيد من التآمر وهذا ما يجب أن يثق به المواطن السوداني الشريف بعد حركة الشيوعية الاخيرة في ربوعه ، تلك التي حاولت أن تحطم مقدراته ومكتسباته خلال حركة فاشلة هوجاء . يقول الرئيس نميري في خطاب له : «ان حماية مكاسب الشعب تتطلب اليقظة والتأهب والاستعداد .. وان ردع التآمر الرجعي لا يتم الا بالعزل الذي لا يعرف الرحمة لمن خانوا هذا الشعب وأسهموا فسي

١ - من بيان الرئيس جعفر محمد نميري في ١٢ فبراير ٧١ منشورات وزارة الارشاد القومي الطبعة الثانية صفحة ١٥ .

تضليله « (٢) •
ان المواطن العربي الحر يتمنى للسودان الشقيق ما تمناه له الرئيس
الراحل رائد القومية العربية جمال عبد الناصر حينما قال :
«إننا معك أيها الأخ الشقيق يداً واحدة وقلبا واحدا • • تتضامن
ضد العدوان وضد حملات الكراهية • والحق • اننا بعون الله سننتصر
كما انتصرنا وسننتصر بعون الله» •

٢ - من خطاب للرئيس جعفر محمد نميري في ١٠ ابريل ١٩٧١
منشورات وزارة الارشاد القومي صفحة ٣١ •

الفهرس

٥	مقدمة الناشر
٧	اهداء
٩	من كلمات الرئيس جعفر نميري
١١	مقدمة المؤلف
١٥	لمحات تاريخية من النضال
٢٧	بعد احداث سنة ١٩٢٤
٤٧	حقوق الافراد في مقاييسهم
٧٣	الاطان والاديان في موازينهم
٨٣	مقدمات .. ومقدمات
١٠٥	ثورة مايو المباركة
١٢٩	القائد البطل
١٥٣	تلال من المشاكل
١٦٧	مؤامرة فاشلة وإرادة شعبية
١٩٩	هدامون .. ومهدومون
٢٠٥	حب واجماع
٢١٩	اما بعد ..

هذا الكتاب

« عائد يا نميري » ..

بهذا الهتاف ، الصادر من القلوب ، حددت جماهير الشعب السوداني الأصل موقفها من المتآمرين على ثورتها ، ثورة الخامس والعشرين من مايو وقائدها البطل جعفر النميري ..

إن الشعب يعرف طريقه ، ويعرف قاداته المخلصين فيتمسك بهم ، ويصر على بقائهم في موقع المسؤولية ، ويتحدى قوى التآمر والغدر ، ويطيح بالمارقين دعاة المذاهب الهدامة .

ولقد كان موقف جماهير الشعب السوداني ، العامل الحاسم الذي حطم المؤامرة والمتآمرين .. ولقد اثبتت الجماهير تصميمها على ممارسة حقها في اختيار قاداتها والتمسك بهم ، وحقها في رفض من لا يؤمنون بعقيدتها الصافية وتقاليدها العريقة ..

لقد نشر الكثير عن قصة الانقلاب الشيوعي الفاشل في السودان ، أقصر انقلاب في تاريخ الامة العربية .. ولكن بقيت الدراسة الوافية عن النضال الوطني للشعب السوداني من أجل الاستقلال والسيادة ، وعن ثورة مايو وضباطها الاحرار وأسباب تمسك الشعب بهم ، وكذلك عن ماضي رؤوس الانقلاب الفاشل وافكارهم .. الدراسة التي نقدمها في هذا الكتاب . والله الموفق .

الناشر

الشمس ٤٥٠ ق. ل. او ما يعادلها

يطلب في السودان من
مكتبة الحرية - أم درمان